

بسم الله الرحمن الرحيم

الهداية

تأليف

محمد بن سعيد الأندلسي

لطف اللّه به

همسات

إلى أهل الغربة والبلاء والصفوة النجباء ... إلى من قيدهم الحديد وسورهم جُداران المذلة والعبيد ... إلى من اشتدت عليه وطئتُ الكفار وطالت عليه السنين والأعمار وانصرف عنه القريب والبعيد ... من عرف الحق تحت المطارق والحديد ... صبراً فأنتم الأمل في رفع الراية من جديد، فلم يبقى بعدكم رجال على الحق تقارع أهل الشرك والتنديد.

إلى الشعوب والأقوام: ندعوكم إلى صحيح الإسلام، ونبرأ إلى الله عزَّ وجلَّ منكم ومما تعبدون من دون الله، كَفَّرْنَاكُم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده خاضعين له بالطاعة والعبادة، منقادين له بالحكم والاتّباع، ونقول لكم كما قال أبونا إبراهيم لسلفكم: ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

إلى علماء السلاطين: من باع دينه بدنيا غيره، إلى من عاش بعلمه واقتات بدينه ... أيها الطواغيت السَّفلَة لو كان في كنانتي عشرة أسهم لنثرتها عليكم.

إلى جماعات القتال: من شابت لحيته في الثغور والنزال، يحسب أنه على جادة الطريق قد أصاب المورد الزلال، وهيهات هيهات ... إلى من استكبر على الحق وكابر حتى فَنِيَّ وأَفْنىَ ... إلى من يُصِّر على عبادة الرجال واقتفاء أثر الآباء والأبدال ولو كانوا ضُلاَّلاً جُهَّال ...إلى من كبر عليهم ما دعوناهم إليه ...عودوا إلى الحق فإنه الفضيلة... أوبوا إلى الإسلام وارفعوا بحقٍ رايةَ خيرِ الأنام، تُفتح لكم الأرضُ وتبوؤ بالفوز في ساحات القتال، ولا يصدنكم الكبر ولا الأصنام ولا الشيوخ ولا الرجال.

لما جَاءَ اللهُ بالإسلامِ كانَ الرجلُ إذا أسلَمَ في قَبيلتهِ وحَيِه غَريباً فيهم، مُستخفياً بإسلامِهِ قد جَفاهُ الأهلُ والعَشيرة ورموه عن قَوسٍ واحدة، فهو بينهم يتجرعُ غُصَصَ الجَفاءِ والأَذى ... ولقد عادَ الإسلامُ غَريباً كما بدأ أولَ مَرة لكثرةِ الأهواءِ المُضلِلَة والمَذاهِبِ المُختلفة والأَديَانِ والنِحل الوَضِيعة، حتى صار أهلُ الحقِ في الناسِ غُرباء لقلتهم بين الغُثاء مُتدثرين بحُلَلِ العناء قَابضين على جَمرِ البَلاء ... اللهم اربِط على قُلوبهم وآنس وحشتهم وأحسن خاتمتهم.

عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿ إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ ، قِيلَ: وَمَنِ الْغُرَبَاءُ؟ قَالَ: " النُّزَّاعُ مِنَ الْقَبَائِلِ﴾

إلى الحيارى: من لسان حاله يقول والله ما أدر على ما أنا عليه !!، إلى من أكثروا التنقل والتلون ... إلى من تاهوا في الشكوك والضلالة يتقلبون في صفحات الجهالة والغواية، توبوا إلى الله واستمسكوا بحبله المتين والزموا سنة نبيه الأمين وغرز أصحابه الميامين.

وإني لأخذ بأيدي هؤلاء إلى الهداية والرشاد وأسال الله أن يشرح صدورهم للحق المبين وهو الهادي ذي القوة المتين.

وكُنتُ وصَحبي في ظلامٍ مِنَ الدُجَى ... نَسِيرُ عَلى غير الطَرِيقِ ولا نَدْرِ

وكُنا حَيارَى فِي القِفَارِ ولَم يَكُنْ ... دَلِيلٌ لَنا نَرجُو الخَلاَص مِن القَفْرِ

ظَمَاءٌ إلى هَدْيٍّ يَبُلُ غَلِيْلَنا ... وَقَد قَطَعَ الأَعنَاقَ مِنَا لَظَى الهَجْرِ

فَمَا هُوَ إلا أَنْ تَبدَّى لِنَاظِرِي ... سَنَا بَرقٍ يَبْدو كَنُورٍ مِنَ الفَجْرِ

فَيَمَمْتُ وَجهِي نَحوَه مُتَجَرِداً ... مِنَ الأَهوَاءِ وَالأدواءِ التِي تَسْرِ

فَخَالَجنِي نُورُ الهُدى بِضيَائهِ ... يَجلي الظَلاَمَ البَهِيمَ كالبَدْرِ

فَرأيتُ حَقاً سَاطِعاً أَنوارُه ... يُحْيِّ مَواتاً للقُلُوبِ مِن الكُفْرِ

حَقاً ثَقيلاً حَمْلُهُ فِي زَمانِنَا ... إلا إِمَاماً قُدوَةً للنَاسِ في الخَيْرِ

يُقيمُ صَرْحاً لِمِلَةٍ دُرِسَتْ ... زَمَاناً طَويلاً في جَاهِليةِ العَصر

صَبْراً عَلى مَا تَنُوءُ الجِبَالُ بِه ... يَرجُو الثَوابَ مِنَ اللهِ والأَجْرِ

فَقُلْتُ أَيُها الصَحْبُ الكِرامُ أَلا ... إلى الإِسلامِ أُوبُوا إلى أَولِ الأَمْرِ

فَإِنِي رَائِدٌ مُشْفِقٌ نَاصِحٌ لكُم ... أَجِيبُوا دَاعِيَّ اللهِ قَبلَ ضَمةِ القَبْرِ

تمهيد

الحمدُ للهِ الذي أضَاءَ قُلوبَ المسلمين بنور الإيمان، وأحيَاهُم بعد مَوَاتٍ وأنبتهم بين غُثاء آخر الزمان، وهدَاهم لما اختُلِف فيهِ مِن الحقِ بإذنه وأزاغَ عنهُ أولياءَ الشيطان، وتولاهم برحمته وأسبغ عليهم نعمته وأحلَ عليهم السكينَة والرضوان، فكانوا هم السعداء حقاً برغم القيد والغدر ودائرة الزمان، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أولياء الرحمن الذين سادوا بكتاب الله وهدي رسوله ﷺ الديار والبلدان، وكانوا نبراساً لطالب الهُدَى أئمة الأنام لكل زمانٍ ومَكان، ثُم تطاول العهد بعد العلو والظهور بالبيان والسنان، فصار أهل الأرض بين تائهٍ وحيران وعبد للطاغوت ومُنقادٍ للشيطان، فالأرض قد غشاها ظُلْمَة الجَهل والشرك والإعراض والكُفران، قد استولى عليها أئمة الكفر وعساكر الفساد، وطواغيت علمٍ زَينوا الباطل بِبَهرج القول وزُخْرُفِه[1] ليَنالوا به رِضا السُلطان، فوُكِلوا إلى ظُلمات أراءِهم ودَسائِس أفكارهم فكانوا كالكلب الظمآن، سُوقهم نافقة وأُصولهم في أهل الشرك رَاسِخة ودِينُهم له يُدان، وسوقُ الحقِ كَاسِدةٌ لا تُقام، وقولهم بين الأنَامِ قد علاه الرُكَام وصَوتُهم لهُ أنين قد أحَاط به عَالِي الجُدران.

أما بعد فإنه زمن الفتن ومن أعظمها تقليب الأمور، فَقلَبُوهَا ظَهرًا لِبَطن فصِرنا إلى ما قاله الفضيل بن عياض: «كَيْفَ بِكَ إِذَا بَقِيتَ إِلَى زَمَانٍ شَاهَدْتَ فِيهِ نَاسًا لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَلَا بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ، وَلَا بَيْنَ الْأَمِينِ وَالْخَائِنِ، وَلَا بَيْنَ الْجَاهِلِ وَالْعَالِمِ، وَلَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا»[2]،ايه والله فقد صرنا إلى هذا الزمان، وعاد الناس إلى عبادة الطاغوت والأوثان، فعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: قَالَ لِي رَاهِبٌ: «يَا سَعِيدُ فِي الْفِتْنَةِ يَتَبَيَّنُ لَكَ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ مِمَّنْ يَعْبُدُ الطَّاغُوتَ»[3]، إنها فتنة الشرك بالله والعُدول عن شرعه ودينه القويم إلى أوضاعِ وقِيَم الجاهلية وعقائد وتصورات الوثنية، أبصَرَها أُولِي البصائر والهداية وعَمِيَ عليها أهل الضلالة والغواية ومثل الفريقين كما قال تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[هود:٢٤] .

[1] قال مُجَاهِدٍ ﴿ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾:« تَزْيِين الْبَاطِل بالألسنة» رواه الهروي في ذم الكلام برقم ٧٧٣

[2] الإبانة الكبرى ١/١٨٨

[3] الابانة الكبرى برقم ٧٦٩

إنَّ ما تَنازعه الناس في هذا الزمان لهو حقيقةُ الإسلام الذي أدركه خُصُومُ الرِسَالةِ المحمدية والملة الحنيفية من أهل كتاب معاندين وجاهليين وثنيين، علموا أن محمداً ﷺ بُعث بالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له والنهي عن عبادة ما سواه، وإفراد الله بالطاعة والحكم والتلقي عن الله الواحد القهار، والبراءة من سائر الأديان والأقوام، وتكفير من لم يأت بهذا الأصل العظيم، وقد ابتُلينَا في هذا الزمان بقومٍ تحلَّوا بزي العلماء فَثقُل عليهم حَمل الدين كاملاً لعظم الفجوة بينه وبين الجاهلية، فغيروا حَدَّهُ واشتروا بآيات الله ثمناً قليلا ... فصار علماء هذه الأمة شرارها حالهم أشد من حال الأحبار والرهبان الذين ذمهم الله في كتابه في مواضع كقوله:﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٦٩]، قال السُّدِّيّ فِي قَوْلِهِ:﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾: «هُمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَشْبَاهُهُمْ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمُرْجِئَة»[١]، وهمُ الذين خافهم رسول الله ﷺ على هذه الأمة كما في حديث ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ»[٢]وهم الذين أفسدوا الدين كما قال ابن المبارك:

وَهَل أفْسَدَ الدِّينَ إلَّا المُلوكُ ... وَأحبارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُها؟

إنَّ من عرف التوحيد الذي جاء به موكب النور من الأنبياء والمرسلين، واستَّيقَن قلبُه بما مَنَّ الله عليه من نور الهداية، ثُم نظر بعين البصيرة من علو الإسلام إلى ظلمات الجاهلية في هذا الزمان، من خلائق وأوضاع ومدائن وأقوام وشعوب وحضارات وملل وديانات، لأصابه من عظيم الدهشة التي تَخْطِف بالقلوب والأبصار، وألَمَّ به من شَديد الوحشة بين هؤلاء الأقوام في تلك الديار، ونابَهُ من جفوة الغربة ما يزوي به بعيداً عن المشركين يبغي العُزلَة والفِرار ... إنَّ قلب الموحد ليَحَار ويَعظُم عليه ما أصابه هؤلاء الأقوام من التغيير والتبديل والحور بعد الكور، فقد استدار بهم الزمان إلى جاهلية جهلاء ونكبةٍ جَمعاء، ثم ينظر المسلم في نفسه وما امتن الله عليه من الفضل العظيم، فيخاف أن تزل به القدم بين هؤلاء الرعاع ولا ينفع يومئذٍ الندم، ويتأمل متدبراً في كتاب الله فيزداد به اليقين على مفارقة قومه للدين، وأنهم على ما كان عليه الأقوام المكذبين الذين قَصَّ اللهُ قصصهم في كتابه المبين فيقول: الحمد لله رب العالمين على نعمة التوحيد ومفارقة أهل الشرك والتنديد.

---

[١] رواه ابن ابي حاتم في تفسيره برقم ٨٤٩٢

[٢] رواه أحمد برقم ٢٢٣٩٣

وفي هـذه الكتـاب أسـتعين باللـه العلي العظيم على بيـان حقيقـة الإسـلام الـذي بُعِثَ بـه الأنبيـاء إلـى الخليقـة أجمعـين ... الحقيقـةُ الغائبـة بـين الأنـام الـذين يحسـبون أنهـم مـن المهتـدين، وإقامـة الـدلائل ونصـب الحجـج والبـراهين علـى أركانـه بـين التأصـيل والتنزيـل، وبيـان مفارقـة الأقـوام لصـحيح ديـن الإسـلام بوقـوعهم في شـرك العبـادة والطاعـة وشـرك الحاكميـة والاتِّبـاع، ودخـولهم في ديـنٍ وضـعي جديـد، وبيـان كفـرهم في عمـوم الـديار وسـائر الأمصـار في هـذا الزمـان، وأنـه لا يصـح الإسـلام اليـوم إلا بـالخروج مـن هـذه الجاهليـة العصـرية ومفاصـلة أهلهـا بـالبراءة مـنهم وتكفيـرهم، والـرد علـى أحفـاد الجهـم وبَلْعَـام وبيـان مـا هـم عليـه مـن التلبـيس والأوهـام ... أسـأل اللـه التوفيـق والسـداد وأسـتمد منـه العـون والرشـاد ... **﴿ اللهـم لـك أسـلمت وبـك آمنـت وعليـك توكلـت وإليـك أنبـت وبـك خاصـمت، أعـوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون﴾**[1].



[1] رواه مسلم برقم ٦٧ من حديث عبد الله بن عباس.

البَابُ الأوَّل

بين أوضاع الجاهلية ودين الإسلام

الفَصْلُ الأوَّل

الحكمة من إرسال الرسل

إن الله فطر الخلق على التوحيد وأخذ على ذلك الميثاق: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾[الأعراف:١٧٢]، وجعل الإشهاد عليهم حجة في الإشراك به تعالى، وسمى الله هذا الميثاق إيماناً كما في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾[آل عمران:١٠٦]، قال أبيّ بن كعب: «هو الإيمان الذي كان قبل الاختلاف في زمان آدم، حين أخذ منهم عهدهم وميثاقهم، و **أقرُّوا كلهم بالعبودية**، وفطرهُمْ على الإسلام، فكانوا أمة واحدة مسلمين»[١]، وعَنِ السُّدِّيّ في قَوْلُهُ تعالى: ﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ﴾[الأعراف:١٠١]، قَالَ «ذَلِكَ يَوْمَ أَخَذَ مِنْهُمُ الْمِيثَاقَ فَآمَنُوا كَرْهًا»[٢].

وجاء في الأخبار أن الشياطين اجتالت بني آدم عن فطرتهم قال تعالى:﴿ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَـٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾[النساء١١٩] قال ابن عبَّاس: «خَلْقَ اللَّهِ: **دِينَ اللَّهِ**. وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ فِي أحد قوليه وإبراهيم النَّخَعِيّ وَالْحَكَمِ وَالْحَسَنِ وَالسُّدِّيّ وَقَتَادَةَ وَالضَّحَّاكِ فِي الرِّوَايَةِ الثَّانِيَةِ وَعَطَاءٍ الخرساني نحو ذلك»[٣]، وعن مجاهد في قوله:" ﴿

[١] تفسير الطبري ٧/٧٥

[٢] رواه بن أبي حاتم برقم ٨٧٨٠

[٣] رواه ابن أبي حاتم في تفسيره برقم ٥٩٧٥

﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ ، قال: «**الفطرة دين الله**»[1]، وقال أبو جعفر:" يقول: ولآمرن النصيبَ المفروض لي من عبادك، بعبادة غيرك من الأوثان والأنداد حتى يَنْسُكوا له، **ويحرِّموا ويحللوا له، ويشرعوا غيرَ الذي شرعته لهم، فيتبعوني ويخالفونك**"[2].

وما ورد في حديث عِيَاض بْن حِمَارٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِيَ حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، فَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ بِهِ سُلْطَانًا﴾[3]، فسمى النبي ﷺ المفطور عليه ديناً والانحرافُ عنه إلى تحليل الحرام هو الشرك الذي لم ينزل الله به سلطانا، وهذا يدل على أن المنحرفين عن الفطرة ـ الدين ـ يعدلون إلى نُظُم وأوضَاع وقِيَم وشَرائِع ما أنزل الله بها من سُلطان.

ومن رحمة الله تعالى بخلقه إرسال الرُسل بعد انحرافِ الأُمم باتخاذهم الأنداد وعبادتهم الآلهة وتنصيب الأرباب التي تَسُنُّ لهم النُظُم والقوانين ما لم يُنزل الله به من سلطان... يُرسل الرُسُلَ ويُنزِل الكتب لإخراج الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام، كما جاء في الكتاب الحكيم في مواضع: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم:٥]، وقال تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١]، أي لتُخرجَ الأرضَ ــ التي مقتها الله عربها وعجمها إلا بقايا من أهل الكتاب ــ من ظُلمات الحيرة والتيه في تعدد الآلهة والأرباب، وظلمات الوهم والخرافة في وثنية القربات والتصورات، وظلمات الرذيلة والفجور في اختلال القيم وانحلال الأخلاقيات ... إلى نورٍ تُشرق به النفوسُ بعد أُفولِها، وينقشع به ظلام الشرك وضبابُ الخُرافة وغَبش الأوهام، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧]، أي: يخرجهم من الظُلمات التي غمسهم فيها الطواغيت، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى

[1] رواه الطبري في تفسيره برقم ١٠٤٧٢

[2] تفسير الطبري ٩/٢١٤

[3] رواه مسلم برقم ٦٣

ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[البقرة:٢٥٧]، أي: الذين يزجونهم في حمأة الكفر وظلمة الشرك، والله عزَّ وجلَّ يُخرجهم إلى النور بإرسال الرسل وإنزال الكتب، والصراع قائم بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، والعاقبة للمتقين.

أرسلَ اللهُ الرُسُلَ مبشرين ومنذرين بكلمة التوحيد: ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾[هود:٥٠]، بهذه الكلمة العظيمة والعروة الوثيقة التي هي كفيلة أن تُغيِّر حياتهم وتَهدم أوضاعهم وتَنسِّف الجاهلية نسفاً، ليحل محلها الإسلام الذي عُقْدَتُه الاستسلام والخضوع والانقياد والاتِّباع لله الواحد القهار، والمتابعة للنبي المُرسَل والطاعةُ له في جميع الأمور والأحوال، إذْ لا يثبتُ قَدَمُ الإسلامِ إلا على قنطرة التسليم المطلق لله تعالى، قال جلَّ وعلا: ﴿ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾[النساء:٦٥]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾[لقمان:٢٢]، إنها نقلةٌ رهيبة تهدم ما كان قبلها من تصورات ومُقدَسات وثوابت وأعراف جاهلية، فيصير التلقي في جميع الأمور والأحوال عن الله وحده من طريق واحد وهو الوحي المنزل على رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[الأعراف:٣].

فَلِوَاحِدٍ كُنْ وَاحِدًا فِي وَاحِدٍ أَعْنِي سَبِيْلَ الحَقِّ وَالإِيْمَانِ

فالمسلم هو الذي أسلم وجهه ـ أي كله ـ لله، وهو الذي يتلقى عن ربه في **الأصول الأربعة**:1_ العقائد والأخبار 2_والمناسك والشعائر 3_والشرائع و الأحكام 4_ ونظام الملك ومنهج الحياة، فالخالق لهذا الكون المتصرف فيه المدبر لأمره المالك له هو الذي له الخلق والأمر، وهو الذي يُقرر الاعتقاد والتصور للقلب والعبادة والشعائر للجوارح والنظام والمنهج للحياة، والمسلم هو الذي يتلقى عن ربه في الأصول الأربعة سواءً بسواء، وهذا معنى الكلية في التلقي التي لا يصح الإسلام إلا بها، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾[البقرة:٢٠٨]، قال ابن عباس:« **السِّلْمُ: الطَّاعَةُ** »، وَرُوِيَ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، نَحْوُ ذَلِكَ»[1]، فمن أشرك في العقائد كالجهمية والأشعرية فهو مُشرك، ومن أشرك في الشعائر كالصوفية والقبورية فهو

[1] أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير برقم ١٩٤٦

مُشـرك، ومـن أشـرك في النظـام ومـنهج الحيـاة كالديمقراطيـة والاشـتراكية فهـو مُشـرك سواءً بسواء.

إنَّ تحديـد ماهيـة الإسـلام وحقيقـة الإيمـان ينطلـق مـن التصـور الصـحيح للواقـع الـذي أُرسـل فيـه الرُسـل، والبيئـة التي دُعِيَ فيها إلى الإسـلام أول الأمـر، وتحديـد القـدر الـذي دعـا الرسـل أقـوامهم إلى تحقيقـه للـدخول في الإسـلام، والصـفة التي جـاء بها أتبـاع الرسـل حتى كـانوا مسـلمين، وكـذا تحديـد موضـع الخصـومة ومحـل النـزاع بـين الرسـل وأقـوامهم المخـالفين لهـم في أصـل الـدعوة، وبهـذا النظـر يكـون التصـور الصـحيح للإسـلام الـذي جـاء بـه الأنبيـاء والمرسـلين ... أمـا دعـاة "الإسـلام" اليـوم فهـم يخيطـون ديـنهم علـى مقـاس أقـوامهم، فكلمـا أحـدث الأقـوام شـركاً أو كفـراً أو بدعـة أحـدث لهـم الـدُعاة مخرجـاً ومسلكاً وعُذراً ... فشتان بين السبيلين والطائفتين أتباعُ الرسل وأتباعُ المرقعين.

وقبـل أن نحقـق ماهيـة الإسـلام التي جـاء بها الرسـل، لابـد مـن النظـر في حـال الأقـوام الـذين بُعـث فـيهم الرسـل، فإنها تُبعَـث إلى أقـوام مخـالفين لهـا في أصـل الـدعوة على الأغلـب الأعـم بعـد انحـراف الفطـرة واستشـراف الجاهليـة كمـا سـبق الإشـارة إليـه، مـع العلـم أنَّ الأصل في بني آدم التوحيـد والشـرك طـارئ عليـه، حيـث كان أول شـركٍ وقـع في قـوم نـوح لمـا غلـو في الصـالحين وأشـركوا باللـه رب العـالمين، وسـوف نعقـد فصـلا ـ بحـول اللـه وقوتـه ـ فـي توصـيف أوضـاع الجاهليـة كمقدمـة ضـرورية لتصـور حقيقـة الإسـلام ... وهـو مـن تفسـير الشـيء بضـده إذ لا يـتم معرفـة حقيقـة الشـيء إلا بتصـور حقيقـة ضـده، لأن الجاهليـة والإسـلام ضـدان لا يجتمعـان ولا يرتفعـان، قـال تعـالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾[الأنعام٥٥]، قـال ابـن أبـي زمنـين: ﴿سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ " يَعْنِـي: الْمُشْرِكِينَ بِالْآيَاتِ الَّتِي بَيَّنَ اللَّهُ فِيهَا سَبِيلَ الْهُدَى مِنْ سَبِيل الضَّلَالَة"[١].

عرفـت الشَّـرّ لَا للشـر لَكِـن لتوقيـه وَمـن لَا يعـرف الشَّـرّ مـن النَّـاس يَقـع فيـه

قـال حُذَيْفَـةُ بْـنُ الْيَمَـانِ: «**جَـاءَ الْإِسْـلَامُ حِـينَ جَـاءَ فَجَـاءَ أَمْـرٌ لَـيْسَ كَـأَمْرِ الْجَاهِلِيَّـةِ**»[٢]، وبهـذا التصـور لحقيقـة الشـيء وضـده تتمـايز الأمـور وتنكشـف حقـائق الأشـياء، إذ لـولا الظلام ما عُرف النور ولولا الشرّ ما استبان الخير، وكل ضدٍّ يكشف عن ضده.

ويجب على كل جميـع المكلفين تعلم ديـن الإسـلام بحـده الصحيح والعمل بـه، وخاصـةً في هـذا الزمـان الـذي اشـتدت فيـه الغربـة وانحرفـت فيـه الخليقـة أجمعـين ـ إلا مـن رحـم

[١] تفسير ابن أبي زمنين ٧٢/٢

[٢] رواه معمر بن أبي عمرو راشد الأزدي في الجامع (منشور كملحق بمصنف عبد الرزاق) برقم ٢٠٧١١

اللـه تعـالى ـ قـال اللـه تعـالى:﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[محمـد١٩]، وعَـنْ عَاصِـمٍ الْأَحْـوَلِ قَـالَ كَـانَ أَبُـو الْعَالِيَـةِ يَقُـولُ لَنَـا: «**تَعَلَّمُـوا الْإِسْـلَامَ** فَـإِذَا تَعَلَّمْـتُمُ الْإِسْـلَامَ فَتَعَلَّمُـوا الْقُـرْآنَ فَـإِذَا تَعَلَّمْـتُمُ الْقَـرْآنَ فَتَعَلَّمُـوا السُّـنَّةَ فَـإِنَّ سُـنَّةَ نَبِـيِّكُمْ ﷺ صِـرَاطٌ مُسْـتَقِيمٌ وَإِيَّـاكُمْ أَنْ تُحَرِّفُـوا الصِّرَاطَ يَمِينًا وَشِمَالًا وَإِيَّاكُمْ وَهَذِهِ الْأَهْوَاءَ الْمُرْدِيَّةَ الَّتِي تُلْقِي بَيْنَ النَّاسِ الْعَدَاوَةَ»[1].



[1] رواه الهروي في ذم الكلام برقم ٧٩٠

الفصل الثاني

اسم الجاهلية

إنَّ الجاهليةَ من الأسماءِ الشرعية التي تفسيرها موقوف على النص من الكتاب والسنة، وليس موكول إلى الآراء والأهواء، وليست هي فترة من الزمان تفوت بفواته، ولكنها وضعٌ من الأوضاع متى وُجِدَ هذا الوضع سُمِّي بالجاهلية، سواء كان من أول الزمان أو من آخره، أو حين الفترة بانقطاع الرسل أو بتقادم العهد بعد مُضي الرسالات، كما روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الأحزاب٣٣] قال: «**تكون جاهلية أخرى**»[١]، وعَنْ أَنَسٍ قَالَ: «إِنَّهَا سَتَكُونُ مُلُوكٌ ثُمَّ الْجَبَابِرَةُ ثُمَّ الطَّوَاغِيتُ»[٢]، والجاهلية الأولى أشرف من جاهلية اليوم، فجاهليةُ أمس اتَّبع فيها العرب الآباء والأجداد وجاهلية اليوم اتَّبعوا فيها الأعداء والأنداد، ونحن ابتداء نحدد الوضع الجاهلي الواردِ في الشرعِ وَصْفُه، ومن ثَمَ ننظُر في واقعنا المعاصر ونحقق المناط بحول الله وقوته.

واسم الجاهلية جاء في القرآن في أربعة مواضع تُحَدِدُ المعالم الكبرى لكل جاهلية في كل زمان ومكان، وجاء في السنة في مواضع كثيرة وفروع عديدة لا تخرج على الأصول الواردة في القرآن وهي:

١ـ جاهلية العبادة والشعائر ٢ـ وجاهلية الحاكمية والشرائع ٣ـ وجاهلية الولاء والبراء ٤ـ وجاهلية القيم والأخلاق، ونحن بحول الله وقوته سَنُفَصِّل القول على ضوء هذه الأصول فنقول:

المطلب الأول: جاهلية العبادة والشعائر

وهي التي تُقيم للناس آلهة تُصْرَف لها أنواع العبادات والقربات، والأصل في ذلك ما جاء عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ السُّلَمِيُّ: «كُنْتُ وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ»[٣]، وعند البغوي: «إِنِّي

---

[١] رواه ابن أبي حاتم في تفسيره برقم ١٧٦٧٢

[٢] مصنف ابن أبي شيبة برقم ٣٠٥٦٥

[٣] رواه مسلم برقم ٢٩٤

كُنْتُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَرَى النَّاسَ عَلَى ضَلالَةٍ، وَلا أَرَى الأَدْيَانَ شَيْئًا»[1]، و في حديث أُمّ سَلَمَةَ :« ... فَكَانَ الَّذِي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لَهُ: «أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ ، فَدَعَانَا إِلَى اللهِ لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ ... » الحديث[2].

ويدل عليها من كتاب الله ما روي عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ﴾[النجم: ٤٩]. قَالَ: « كَانَ نَاسٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَعْبُدُونَ هَذَا النَّجْمَ الَّذِي يُقَالُ لَهُ الشِّعْرَى»[3]، وعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيرٍ ﴿ أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾[الفرقان٤٣]، قَالَ:« كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَعْبُدُونَ الْحَجَرَ فَإِذَا رَأَوْا أَحْسَنَ مِنْهُ أَخَذُوهُ وَتَرَكُوا الْأَوَّلَ»[4]، وقوله تعالى: ﴿ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ﴾ [آل عمران ١٥٤]، عن قتادة والربيع في قوله: ﴿ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ﴾ ، قالا: «ظنُ أهل الشركِ»[5]، فإن المسيء الظن بربه قد ظن به خلاف كماله المقدس، وظن به ما يناقض أسمائه الحسنى وصفاته العلى، وهذا موجب للرَّدى والخسران كما قال تعالى: ﴿ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [فصلت ١٣]، ووجه مناسبة الآية للباب أن إدخال الوسائط بين الله تعالى وبين خلقه تنقصٌ بحقِ الربوبية ومُنازعةٌ لله في الألوهية وسوءُ ظنٍ برب العالمين.

وهذا من أبرز معالم الجاهلية المتمثل في اتخاذ الناس آلهة من دون الله تُصرف لها أنواع العبادات كالدعاء والاستغاثة والخوف والتوكل والسجود والذبح وغيرها، واعتقاد أنها تنفع وتضر وتقضي الحوائج وتكشف الكُرَب وأن لها الشفاعة والزلفى عند الله تعالى، وقد أخبر النبي ﷺ أنه لا تقوم الساعةُ حتى يخرج الناس من الدين أفواجا ويعودوا إلى عبادةِ الأوثان أفواجاً، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ

---

[1] رواه البغوي في شرح السنة ٣٢٢/٣

[2] رواه أحمد برقم ١٧٤٠

[3] تفسير عبد الرزاق برقم ٣٠٤٤

[4] رواه الهروي في ذم الهوى برقم ٣٥٧

[5] رواه الطبري في تفسيره برقم ٨٠٩١

حَتَّى تَضْـطَرِبَ أَلَيَـاتُ نِسَـاءِ دَوْسٍ حَـوْلَ ذِي الْخَلَصَـةِ طَاغِيَـةِ دَوْسٍ الَّتِي كَـانُوا يَعْبُـدُونَهَا فِي الْجَاهِلِيَّـةِ ﴾[1]، وعـن أبـي هريـرة ؛ قـال: تـلا رسـول اللـه ﷺ: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴾ [النصر:٢]، فقـال رسـول اللـه ﷺ: ﴿ليخـرجن منه أفواجًا كما دخلوا فيه أفواجًا﴾[2].

وهـذا أصـلٌ مـن أصـول شـرك العـالم: فاتخـاذ القبـور والمشـاهد والأوثـان والمعابـد في هـذا الزمـان في عمـوم البلـدان العربيـة كالبـدوي في مصـر والسـت زينـب في سـوريا والجيلانـي في العـراق و عبـد الـرحمن الثعـالبي في الجزائـر والحسـينيات في جزيـرة العـرب وغيرهـا كثير، لمعـالمٌ بـارزة وصـروحٌ شـاهدة علـى الجاهليـة القائمـة في الأرض في هـذا الزمـان، وحـال النـاس اليـوم كمـا كـان عليـه العـرب في الجاهليـة الأولى في كـل قريـةٍ صـنم ولكـل قبيلـةٍ إلـه، قـال تعـالى: ﴿ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ﴾ [النجم ٢٠]، فوثنيـة الجاهليـة الأولى هي وثنية اليوم سواءٌ بسواء.

المطلب الثاني: جاهلية الحاكمية والشرائع

وهـي التي تُقـيم للنـاس أربابـاً يُشَّـرِعون لهـم الـنُظُم والقـوانين ويَسـنُّون لهـم الشـرائع والأوضـاع ويحكمـونهم بغيـر مـا أنـزل اللـه، والأصـل في هـذا قولـه تعـالى: ﴿ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة٥٠]، عَـنِ السّـديّ قَـالَ:« **الحكـم حكمـان: حكـم اللـه وحكـم الْجَاهِلِيَّـة** ثـمَّ تَـلا هَـذِه الْآيَـة ﴿ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ »[3]، وعـن أَبُـو عُبَيْـدَةَ النَّـاجِيُّ قَـالَ: سَـمِعْتُ الْحَسَـنَ يَقُولُ: «**مَـنْ حَكَـمَ بِغَيْرِ حُكْـمِ اللَّـهِ فَحُكْـمُ الْجَاهِلِيَّـةِ**»[4]، وقـال الطبري: "وحُكـم الجاهليـة يعني: أحكـام عبَـدة الأوثـان مـن أهـل الشـرك ـ إلى أن قـال ـ ثـم قـال تعـالى ذكـره موبِّخـا لهـؤلاء الـذين أبـو قَبُـول حكـم رسـول اللـه ﷺ علـيهم ولهـم مـن اليهـود، ومسـتجهلا فعلَهـم ذلـك مـنهم: ومَـنْ هـذا الـذي هـو أحسـن حكمًـا، أيهـا اليهـود، مـن اللـه تعـالى ذكـره **عنـد مـن كـان يـوقن بوحدانيـة اللـه، ويقـرُّ بربوبيتـه**؟ يقـول تعـالى ذكـره: أيُّ حكـم أحسـن مـن حكـم اللـه،

---

[1] رواه البخاري برقم ٧١١٦ ومسلم رقم ٢٩٠٦

[2] رواه الحاكم في "مستدركه"، وقال: "صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي في "تلخيصه".

[3] الدر المنثور ٩٨/٣

[4] رواه ابن أبي حاتم برقم ٦٥٠٤

إن كنتم موقنين أن لكم ربًّا، وكنتم أهل توحيدٍ و إقراربه؟"[١]، فتلقي الدين ـ الذي هو نظام الحكم وشريعته ـ عن الطواغيت ما لم ينزل الله به سلطاناً، واتباعهم عليه والموافقة لهم في الظاهر، لهو من أبرز المعالم الظاهرة للجاهلية المعاصرة، قال الإمام مالك رحمه الله: «كانت مكة دار كفر لأن أحكام الجاهلية ظاهرة يومئذ»[٢].

وهذا المعلم متمثلٌ في هذا الزمان في إنشاء الجامعات التي تُدَرِّس القانون وتُخرِّج القُضَاة والمحامين والسياسيين الوضعيين، وتنصيب البرلمانات ومجالس الشعب التي تَسُنُّ القوانين والنُّظم، وإقامة المحاكم الوضعية التي تحكم بما شرعه الطواغيت، وإجراء الانتخابات لتنصيب الحُكَّام ونواب الشعب المشرعين، وهذه المعالم في هذا الزمان أكثر بروزاً وشهوداً مما كانت عليه الجاهلية الأولى، ففي جاهلية العصر يَتَجلى بوضوح حاكمية البشر للبشر وعبودية العباد للعبيد، وهذا أصلٌ من أصول شرك العالم، وهو الشرك في الطاعة والحكم بالله تعالى.

ولقد كانت الجاهلية الأولى تزعم أن ما تشرعه له أصل في دين الله، كما ذكر الله ذلك في أواخر سورة الأنعام عما كانت تُزاوله العرب من تقاليد وشرائع في شأن الذبائح والنذور والأنعام والثمار والأولاد، إذ أنها كانت تَنسب ذلك إلى الله تعالى افتراء عليه، كما قال تعالى: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام١٤٤]، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «إِذَا سَرَّكَ أَنْ تَعْلَمَ جَهْلَ الْعَرَبِ فَاقْرَأْ مَا فَوْقَ الثَّلَاثِينَ وَمِائَةٍ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام١٤٠]»[٣]، وعَنِ ابْنِ طَاوُسٍ عَنْ أَبِيهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا ﴾[الأنعام:١٤٥]، قَالَ: « كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَسْتَحِلُّونَ شَيْئًا

[١] تفسير الطبري ٣٩٤/١٠

[٢] المدونة الكبرى ٢٣/٣

[٣] رواه البخاري ١٨٤/٤

وَيُحرِّمُونَ أَشْيَاءَ، فَقَالَ: لَا أَجِدُ فِيمَا كُنْتُمْ تَسْتَحِلُّونَ إِلَّا هَذَا " يَقُولُ: ﴿ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ ﴾[الأنعام: ١٤٥]»[١].

وما كانوا يجرؤون على التصريح أنها من عند أنفسهم إنما يفترون على الله الكذب فيزعمون أنها شرعُ الله ينسبونها بذلك إلى شريعة إبراهيم وإسماعيل، وكذلك الأحبار والرهبان كانوا يفعلون[٢]، قال تعالى: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا

---

[١] تفسير عبد الرزاق برقم ٨٦٥، وكما في قوله تعالى: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا ﴾: قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم:« نزلت إنكارًا على المشركين فيما كانوا يحللون ويحرمون من البحائر والسوائب والوصائل كقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا ﴾، وعَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا الْأَحْوَصِ، يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَنَا قَشِفُ الْهَيْئَةِ، فَقَالَ: " هَلْ لَكَ مَالٌ؟ " قَالَ: قُلْتُ: " نَعَمْ " قَالَ: « مِنْ أَيِّ الْمَالِ؟ " قَالَ: قُلْتُ: مِنْ كُلِّ الْمَالِ مِنَ الْإِبِلِ وَالرَّقِيقِ وَالْخَيْلِ وَالْغَنَمِ، فَقَالَ: " إِذَا آتَاكَ اللهُ مَالًا فَلْيُرَ عَلَيْكَ " ثُمَّ قَالَ: " هَلْ تُنْتِجُ إِبِلُ قَوْمِكَ صِحَاحًا آذَانُهَا، فَتَعْمَدُ إِلَى مُوسَى فَتَقْطَعُ آذَانَهَا، فَتَقُولُ: هَذِهِ بُحُرٌ، وَتَشُقُّهَا، أَوْ تَشُقُّ جُلُودَهَا، وَتَقُولُ: هَذِهِ صُرُمٌ وَتُحَرِّمُهَا عَلَيْكَ، وَعَلَى أَهْلِكَ " قَالَ: نَعَمْ قَالَ: " فَإِنَّ مَا آتَاكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَكَ، وَسَاعِدُ اللهِ أَشَدُّ، وَمُوسَى اللهِ أَحَدُّ - وَرُبَّمَا قَالَ: سَاعِدُ اللهِ أَشَدُّ مِنْ سَاعِدِكَ، وَمُوسَى اللهِ أَحَدُّ مِنْ مُوسَاكَ » " رواه أحمد برقم ١٥٨٨٨ وله من طرق أخرى عن أبي الأحوص، يقول ابن كثير وهذا حديث جيد قوي الإسناد" تفسير ابن كثير ٢٧٦/٤

وقال ابن كثير:" وقد أنكر الله تعالى على من حرم ما أحل الله أو أحل ما حرم الله لمجرد الآراء والأهواء التي لا مستند لها ولا دليل عليها ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة: ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ ﴾، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾، قال ابن جرير: في تركه معاجلتهم بالعقوبة في الدنيا"، قلت ــ ابن كثير ــ ويحتمل أن يكون المراد لذو فضل على الناس فيما أباح لهم مما خلقه من المنافع في الدنيا ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم في دنياهم أو دينهم: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾، بل يحرمون ما أنعم الله به عليهم ويضيقون على أنفسهم فيجعلون بعضًا حلالًا وبعضًا حرامًا وهذا قد وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم، وأهل الكتاب فيما ابتدعوه في دينهم" تفسير ابن كثير ٢٧٦/٤

[٢] وفي الأثر عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ وَكِتَابُكُمُ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ أَحْدَثُ أَخْبَارِ اللَّهِ، تَعْرِفُونَهُ غَضًّا لَمْ يَشِبْ، وَقَدْ **حَدَّثَكُمُ اللَّهُ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ بَدَّلُوا كِتَابَ اللَّهِ وَغَيَّرُوهُ**، وَكَتَبُوا بِأَيْدِيهِمُ الْكِتَابَ وَقَالُوا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا؟ أَوَ لَا يَنْهَاكُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ عَنْ مَسْأَلَتِهِمْ. لَا وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا أَحَدًا مِنْهُمْ قَطُّ يَسْأَلُكُمْ عَنِ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ " رواه ابن أبي حاتم برقم ٨٠٤

يَكۡسِبُونَ ﴾ [البقرة ٧٩]، **أما في الجاهلية المعاصرة فهو الإلحاد في الحاكمية والتشريع** فهم يسمون نظامهم بالديمقراطية، وهو شعارهم في جميع المراسيم والوثائق والدواوين، ويسمون من يزاول التشريع "بالمشرع" و"السلطة التشريعية" جهاراً نهاراً في إعلامهم وقنواتهم ودساتيرهم ومناهجهم التعليمية، في اغتصاب سافر لسلطان الله عز وجل وإعلان فاضح لربوبية البشر... أفحكم الجاهلية يبغون؟ نعم إنهم يريدون، لأنهم ينتخبون فيُنَصِبُونَ الطاغوت، ويثورون فيُغَيِّرُون طاغوتا بطاغوت، إنهم غير دين الله يبغون، لأنَّ حكم الجاهلية غير دين الله ومن يبتغي حكم الجاهلية فقد ابتغى غير دين الله بمنطوق الآيتين، قوله تعالى: ﴿ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ ﴾ [آل عمران ٨٣]، أي: من ابتغى حكم الجاهلية فهو في غير دين الله، إنما هو في دين من يُحْكَمُ بشريعته ويخضع لسلطانه أي في دين ملوك الأرض، وهذا المعنى تؤكده النصوص القرآنية في كل مناسبات التشريع فما من مرة ورد في كتاب الله تشريعًا إلا أشار إلى المصدر الذي يجعل لهذا التشريع سلطانه في الأرض، أما حين يشير المولى إلى شرائع الجاهلية وعُرفها وتصوراتها وتحليلها وتحريمها، فهو يردفها غالبًا بقوله: ﴿ مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ ﴾ [الأعراف٧١]، لتجريدها من السلطان ابتداء، وبيان علة بطلانها في كونها لم تصدر من ذلك المصدر الوحيد الصحيح الذي يملك حق الحاكمية والتشريع، فهو يحكم ابتداء ببطلانها كلية بطلانًا أصليًا بما أنها صادرة من جهة لا تملك إصدار الشرائع والأحكام.

المطلب الثالث: جاهلية الولاء والبراء:

وهي التي تُقِيم للناس أسماء وروابط يُعقَدُ عليها الولاء والبراء وتثور فيها الحَميّة وتَتَداعى إليها النُصرَة، والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿ إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ﴾ [الفتح ٢٦]، قال الطبري: ﴿ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ﴾ لأن الذي فعلوا من ذلك كان جميعه من أخلاق أهل الكفر، ولم يكن شيء منه مما أذن الله لهم به، ولا أحد من رسله"[1]، وفي السنة عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَاجْتَمَعَ قَوْمُ ذَا، وَقَوْمُ ذَا، وَقَالَ هَؤُلَاءِ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ وَقَالَ هَؤُلَاءِ: يَا

[1] تفسير الطبري٢٢/٢٥٣

لِلْأَنْصَارِ فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: «دَعُوهَا، فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ " ثُمَّ قَالَ: " أَلَا مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ أَلَا مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ »[1] ، وعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: طَافَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ عَلَى نَاقَتِهِ الْقَصْوَاءِ يَسْتَلِمُ الْأَرْكَانَ بِمِحْجَنٍ فِي يَدِهِ، فَمَا وَجَدَ لَهَا مَنَاخًا فِي الْمَسْجِدِ حَتَّى نَزَلَ ﷺ عَلَى أَيْدِي الرِّجَالِ فَخَرَجَ بِهَا إِلَى بَطْنِ الْمَسِيلِ فَأُنِيخَتْ ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَبَهُمْ عَلَى رَاحِلَةٍ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ لَهُ أَهْلٌ ثُمَّ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، **إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وتعظيمها بِآبَائِهَا** فَالنَّاسُ رَجُلَانِ: رَجُلٌ بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَي اللَّهِ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ثُمَّ قَالَ أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ»[2] وفي السنة نصوص كثيرة من هذا الباب.

وقد كانت الجاهلية القديمة غارقةٌ في وحل القومية والقبلية، ومن نظر في أشعارهم وحروبهم وأيامهم علم سعة الحفرة التي استنقذهم الإسلام منها كما قال تعالى: ﴿ وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ [آل عمران ١٠٣]

قال ابن إسحاق: « كانت الحرب بين الأوس والخزرج عشرين ومائة سنة، حتى قام الإسلام وهم على ذلك، فكانت حربهم بينهم وهم أخوان لأب وأم، فلم يسمع بقوم كان بينهم من العداوة والحرب ما كان بينهم، ثم إن الله عز وجل أطفأ ذلك بالإسلام، وألف بينهم برسوله محمد ﷺ»[3].

وفي الجاهلية المعاصرة أقام الطواغيت للناس آلهة متعددة منها الوطنية والقومية والبعثية والشعوبية واللغة وأندية كرة القدم وغيرها، وهي لا تعدوا أن تكون أصنام غير مجسدة يُقَاتَلُ دونها ويُوالَى فيها ويُعادَى عليها، وما هي إلا أسماء وعلائق ما أنزل الله بها من سلطان كما قال تعالى: ﴿ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ ﴾ [يوسف ٤٠]، وغير ذلك من الشعارات العلمانية التي تمحض فيها الولاء للوطن وقُطِعَ الولاء فيها عن الله تعالى ودينه، ومنها قولهم: الدين لله والوطن

[1] رواه أحمد برقم ١٤٦٣٢

[2] رواه ابن أبي حاتم في التفسير برقم ١٨٦٢٢ ابن كثير ٧/ ٣٦٦- والدر المنثور ٧/ ٥٧٨.

[3] تفسير الطبري ٧٨/٧

للجميع، ومنها: الله، الملك، الوطن، ومنها شعارهم: القتال في سبيل الوطن وغيرها كثير من الشعارات الجاهلية في هذه المماليك العلمانية.

المطلب الرابع: جاهلية القيم والأخلاق

وهي التي تُقيم للناس عادات وأعراف وتقاليد وقِيَم على ميزان اللذة والهوى، فالفضيلة عندهم ما وافق اللذة، والرذيلة هي ما خالف اللذة وحالهم كما قال تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ [الفرقان ٤٣]، والأصل في هذه الجاهلية في كتاب الله قوله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الأحزاب ٣٣]، وقد ذكر الله تعالى التبرج كمثال لهذه الجاهلية باعتباره بريد الزنا والفاحشة، قال قتادة: « كانت لهن مشية وتكسر وتغنج، يعني بذلك: الجاهلية الأولى، فنهاهن الله عن ذلك»، وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: «وَالتَّبَرُّجُ: أَنَّهَا تُلْقِي الْخِمَارَ عَلَى رَأْسِهَا، وَلَا تَشُدُّهُ فَيُوَارِي قَلَائِدَهَا وَقُرْطَهَا وَعُنُقَهَا، وَيَبْدُو ذَلِكَ كُلُّهُ مِنْهَا، وَذَلِكَ التَّبَرُّجُ»[١] [٢].

ومن نظر في تبرج الجاهلية الأولى مما رُوي في ذلك من الآثار يرى أنها جد مُحتَشِمَة قياساً بالجاهلية المعاصرة، ولا تنظر إلى عارضات الأزياء في الفنادق والقنوات، ولكن

---

[١] تفسير بن كثير ٦/٤١٠

[٢] وعن عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، أَنَّ عَائِشَةَ، زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ: أَنَّ النِّكَاحَ فِي الجَاهِلِيَّةِ كَانَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ: فَنِكَاحٌ مِنْهَا نِكَاحُ النَّاسِ اليَوْمَ: يَخْطُبُ الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ وَلِيَّتَهُ أَوِ ابْنَتَهُ، فَيُصْدِقُهَا ثُمَّ يَنْكِحُهَا، وَنِكَاحٌ آخَرُ: كَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ لِامْرَأَتِهِ إِذَا طَهُرَتْ مِنْ طَمْثِهَا: أَرْسِلِي إِلَى فُلاَنٍ فَاسْتَبْضِعِي مِنْهُ، وَيَعْتَزِلُهَا زَوْجُهَا وَلاَ يَمَسُّهَا أَبَدًا، حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَمْلُهَا مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي تَسْتَبْضِعُ مِنْهُ، فَإِذَا تَبَيَّنَ حَمْلُهَا أَصَابَهَا زَوْجُهَا إِذَا أَحَبَّ، وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ رَغْبَةً فِي نَجَابَةِ الوَلَدِ، فَكَانَ هَذَا النِّكَاحُ نِكَاحَ الِاسْتِبْضَاعِ. وَنِكَاحٌ آخَرُ: يَجْتَمِعُ الرَّهْطُ مَا دُونَ العَشَرَةِ، فَيَدْخُلُونَ عَلَى المَرْأَةِ، كُلُّهُمْ يُصِيبُهَا، فَإِذَا حَمَلَتْ وَوَضَعَتْ، وَمَرَّ عَلَيْهَا لَيَالٍ بَعْدَ أَنْ تَضَعَ حَمْلَهَا، أَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنْ يَمْتَنِعَ، حَتَّى يَجْتَمِعُوا عِنْدَهَا، تَقُولُ لَهُمْ: قَدْ عَرَفْتُمُ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ وَقَدْ وَلَدْتُ، فَهُوَ ابْنُكَ يَا فُلاَنُ، تُسَمِّي مَنْ أَحَبَّتْ بِاسْمِهِ فَيَلْحَقُ بِهِ وَلَدُهَا، لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْتَنِعَ بِهِ الرَّجُلُ، وَنِكَاحُ الرَّابِعِ: يَجْتَمِعُ النَّاسُ الكَثِيرُ، فَيَدْخُلُونَ عَلَى المَرْأَةِ، لاَ تَمْتَنِعُ مِمَّنْ جَاءَهَا، وَهُنَّ البَغَايَا، كُنَّ يَنْصِبْنَ عَلَى أَبْوَابِهِنَّ رَايَاتٍ تَكُونُ عَلَمًا، فَمَنْ أَرَادَهُنَّ دَخَلَ عَلَيْهِنَّ، فَإِذَا حَمَلَتْ إِحْدَاهُنَّ وَوَضَعَتْ حَمْلَهَا جُمِعُوا لَهَا، وَدَعَوْا لَهُمُ القَافَةَ، ثُمَّ أَلْحَقُوا وَلَدَهَا بِالَّذِي يَرَوْنَ، فَالْتَاطَ بِهِ، وَدُعِيَ ابْنَهُ، لاَ يَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ «فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِالحَقِّ، هَدَمَ نِكَاحَ الجَاهِلِيَّةِ كُلَّهُ إِلَّا نِكَاحَ النَّاسِ اليَوْمَ»رواه البخاري برقم ٥١٢٧ (أنحاء) أنواع. (وليته) من في ولايته. (فيصدقها) يجعل لها مهرا معينا. (طمثها) حيضها. (فاستبضعي منه) اطلبي منه المباضعة وهي المجامعة مشتقة من البضع وهو الفرج. (يمسها) يجامعها. (نجابة الولد): أي ليكون نفيسا في نوعه وكانوا يطلبون ذلك من أشرافهم ورؤسائهم وأكابرهم جهلا منهم وضلالا. (الرهط) ما دون العشرة من الرجال. (يصيبها) يجامعها. (البغايا) جمع بغي وهي الزانية. (رايات) جمع راية وهي شيء يرفع ليلفت النظر. (علما) علامة. (القافة) جمع قائف وهو الذي ينظر في الملامح ويلحق الولد بمن يرى أنه والده. (فالتاط به) فالتحق به والتصق. (هدم) أبطل]

انظُر إلى العارضات في الشوارع والمنتديات فاللحم العاري المتناثر هنا وهناك يثير اشمئزاز أصحاب الفطر السليمة، وليس للجاهلية الأولى خصوصية في هذا الباب بل مظاهر العُري ودَواعي الفساد بلغت ذروتها في هذا العصر وحسبك بالشاشات والأنترنت ترى عظيم الفتنة التي لا عاصم لها إلا من عصمه الله من عباده المخلصين.

وبعد هذا الطرح المختصر لأصول الجاهلية نصل إلى تصور حقيقة الوضع الجاهلي والتركيبة التي يقوم عليها، وبين التأصيل والتنزيل على واقع المجتمعات اليوم لا يبقى للمنصف أدنى ريب أو تردد أن هذه المجتمعات يتحقق فيها اسم الجاهلية ووصفها الوارد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.



الفَصْلُ الثَّالِثُ

بين مجتمعات الجاهلية ودعوة الإسلام

إنهـا أوضـاع الجاهليـة: أوثانٌ ومشاهد وقبورٌ ومعابد تُقصَدُ بالعبادة والتعظيم ويُصرَفُ لها ما اختص الله به من صنوف العبادات كالدعاء والذبح والنذر وغيرها ويُعتقد فيها النفع والضر والزلفى والشفاعة ... والمشركون لهم أعياد ومواسم وقُربان وشعائر ظاهرين في الأرض من غير نكير ولا نذير ولا براءة ولا تكفير ... إنه المجتمع الجاهلي، فالإسلام يهدم جميع الآلهة الباطلة من القلوب والوجود كما جاء عَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: «دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَكَّةَ وَحَوْلَ الْبَيْتِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ صَنَمًا، فَجَعَلَ يَطْعَنُ بِعُودٍ فِي يَدِهِ وَيَقُولُ: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: 81] و ﴿ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سبأ: 49]»[1]... نعم فالباطل زهوقٌ بكيانه ومظاهره في المجتمع الإسلامي وقائم بكيانه ومشاهده وعقائده في المجتمع الجاهلي، قال تعالى: :﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[الأنفال٣٩]، عن مجاهد: «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة"، قال: **"يَسَاف" و"نائلة"، صنمان كانا يُعبدان**»[٢].

إنهـا أوضـاع الجاهليـة: فلما يكون في الأرض بعض الخلق أربابٌ يزاولون حق الربوبية من الحاكمية والتشريع، والآخرون عبيد منقادون لهؤلاء الأرباب، والأمر قائم على أحقية المداولة في الربوبية والعبودية بين أفراد المجتمع ... يكون بذلك مجتمعاً جاهلياً، إذ المسلمون قائمون بأمر الله منقادون لحكمه يتحاكمون لشرعه في جميع الأمور والأحوال قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور ٥١].

---

[١] رواه النسائي في الكبرى برقم ١١٢٣٣

[٢] رواه الطبري برقم ١٦٠٨٥

إنها أوضاع الجاهلية: ولما يكون في الأرض أسماءٌ وعلائق وروابطٌ وسوابق يقوم عليها الولاء ويُعقد فيها البراء، كالقوم أو اللون أو العرق أو العشيرة أو الوطن وغيرها، فإن المجتمع يصير إلى أشياعٍ وأحزابٍ جاهلية كما قال تعالى في توصيف ما صار إليه أهل الكتاب: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾[المؤمنون ٥٣]، فالمجتمع حينما يجتمع على هذه الأواصر والروابط فهو مجتمع جاهلي، إذْ المجتمع الإسلامي يقوم على الولاء لله ورسوله ﷺ والمؤمنين والبراءة من المشركين والكافرين قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ۝ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة ٥٦] .

إنها أوضاع الجاهلية: ولما يكون في الأرض قِيَم ومَوازين وعادات وتقاليد مستمدة من أهواء الذين لا يعلمون، تَحْرِفُ البشرية إلى البهيمية وتنتكس بها الفطر السوية فحينئذٍ يكون المجتمع جاهلياً ... فالمجتمع الإسلامي يتلقى القِيم والموازين من عند الله تعالى وتُضبَطُ فيه العادات والتقاليد على ضوء شرع الله.

هذه هي الجاهلية التي جاء الإسلام لهدم أوضاعها وأرسل اللهُ الرسل لإخراج الناس من ظلماتها وجورها إلى نور التوحيد وعدل الإسلام، كما قال ربعي بن عامر رضي الله عنه لرستم ملك الفرس:« لقد ابتعثنا الله لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخر»[1].

المطلب الأول: حقيقة دعوة الإسلام للمجتمعات الجاهلية

لقد جاء الإسلام لإقامة المجتمع على الاستسلام لله في جميع الأمور والأحوال والتلقي عن الله في الأصول الأربعة، **فالإسلام يدعوا هذه المجتمعات** إلى توحيد الألوهية بإفراد الله تعالى بالعبادة والشعائر وخلع الأنداد والآلهة الباطلة والبراءة منها ومن عابديها قال تعالى: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾[التوبة ١١]، قال مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ : «فَإِنْ تَابُوا مِنَ الشِّرْكِ

[1] البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ٤٦)

وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَمْ تَقْتُلْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، وَرُوِيَ عَنِ الضَّحَّاكِ فَإِنْ تَابُوا مِنَ الشِّرْكِ»[1].

والإسلام يدعوا هذه المجتمعات: إلى توحيد الربوبية بإفراد الله بالحكم والتشريع وإقامة دين الله في الأرض بسيادة الشريعة الربانية فيها، وهي الصورة الوحيدة التي يتحرر فيها العبيد من ربقة العبودية للعبيد إلى العبودية لرب العبيد.

ولا يخرج الجاهلي من دينه الوضعي إلا باعتقاد أن الحكم حقٌ لله وحده كما أن العبادة هي حقٌ لله وحده، ويُفرد الله بالتلقي والاتباع في الشرائع والأوضاع، والتحاكم إلى شرعه حال الخصومة والنزاع، ويخلع جميع الطواغيت والآلهة والأرباب والأنداد، ويتبرأ منها ومن عابديها كالمتابعين لنظامها والمتحاكمين لشرعها والخاضعين المنقادين لسلطانها واعتقاد أنهم على دين باطل.

والإسلام يدعوا هذه المجتمعات: إلى التجمع على رابطة الدين والعقيدة والولاء لله ولرسوله والمؤمنين والبراءة من المشركين **قال تعالى**: ﴿ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة ٤]، **قال الطبري**: "فقوله: ﴿ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ، يقول: حين قالوا لقومهم الذين كفروا بالله وعبدوا الطاغوت: **أيها القوم إنا برآء منكم، ومن الذين تعبدون من دون الله من الآلهة والأنداد**"[2].

ولا يخرج الجاهلي من دينه الوضعي إلا بتحقيق الأسوة الحسنة وهي الاقتداء بإبراهيم والأنبياء معه عليهم السلام كما قال ابن زيد في قول الله عزّ وجلّ: ﴿ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ **قال: الذين معه الأنبياء**"[3]، وذلك بالبراءة من قومه والكفر بهم وعداوتهم وبغضهم وخلع الروابط الجاهلية كالوطنية والقومية والبعثية والعشائرية والكفر بها، وقطع الولاء والمودة لمن حاد الله ورسوله كما قال

[1] رواه ابن ابي حاتم في تفسيره ٩٢٧٣

[2] تفسير الطبري ٣١٧/٢٣

[3] تفسير الطبري ٣١٧/٢٣

تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة ٢٢].

والإسلام يدعوا هذه المجتمعات: إلى استمداد القيم والموازين من الشرع لا من الهوى، فالمسلمون إذا خَلَصَت نُفوسهم لله وذلت واستسلمت له بالتوحيد وأفردته بالإتّباع والتلقي والانقياد، أصبحوا لا يجدون في نفوسهم خِيَرَة إلا ما يختاره الله لهم، وحينئذٍ يرتفعون عن رذائل الجاهلية ويأتمرون بأوامر الله لما يخاطبهم بنداء الإيمان، فيُطَاع الله في أمره ونهيه لتَحَقُّقِ كمال الاستسلام والحب لله تعالى في القلوب ... ويخرج الجاهلي من دينه الوضعي لما يحقق توحيد المتابعة لله تعالى في شرعه ودينه ويخلع ربقة الأهواء الرديئة واتباع القيم والموازين الوضيعة، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية١٨].

هذه هي الدعوة التي جاء بها الرسل والرسالة التي حملها الأنبياء إلى الجاهلية وأقوامها لإخراجهم من الظلمات إلى النور، وبها يُفرق المسلم بين الأقوام والمجتمعات والديار عند النظر في أوضاعها ومعالمها ليتبين له حالها، فيكون على بينة من أمر دينه ويتعبد ربه على هداية وبصيرة من حال قومه، كما قال الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم الله هداية: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ﴾ [الكهف ١٦].

وبعد هذا القدر من التأصيل نجد أنفسنا أمام حتمية الجواب على السؤال الذي يفرض نفسه على ذهن القارئ: ما هو حد الإسلام الذي جاء به الرسل لإخراج الناس من الجاهلية إلى الإسلام؟ وما هو القدر الذي يحققه الجاهلي في هذه المجتمعات ليخرج من هذه الأديان الوضعية ويقطع ربقة الجاهلية ويفرد الله بالطاعة والحاكمية ويحقق دين الإسلام ويستضيء بنور التوحيد والإيمان؟

الإسلام: الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والاتباع والبراءة من الشرك والأقوام المشركة.

وهـذا الحـد يقـوم على ثلاثـة أركان مـن لـم يـأت بها جميعـاً لا يسـمى مسـلماً، كمـا أنهـا إذا لـم تقـم في الأرض بمجموعهـا لا يسـمى القـوم بالمسـلمين، وإذا ارتفـع الإسـلام حلـت الجاهليـة في أشـكالها وصـورها وأوضـاعها التي سـبق الحـديث عنهـا، وبعـد هـذا الإجمـال سـنعقد بابـاً نُفصِّلُ فيه حَدَ الإسلام واللهُ الهادي من اتبع رضوانه سبل السلام.



الباب الثاني

حدّ الإسلام

الفصل الأول:

الاستسلام لله بالتوحيد

إنَّ الإسلامَ يقومُ على قاعدة **الاستسلام لله بالعبودية والطاعة** ودلت على ذلك أدلة كثيرة في كتاب الله:

❁ قال تعالى: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[آل عمران ٨٥]، قال الطبري:" ويعني بقوله: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ ونحن له **منقادون بالطاعة، متذللون بالعبودة، مقرّون لهُ بالألوهة والربوبية، و أنه لا إله غيره**"[١].

❁ وقال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ﴾[البقرة ١٣١]، أي: "أذعن أو **أطع أو أخلص** دينك لله ﴿قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: أخلصت أو انقدت"[٢].

❁ وقوله تعالى:﴿وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾[النمل ٣١]، قال ابن زيد في قوله: ﴿وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾[النمل ٣١]، يقول: «**و أقبلوا إليّ مذعنين لله بالوحدانية والطاعة**»[٣].

[١] تفسير الطبري ٥٧٠/٦

[٢] مدارك التنزيل وحقائق التأويل ١٣١/١

[٣] تفسير الطبري ٤٥٣/١٩

❁ وقال تعالى: ﴿ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[الأنعام ٧٢]، قال الطبري:" وأمَرَنا ربُنا وربّ كل شيء تعالى وجهه، لنسلم له، **لنخضع له بالذلة والطاعة والعبودية**، فنخلص ذلك له دون ما سواه من الأنداد والآلهة"[١].

❁ وقال تعالى: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[هود١٤]، عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ:« **الاسْتِجَابَةُ الطَّاعَةُ**»[٢]، وقال الطبري:"﴿ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾، يقول: **فهل أنتم مذعنون لله بالطاعة، ومخلصون له العبادة،** بعد ثبوت الحجة عليكم؟"[٣].

❁ وقال تعالى:﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[الأنعام١٤]، قال السمعاني:" يَعْنِي: من هَذِه الْأمة، **وَالْإِسْلَام يَعْنِي الاستسلام لأمر الله تَعَالَى** ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ **وَهُوَ وَإِن كَانَ مَعْصُوما**"[٤].

❁ وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾: قال ابن كثير:" أي: آمنت قلوبهم وبواطنهم، وانقادت لشرع الله جوارحهم ﴿ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾[النساء١٥٢]: **أطيعوا** الله ورسله واتبعوه فيما شرع لكم" [٥].

❁ وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً ﴾[البقرة٢٠٨]، قال ابن عباس:« **السِّلْمُ: الطَّاعَةُ** »، وَرُوِيَ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، نَحْوُ ذَلِكَ"[٦]، عن عكرمة قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً﴾، قال: «نزلت في ثعلبة، وعبد الله بن سلام وابن يامين وأسد وأسَيْد ابني كعب وسَعْيَة بن عمرو وقيس بن زيد- كلهم من يهود- قالوا: يا رسول الله، يوم السبت يومٌ كنا نعظمه، فدعنا فلنُسبِت فيه! وإن التوراة كتاب الله، فدعنا فلنقم بها بالليل! فنزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً ﴾ »، قال الطبري: "فقد صرح عكرمة بمعنى ما قلنا في ذلك من أن تأويل ذلك دعاء للمؤمنين إلى

---

[١] تفسير الطبري ٤٥٦/١١

[٢] رواه ابن أبي حاتم برقم ١٠٧٣٢

[٣] تفسير الطبري ٣٦١/١٥

[٤] تفسير السمعاني ٩٢/٢

[٥] تفسير ابن كثير٢٣٨/٧

[٦] أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير برقم ١٩٤٦

رَفـض جميـع المعـاني التي ليسـت مـن حكـم الإسـلام، والعمـل بجميـع شـرائع الإسـلام، والنهي عن تضييع شيء من حدوده"[١].

وقـال الطبري:" وأصـل "الإسـلام": الاستسـلام، لأنـه "مـن استسـلمت لأمـره"، وهـو الخضـوع لأمره، وإنما سُمي "المسلم" **مسلماً بخضوع جوارحه لطاعة ربه**"[٢].

وقـال البغـوي:" **وَالْإِسْـلَامُ: هُـوَ الـدُّخُولُ فِي السِّـلْمِ، وَهُـوَ الِانْقِيَـادُ وَالطَّاعَـةُ**، يُقَـالُ: أَسْـلَمَ، أَيْ: دَخَـلَ فِي السِّـلْمِ، وَاسْتَسْـلَمَ"[٣]، وقـال:" فالإسـلام هـو الـدخول إلى السِّـلْمِ وَهُـوَ الِانْقِيَـادُ وَالطَّاعَـةُ، يُقَـالُ: أَسْـلَمَ الرَّجُـلُ إِذَا دَخَـلَ فِي السِّـلْمِ كَمَـا يُقَـالُ: أَشْـتَى الرَّجُـلُ إِذَا دَخَـلَ فِي الشِّـتَاءِ، وَأَصَـافَ إِذَا دَخَـلَ فِي الصَّـيْفِ، وَأَرْبَـعَ إِذَا دَخَـلَ فِي الرَّبِيـعِ، فَمِـنَ الإسـلام مـا هـو في طَاعَـةٌ عَلَى الْحَقِيقَـةِ بِاللِّسَـانِ، وَالْأَبْـدَانِ وَالْجَنَـانِ، كَقَوْلِـهِ عَـزَّ وَجَـلَّ لِإِبْـرَاهِيمَ عَلَيْـهِ السَّـلَامُ: ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وَمِنْـهُ مَـا هُـوَ انْقِيَـادٌ بِاللِّسَـانِ دُونَ الْقَلْـبِ، وَذَلِـكَ قَوْلُـهُ: ﴿ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [الحجرات ١٤] ، ظَاهِرًا وَبَاطِنًا سِرًّا وَعَلَانِيَةً"[٤].

وقـال محمَّـدُ بـنُ نصـرٍ المَـرْوَزي : "فَأَصْـلُ الْإِيمَـانِ هُـوَ التَّصْـدِيقُ بِاللَّـهِ وَمَـا جَـاءَ مِـنْ عِنْـدِهِ وَإِيَّـاهُ أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِـهِ :الْإِيمَـانُ أَنْ تُـؤْمِنَ بِاللَّـهِ ، وَعَنْـهُ يَكُـونُ الْخُضُـوعُ لِلَّـهِ **لِأَنَّـهُ إِذَا صَـدَّقَ بِاللَّـهِ خَضَـعَ لَـهُ، وَإِذَا خَضَـعَ أَطَـاعَ فَالْخُضُـوعُ عَـنِ التَّصْـدِيقِ، وَهُـوَ أَصْـلُ الْإِسْـلَامِ** وَمَعْنَـى التَّصْـدِيقِ هُـوَ الْمَعْرِفَـةُ بِاللَّـهِ، وَالِاعْتِـرَافُ لَـهُ بِالرُّبُوبِيَّـةِ بِوَعْـدِهِ وَوَعِيـدِهِ ، وَوَاجِـبِ حَقِّهِ، وَتَحْقِيقِ مَا صَدَّقَ بِهِ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ"[٥] .

والاستسـلام للـه عـز وجـل في توحيـده شـامل لأنـواع التوحيـد، كالألوهيـة والربوبيـة والأسـماء والصـفات والمتابعـة، وقـد أشـار إلى بعضـها ابـن بطـة فقـال: " ... وَذَلِـكَ أَنَّ أَصْـلَ الْإِيمَـانِ بِاللَّـهِ الَّـذِي يَجِـبُ عَلَى الْخَلْـقِ اعْتِقَـادُهُ فِي إِثْبَـاتِ الْإِيمَـانِ بِـهِ ثَلَاثَـةُ أَشْـيَاءَ: أَحَـدُهَا: أَنْ يَعْتَقِـدَ الْعَبْـدُ آنِيَّتَـهُ لِيَكُـونَ بِـذَلِكَ مُبَايِنًـا لِمَـذْهَبِ أَهْـلِ التَّعْطِيـلِ الَّـذِينَ لَا يُثْبِتُـونَ صَـانِعًا. الثَّـانِي: أَنْ يَعْتَقِـدَ وَحْدَانِيَّتَـهُ، لِيَكُـونَ مُبَايِنًـا بِـذَلِكَ مَـذَاهِبَ أَهْـلِ الشِّـرْكِ الَّـذِينَ أَقَـرُّوا بِالصَّـانِعِ وَأَشْـرَكُوا مَعَـهُ فِي الْعِبَـادَةِ غَيْـرَهُ. وَالثَّالِـثُ: أَنْ يَعْتَقِـدَهُ مَوْصُـوفًا بِالصِّـفَاتِ الَّتِي لَا

[١] تفسير الطبري ٢٥٦/٤

[٢] تفسير الطبري ٥١٠/٢

[٣] تفسير البغوي ٤٢١/١

[٤] نفس المرجع

[٥] تعظيم قَدْر الصَّلَاة للمَرْوَزي (٦٩٥ - ٢:٧٠٦) .

يَجُوزُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَوْصُوفًا بِهَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْحِكْمَةِ وَسَائِرِ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ"[1].

المطلب الأول: تفسير التوحيد وقول الله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾.

إنَّ التوحيد لا يقوم إلا على ركنيه النفي والإثبات، والنفي يقوم على البراءة، والإثبات يقوم على إفراد الله بالعبودية والطاعة، دل عليه مجمل الآيات المفسرة للتوحيد، كقوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل ٣٦]، فقوله:﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ أي: أفردوا الله بخصائصه في الربوبية والألوهية وأسمائه الحسنى وصفاته العُلى والمتابعة، وقوله: :﴿ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ أي: جانبوه بالبراءة من الآلهة الباطلة وعابديها وذلك ببُغضهم وعَداوتهم وتكفيرهم، ومتى كان الخلل في النفي أو الإثبات أي الإفراد أو البراءة كان الخلل في التوحيد.

وصيغة التوحيد جاءت في القرآن في أقوى صيغ الحصر والقصر الدالة على ركنية النفي والإثبات، كقوله تعالى:﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف ٥٩]،فتضمنت هذه الآية الأمر بالعبودية لله ونفي أحقية الآلهة الباطلة للعبادة، وكما في قوله تعالى:﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ [هود ٢]، فقد جاء فيها التنصيص على مفهوم الآية السابقة بالنهي عن العبودية لغير الله تعالى، وهذا التنويع جاء للتأكيد على هذه الحقيقة العظيمة بين النفي والإثبات، والتنصيص على المفهوم والمنطوق لتجلية المعنى العظيم الذي قامت عليه دعوةُ الرسل: من خلع الآلهة الباطلة والبراءة من الأقوام الكافرة وإفراد الله بخصائصه، حتى لا يبقى بعد هذا البيان حجة للناس بين يدي الواحد الديان.

وإن ظاهر القرآن في مواضع عدة جاء بالتنصيص على إفراد الله بالعبودية في سياق دعوة الرسل أقوامهم إلى الإسلام كقوله تعالى:﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾، والدعوة إلى إفراد الله بالعبودية تشمل إفراده بالألوهية والربوبية والطاعة و الحاكمية والاتباع، وتفسير العبودية بالخضوع والذل والاتباع

[1] الإبانة الكبرى ٦م١٤٩

والانقياد يشمل ما ذكرنا، والدلالة عليه نصية لتفسير النبي ﷺ للعبودية بالطاعة والاتباع في التحليل والتحريم، خلافاً لمن يقصر العبودية على التوجه لله بالدعاء والشعائر وإن كان داخلاً فيه حتماً وليس هذا محل نزاع.

الأدلة على أن دعوة الرسل قائمة على إفراد الله بالعبادة والطاعة والاتباع:

وقد جاء في سياقات النصوص التي دلت على حقيقة دعوة الرسل أقوامهم إلى الإسلام التصريح بإفراد الله بالطاعة والاتباع كإفراده بالعبادة، وكذا النصوص التي فسر فيها السلف للعبودية بالطاعة والاتباع:

❁ قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[الشعراء١٠٨] وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[الشعراء١٢٦] وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[الشعراء١٤٤] وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[الزخرف٦٣] قال البغوي: " فَاتَّقُوا اللَّهَ، **بِطَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ**، وَأَطِيعُونِ، فِيمَا آمُرُكُمْ بِهِ مِنَ الإيمان والتوحيد"[1]، وقال السمعاني:" أَي: اتَّقوا الله بترك الشّرك، وأطيعون فِيمَا آمركُم بِهِ"[2].

❁ وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[النساء٦٤] ، قال الطبري :" يقول لهم تعالى ذكره: **ما أرسلتُ رسولا إلا فرضت طاعته على من أرسلته إليه**، فمحمد ﷺ من أولئك الرسل، **فمن ترك طاعته والرِّضى بحكمه واحتكم إلى الطاغوت**، فقد خالف أمري، وضيَّع فرضي"[3].

❁ وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة ٣١] قال الطبري:" أي: بالاستكانة، **والخضوع له بالطاعة، و إفراد الربوبية له والعبادة** دون الأوثان والأصنام والآلهة، لأنه جلّ ذكره هو خالقهم وخالقُ مَنْ قبلهم من آبائهم وأجدادهم، وخالقُ أصنامهم وأوثانهم وآلهتهم، فقال لهم جل ذكره: فالذي خلقكم وخلق آباءكم وأجدادَكم وسائرَ الخلق غيرَكم، وهو يقدرُ على ضرّكم ونَفعكم

---

[1] تفسير البغوي ٣/٤٧٣

[2] تفسير السمعاني ٤/٥٧

[3] تفسير الطبري ٨/٥١٦

أولى بالطاعة ممن لا يقدر لكم على نَفع ولا ضرّ ، **وكان ابن عباس: فيما رُوي لنا عنه، يقول في ذلك نظيرَما قلنا فيه**، غير أنه ذُكر عنه أنه كان يقول في معنى ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ : وحّدوا ربكم. وقد دللنا ـ فيما مضى من كتابنا هذا ـ على أن **معنى العبادة: الخضوعُ لله بالطاعة والتذلل له بالاستكانة**، والذي أراد ابن عباس ـ إن شاء الله ـ بقوله في تأويل قوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ **وحّدوه، أي أفردُوا الطاعة والعبادة لربكم** دون سائر خلقه"[١].

❁وقوله تعالى:﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ وقال أبو منصور في معناه: "**إياك نطيع الطاعة** التي نخضع معها لك"[٢].

❁وقال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾[الأنفال٣٩] "يقول: **حتى تكون الطاعة والعبادة كلها لله خالصة** دون غيره"[٣]. وقال الواحدي:﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٌ﴾أي شرك **يعني قاتلوهم حتى يسلموا** وليس يقبل من المشرك الوثني جزية ويكون الدين **أي: الطاعة والعبادة لله وحده فلا يعبد دونه شيء**"[٤].

❁وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾[الحج٨]، قال الطبري: "يقول تعالى ذكره ومن الناس من يخاصم في توحيد الله **وإخلاص الطاعة والعبادة له** ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾عنده بما يخاصم ﴿ وَلَا هُدًى﴾يقول ولا بيان يبين به صحة ما يقول ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ ﴾يقول ولا بتنزيل من الله جاء بما يدعى يبين حقية دعواه"[٥].

❁ وقال تعالى : ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[البقرة ١٦٣] عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَا إِلَهَ إلا اللَّهُ قَالَ: تَوْحِيدٌ."[٦] قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ لَا إِلَهَ إلا اللَّهُ أَيْ:« **لَيْسَ مَعَهُ غَيْرُهُ شَرِيكًا فِي أَمْرِهِ**»[٧] فجاء تفسير التوحيد بإفراد الله عز وجل بالأمر.

[١] تفسير الطبري ٣٦٣/١
[٢] الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي
[٣] تفسير الطبري ٢٤٨/٩.
[٤] الوجيز ١٥٥/١.
[٥] تفسير الطبري ٧٩/٢١.
[٦] رواه ابن أبي حاتم برقم ١٠١٧٣
[٧] رواه ابن أبي حاتم برقم ١٠١١٧٤

❁ وقولــه تعــالى: ﴿ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾[غــافر١٤] قــال البغــوي:" فَادْعُوا اللَّهَ **مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ: الطَّاعَةَ وَالْعِبَادَةَ**. وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ"[١].

❁ وقَوْلِــهِ تعــالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، قــال أَبــو الْبُخْتُــرِيّ: «أَطَـاعُوهُمْ فِيمَـا أَمَـرُوهُمْ بِـهِ مِـنْ حَـرَامِ اللَّـهِ وَحَلَالِـهِ **فَجَعَـلَ اللَّـهُ طَـاعَتَهُمْ لَهُـمْ عِبَـادَةً**»[٢]، وَهَكَـذَا قَـالَ حُذَيْفَـةُ بْـنُ الْيَمَـانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَعَبْـدُ اللَّـهِ بْـنُ عَبَّـاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَغَيْرُهُمَـا فِي تَفْسِـيرِ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ إِنَّهُمُ اتَّبَعُوهُمْ فِيمَا حَلَّلُوا وَحَرَّمُوا»"[٣].

❁ ومـن السـنة مـا ورَوَى الْإِمَـامُ أَحْمَـدُ، وَالتِّرْمِـذِيُّ، وَابْـنُ جَرِيـرٍ وغيـرهم مِـنْ طُـرُقٍ، عَـنْ عَـدِيِّ بْـنِ حَـاتِمٍ، رَضِيَ اللَّـهُ عَنْـهُ، أَنَّـهُ لَمَّـا بَلَغَتْـهُ دَعْـوَةُ رَسُـولِ اللَّـهِ ﷺ فـرَّ إِلَى الشَّـامِ، وَكَانَ قَـدْ تَنَصَّـرَ فِي الْجَاهِلِيَّـةِ، فَأُسِـرَتْ أُخْتُـهُ وَجَمَاعَـةٌ مِـنْ قَوْمِـهِ، ثـمَّ مـنَّ رَسُـولِ اللَّـهِ ﷺ عَلَى أُخْتِـهِ وَأَعْطَاهَـا، فَرَجَعَـتْ إِلَى أَخِيهَـا، ورَغَّبتـه فِي الْإِسْلَامِ وَفِي الْقُـدُومِ عَلَى رَسُـولِ اللَّـهِ ﷺ، فَقَـدِمَ عَـدِيّ الْمَدِينَـةَ، وَكَـانَ رَئِيسًـا فِي قَوْمِـهِ طَيِّئٍ، وَأَبُـوهُ حَـاتِمٌ الطَّـائِيُّ الْمَشْـهُورُ بِـالْكَرَمِ، فتحـدَّث النَّـاسُ بِقُدُومِـهِ، فَـدَخَلَ عَلَى رَسُـولِ اللَّـهِ ﷺ وَفِي عُنُـقِ عَـدِيّ صَـلِيبٌ مِـنْ فِضَّـةٍ، فَقَــرَأَ رَسُــولُ اللَّــهِ ﷺ هَــذِهِ الْآيَــةَ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبــة ٣١]، قَـالَ: فَقُلْـتُ: إِنَّهُـمْ لَـمْ يَعْبُـدُوهُمْ. فَقَـالَ: « بلَـى، إِنَّهُـمْ حَرَّمُـوا عَلَـيْهِمُ الْحَـلَالَ، وَأَحَلُّـوا لَهُـمُ الْحَرَامَ، **فَاتَّبَعُوهُمْ، فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ**»"[٤].

وهــذه النصــوص تُفَسِــر بجــلاء ووضــوح لفــظ:" العبوديــة للــه"، بدلالــة نصية قطعيــة على شــموله لإفــراد اللــه بــالحكم والتشــريع والاتّبــاع لــه في التحليــل والتحــريم، فقولــه :﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾ أي: أفـــردوا اللـــه بالعبـــادة والاتّبـــاع والتلقـــي والحكـــم والانقيـاد والحـب والخضـوع والتوجـه وهي معـاني لغويـة[٥] وشـرعية، ولهـذا قـال تعـالى بعـد

---

[١] معالم التنزيل ٩٤/٤

[٢] تفسير مجاهد ٣٦٧

[٣] تفسير بن كثير ١٣٥/٣

[٤] سنن الترمذي برقم ٣٠٩٥وتفسير الطبري ٢٠٩/١٤ ورواه أحمد برقم وقال ابن تيمية حديث حسن.

[٥] قال أبو منصور:" **وَمعنى الْعِبَادَة فِي اللُّغَة: الطَّاعَة مَعَ الخضوع**. وَيُقَال طريقٌ مُعَبَّدٌ إِذا كَانَ مذلَّلاً بِكَثْرَة الْوَطْء، وبعيرٌ مُعَبَّد إِذا كَانَ مَطْلِيًّا بالقَطِران" تهذيب اللغة ١٣٨/٢

قولـــــــــه ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾ "أي: الـذي إذا حـرم الشـيء فهـو الحـرام، ومـا حللـه فهـو الحـلال، ومـا شـرعه اتّبـع، ومـا حكـم بـه نفـذ ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾، أي تعـالى وتقـدس وتنـزه عـن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد لا إله إلا هو ولا رب سواه"[1].

وقَصرُ لفـظ "العبوديـة للـه" على مـا كـان يصـرفه الوثنيـون للأصـنام مـن دعـاء واسـتغاثة وذبـح ونـذر وغيرهـا، ودعـوى أن مـن أفـرد اللـه بهـذا القـدر فقـد حقـق التوحيـد وأفـرد اللـه بالعبوديـة التـي أُرسـل بهـا الرسـل، ولا يضـر توحيـده أن يتبـع شـرائع ومنـاهج وضـعية ويتحـاكم إلى طواغيـت وأربـاب أرضـية فقـد ضـل سـواء السـبيل وأعظـم على اللـه الفريـة، ولـم يَـدْعُ إلى الإسـلام الـذي جـاء بـه الرسـل، بـل قـد حَـرَّفَ ديـن اللـه تعـالى وصـحح ديـن المشـركين وأمـر بعبـادة غيـر اللـه وشَـرَع عبـادة الطواغيـت، قـال تعـالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ۝٦٩ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾[يونس ٧٠].

وقـد صـحح النبيّ ﷺ لعـدي مفهـوم "اتخـاذ الأربـاب" في أنـه لـيس محصـور بالسـجود والركـوع لهـم أو دعـائهم مـن دون اللـه، وبـيَّن لـه أن معنى العبوديـة أعـم وهـي طـاعتهم في التحليـل والتحـريم والتشـريع، وكـان هـذا مـن شـرك أهـل الكتـاب باتخـاذهم الأربـاب في التشـــريع والحاكميـــة والاتبـــاع، قـــال تعـــالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [البقـــرة ١٧٠] عَـــنِ ابْـــنِ عَبَّـاسٍ، قَـالَ: « دَعَـا رَسُـولُ اللَّـهِ ﷺ الْيَهُـودَ إِلَى الإِسْـلامِ، فَـرَغَّبَهُمْ فِيـهِ، وَحَـذَّرَهُمْ عَـذَابَ اللَّـهِ

وقال البغوي:" وَمَعْنَى الْعِبَادَةِ فِي اللُّغَةِ: **التَّذَلُّلُ وَالانْقِيَادُ**، فَكُلُّ مَخْلُوقٌ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ خَاضِعٌ لِقَضَاءِ اللَّهِ، ومتذلل لِمَشِيئَتِهِ لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ لِنَفْسِهِ خروجا عما خلق عليه قدر ذرة من نفع ضرر". تفسير البغوي ٢٨٨/٤.

وقال الثعلبي:" والعبادة رياضـة النفس على حمل المشـاق في الطاعة، وأصـلها الخضـوع والانقياد والطاعة والذلة، يقال: طريق معبّد إذا كان مذللا موطوء بالأقدام، قال طرفة:

تـبـارى عـتـاقـا نـاجـيـات وأتـبـعـت   وظـيـفـا وظـيـفـا فـوق مـور مـعـبّـد

وبعير معبد إذا كان مطليا بالقطران، قال طرفة:

إلـى أن تـحـامـتـني الـعشـيـرة كـلّـهـا   وأفـردت إفـراد الـبـعـيـر الـمـعـبّـد

وسمّي العبد عبدا لذلّته وانقياده لمولاه ". الكشف والبيان عن تفسير القرآن ١١٨/١

[1] تفسير بن كثير ج٢ ص ٣٤٩.

وَنِقْمَتَهُ، فَقَالَ لَهُ رَافِعُ بْنُ خَارِجَةَ وَمَالِكُ بْنُ عَوْفٍ بَلْ نَتَّبِعُ يَا مُحَمَّدُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا فَهُمْ كَانُوا أَعْلَمَ وَخَيْرًا مِنَّا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الآيَةَ»[1] ومثله قوله تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف ٣]، قال البغوي: أَيْ:" لَا تَتَّخِذُوا غَيْرَهُ أَوْلِيَاءَ تُطِيعُونَهُمْ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى"[2]، إنهم الأولياء الذين تُصرف لهم الطاعة من دون الله، وغيرهم الأولياء الذين تصرف لهم العبادة من دون الله كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ [الزمر٣] ، فهناك في الطاعة والاتباع وهنا في صرف العبادة والدعاء، والأولياء هم الأولياء، فلا فرق بين شرك العبادة وشرك الاتباع، ولا فرق بين شرك الطاعة وشرك الدعاء.

وهذا يدل على أن شرك العالم يقوم على أصلين: ١ـ الشرك في العبادة ٢ـ والشرك في الحكم والتشريع والطاعة ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ ﴾ [النحل ٣٥]

فمقالة الذين أشركوا في الاحتجاج بالقدر على أمرين:

الأول : ﴿ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ ﴾ ، وهي عبادة غير الله.

والثاني: ﴿ وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ ﴾ ، وهي التشريع من دون الله.

وهما أصلا شرك العالم، ثم أخبر الله تعالى في نفس السياق أنه أقام الحجة على الخلق في الأصلين وأرسل في كل أمة رسولا ينهى عن هذا الشرك في العبادة والحكم: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ ﴾.

[1] تفسير ابن أبي حاتم ٢٨١/١

[2] معالم التنزيل في تفسير القرآن ٢١٣/٣

الفَصْلُ الثَّانِي

تفصيل القول في أنواع التوحيد

المطلب الأول: الاستسلام لله بتوحيد الألوهية:

ويتحقق الاستسلام لله بتوحيد الألوهية بإفراد الله تعالى بجميع الأقوال والأعمال التي تصدر عن الخلق على جهة القربة والطاعة مع كمال الحب وكمال الخضوع والذل لله تعالى ومنها: الدعاء والخوف والرجاء والتوكل والرغبة والرهبة والركوع والسجود والطواف والعكوف والذبح والتحاكم والنذر والاستغاثة والاستعانة وغيرها، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ﴾ [الجن ١٨]، وقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [الأنعام ١٦٣]، وغيرها من الأدلة الكثيرة في كتاب الله، ومن صرف شيئا من العبادة لغير الله كان مشركاً بالله تعالى: ﴿ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [المؤمنون ١١٧] ، وهذا من جهة الإثبات.

وأما من جهة النفي فإن الاستسلام لله بتوحيد الألوهية يقتضي البراءة من جميع الآلهة الباطلة والبراءة من عابديها وتكفيرهم وبغضهم وعداوتهم، قال تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴾ [سورة الكافرون]، وقوله تعالى: ﴿ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة ٤].

وأما باعتبار الأقوام والديار فإن استسلامهم لله بتوحيد الألوهية يقتضي منهم هدم القباب والمشاهد والقبور والمعابد التي اتخذها المشركون آلهة من دون الله ظاهرةً في أرض الله، وأن تقوم فيهم دعوة التوحيد مُستَعلِنَةٌ بالنهي عن الشرك بالله والأمر بإفراد

الله بالعبادة والبراءة من المشركين، وأن لا يقروا مشركاً على شركه بين أظهرهم كما سبق بيانه في الباب الأول.

المطلب الثاني: الاستسلام لله بتوحيد الربوبية والأسماء والصفات

ويتحقق بإفراد الله تعالى بأفعاله كالخلق والملك والرزق والتدبير والإحياء والإماتة والنفع والضر والحكم والتشريع وغيرها، قال تعالى:﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس ٣١]، وقال تعالى:﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [المائدة ٧٦]، ولقد كان مشركي قريش يؤمنون ببعض أفراد توحيد الربوبية في الجملة، قال تعالى:﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف ١٠٦]، قال ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تَسْأَلُهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ؟ وَمَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ؟ فَيَقُولُونَ: اللَّهُ فَذَلِكَ إِيمَانُهُمْ وَهُمْ يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ»[١]، وعن سَالِم يَقُولُ: قَالَ ابْنُ عُمَرَ: «مَنْ زَعَمَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ **بَارِيًا أَوْ قَاضِيًا أَوْ رَازِقًا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضَرًّا أَوْ نَفْعًا أَوْ مَوْتًا أَوْ حَيَاةً أَوْ نُشُورًا**، بَعَثَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَخْرَسَ لِسَانَهُ، وَأَعْمَى بَصَرَهُ، وَجَعَلَ عَمَلَهُ هَبَاءً مَنْثُورًا، وَقَطَعَ بِهِ الْأَسْبَابَ، وَكَبَّهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي النَّارِ»[٢].

ويقتضي توحيد الأسماء والصفات إفراد الله بما اختص به من الأسماء الحسنى والصفات العُلى من غير تحريف ولا تعطيل ولا إلحاد ولا تمثيل، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف ١٨٠]، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ: : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾قَالَ:« وَمِنْ أَسْمَائِهِ الْعَزِيزُ وَالْجُبَارُ وَكُلُّ أَسْمَاءِ اللَّهِ حَسَنٌ»[٣].

واعتقاد أن صفاتَهُ بالغةٌ في الحسن كماله من جميع الوجوه، قال تعالى:﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى ١١]، وإثبات ما أثبته الله لنفسه في كتابه وما أثبته له رسوله ﷺ في السنة الصحيحة، ونفي ما نفاه الله عزَّ وجل وما نفاه عنه رسوله

---

[١] تفسير ابن أبي حاتم رقم ١٢٠٣٤

[٢] رواه عبد الله في السنة برقم ٩٥٧

[٣] تفسير ابن أبي حاتم برقم ٨٥٨٢

ﷺ، قـال الأوزاعـي :« كنـا والتـابعون متـوافرون نقـول: إن اللـه تعـالى ذكـره فـوق عرشـه، ونؤمن بما وردت السنة به من صفاته جل وعلا»[١].

وقـال ابـن منـده بعـد ذكـره لجملـة مـن الأخبـار في بـاب الأسـماء والصـفات: "وكـذلك نقـول فيمـا تقـدم مـن هـذه الأخبـار في الصـفات في كتابنـا هـذا نرويهـا مـن غير تمثيـل ولا تشـبيه ولا تكييـف ولا قيـاس ولا تأويـل على مـا نقلهـا السـلف الصـادق عـن الصـحابة الطـاهرة عـن المصـطفى ﷺ ونجهـل مـن تكلـم فيهـا إلا ببيـان عـن الرسـول ﷺ أو خبـر صـحابي حضـر التنزيل والبيان"[٢].

وقـال محمـد بـن إسـحاق بـن خزيمـة: "إن الأخبـار في صـفات اللـه موافقـة لكتـاب اللـه تعـالى، نقلهـا الخلـف عـن السـلف: قرنـاً بعـد قـرن، مـن لـدن الصـحابة والتـابعين إلى عصـرنا هـذا، على سـبيل الصـفات للـه تعـالى، والمعرفـة والإيمـان بـه، والتسـليم لمـا أخبر اللـه تعـالى في تنزيلـه، ونبيـه الرسـول ﷺ عـن كتابـه، مـع اجتنـاب التأويـل، والجحـود، وتـرك التمثيـل والتكييف"[٣]

وقـال قـوام السـنة أبـو القاسـم الأصـبهاني بعـد سـرده آيـات وأحاديـث الصـفات:" فَهَـذَا وَأَمْثَالـه مِمَّـا صَـحَّ نَقلـه عَـن رَسُـول اللـه ﷺ فَـإِن مَـذْهَبنَا فِيـهِ وَمـذهب السّـلف إثباتـه وإِجـراؤه عَلَى الظَّـاهِر وَنفـي الْكَيْفِيَّـة والتشـبيه عَنـهُ، وَقـد نفـى قـوم الصِّـفَات فـأبطلوا مَـا أثْبتـه اللَّـه تَعَـالَى، وتأولهـا قـوم خـلاف الظَّـاهِر فَخَرجُـوا مـن ذَلِـك إِلَى ضـرب مـن التعطيـل والتشـبيه، وَالْقَصْـد إنمـا هُـوَ سـلوك الطَّرِيقَـة المتوسـطة بَـين الْأَمـريْنِ، لأَنَّ ديـن اللَّـه تَعَـالَى بَين الغالي والمقصر عَنهُ"[٤].

وأمـا مـن جهـة النفـي فيتحقـق الاستسـلام للـه بتوحيـد الربوبيـة والأسـماء والصـفات بـالبراءة مـن الملحـدين في الربوبيـة كالفلاسـفة والملاحـدة، والمعطلـة في الأسـماء أو الصـفات كالجهميـة والمعتزلـة والأشـاعرة، والمشـبهة كالكراميـة والمجسـمة، قـال عبـد اللـه بـن أحمـد سَـمِعْتُ أَبِيَ رَحِمَـهُ اللَّـهُ يَقُـولُ: «لَا يُصَـلَّى خَلْـفَ الْقَدَرِيَّـةِ وَالْمُعْتَزِلَـةِ وَالْجَهْمِيَّـةِ»[٥]، وقـال الخـلال: أخبرني أبـو النضـر إسـماعيل بـن عبـد اللَّـه بـن ميمـون العجلي، قـال: سـمعت أبـا عبـد اللَّـه يقـول: «مـن قـال: إن أسـماء اللَّـه مخلوقـة، وإن علـم اللَّـه مخلـوق؛ فهـو

[١] رواه البيهقي في ((الأسماء والصفات)) (ص: ٤٠٨)، وصححه ابن القيم في ((اجتماع الجيوش)) (ص: ٤٣)، وجود إسناده ابن حجر في ((فتح الباري)) (١٣/ ٤٠٦).

[٢] كتاب التوحيد ٣/ ٣٠٩

[٣] ذكره عنه ابن قدامة في ((ذم التأويل)) (ص: ١٨) برقم: ٢٠.

[٤] الحجة في بيان المحجة ١/ ٣١٢

[٥] السنة لعبد الله برقم ٨٣٣

كافر»"[١]، وقَالَ نعيم بن حَمَّاد شيخ البُخَارِيّ رحمه الله: « من شبه الله بخلقه فقد كفر، وَمن أنكر مَا وصف بِهِ نَفسه فقد كفر، وَلَيْسَ مَا وصف الله بِهِ نَفسه وَلَا رَسُوله تَشْبِيها»[٢]، وقال عبد الله بن أحمد سَمِعْتُ أَبَا مَعْمَرٍ الْهُذَلِيُّ، يَقُولُ: «مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَتَكَلَّمُ وَلَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يَغْضَبُ وَلَا يَرْضَى - وَذَكَرَ أَشْيَاءَ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ - فَهُوَ كَافِرٌ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ **إِنْ رَأَيْتُمُوهُ عَلَى بِئْرٍ وَاقِفًا فَأَلْقُوهُ فِيهَا بِهَذَا أَدِينُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، لِأَنَّهُمْ كُفَّارٌ بِاللَّهِ تَعَالَى**»[٣].

ويقتضي الاستسلام لله تعالى بتوحيد الربوبية والأسماء والصفات إفراد الله بما اختص به من الحكم والتشريع، وذلك باعتقاد أن الحُكم لله وحده دون ما سواه وأنه هو أحكم الحاكمين، قال تعالى:﴿ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴾[غافر١٢]، وقال تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ ﴾[يوسف:٤٠]، وهذا يفيد الحصر والقصر بمعنى أنه لا حكم إلا لله، وقال تعالى:﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾[هود٤٥]، واعتقاد أن الله هو المشرع وحده دونما سواه، قال تعالى:﴿ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ ﴾ [الشورى ٢١] ، وقال تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾[المائدة٤٨]، وقال تعالى:﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ ﴾[الشورى١٣]، ولا يكون المرءُ مُسلماً حتى يتلقى من الله الدين كله عقيدة وشرعة ومنهاجاً، قال تعالى:﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[الأعراف٣]، وقال تعالى:﴿ ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[الأنعام١٠٦].

والربوبية والحكم والولاية لله تعالى وحده دونما سواه، قال تعالى:﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖ﴾[الانعام١٦٤] وقال تعالى:﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام ١٤]، وقال تعالى: ﴿ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ

---

[١] رواه ابن بطة في الإبانة ٢/٦٥

[٢] انْظُر: الْعُلُوّ للذهبي ص١٢٦ واجتماع الجيوش الإسلامية لِابْنِ الْقيم ص٨٦

[٣] السنة لعبد الله برقم ٥٣٥

مُفَصَّلاً ﴾[الأنعام:١١٤]، وفي مجموع الآيات دلالة على أنَّ الله أن هو الرب وهو الحاكم وهو الولي، ومن اتخذ حُكاماً من دون الله كمن اتخذ من دونه أرباباً، كمن اتخذ من دونه أولياء سواءً بسواء، ويظهر هذا جليا فيما قصه الله عن الجبابرة كفرعون الذي ادَّعى الربوبية:﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات ٢٤] وذكر تعالى في تعبيد قومه له بالطاعة والاتباع:﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾[الزخرف ٥٤]، وقال تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾[الأعراف١٢٣].

وإن كان الأمر بإفراد الله بالحاكمية والإتباع وإقامة شريعة الله يتوجه ابتداءً إلى المسلمين مجتمعين، فهو خطاب للأقوام لا إلى خصوص الأفراد، ولا يقوم الإسلامُ في الأرض بهذا الاعتبار إلا بالتَمكِينِ للمسلمين والاستخلاف لهم في الأرض كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور ٥٥]، وعن تَمِيمٍ الدَّارِيِّ رضي الله عنه قَالَ: " تَطَاوَلَ النَّاسُ فِي الْبُنْيَانِ زَمَنَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ الْأَرْضَ الْأَرْضَ **إِنَّهُ لَا إِسْلَامَ إِلَّا بِجَمَاعَةٍ وَلَا جَمَاعَةَ إِلَّا بِإِمَارَةٍ وَلَا إِمَارَةَ إِلَّا بِطَاعَةٍ**، أَلَا فَمَنْ سَوَّدَهُ قَوْمُهُ عَلَى فِقْهٍ كَانَ ذَلِكَ خَيْرًا لَهُ وَمَنْ سَوَّدَهُ قَوْمُهُ عَلَى غَيْرِ فِقْهٍ كَانَ ذَلِكَ هَلَاكًا لَهُ وَلِمَنِ اتَّبَعَهُ "[1].

فالمستسلمون لله بالتوحيد رابطة الاجتماع بينهم هي الإسلام، فهؤلاء إذا اجتمعوا في أرض الله حتماً سيحكمون بما أنزل الله ويتبعون ما شرع الله وينقادون لحكم الله، وهؤلاء الذين يتوجه إليهم الخطاب القرآني بإقامة الدين والحكم بالعدل وأداء الأمانات التي هي جماع السياسة العادلة والولاية الصالحة كقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [النساء ٥٩]، وقوله: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ

---

[1] أخرجه الدارمي برقم ٣٢٦

ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ۝٤٩ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة ٥٠]، وغيرها من الخطابات الربانية، وهؤلاء المنقادون لحكم الله هم المسلمون ودارهم هي دار الإسلام ولا يكونوا كذلك حتى يحكموا بما أنزل الله ويسلِّموا كمال التسليم لحكم الله كما قال تعالى:﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ [النساء ٦٥]، ولا يُتصور شرعاً أن يجتمع قومٌ في أرضٍ ما، ثم يُنصِّبوا أربابا تحكمُهم بغير ما أنزل الله وتسوسهم بغير شريعة الله، ويرفعوا معالم الشرك ظاهرة في دارهم وصروحه قائمة في أرضهم ثم يتسمون بالمسلمين؟! أو يأتي من يسمي هؤلاء بالمسلمين ؟!، قال تعالى:﴿ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[آل عمران:٨٠] ، فالمسلمون لا يتخذون الأرباب ولو كانوا الملائكة والنبيين فضلاً عن غيرهم من الأحبار والرهبان فضلاً عن غيرهم من أراذل القوم وأسافل الناس كحال البرلمانيين الذين اتخذهم الناس في هذا الزمان، فهذا لا يأمر به الله إذ هو الكفر، ولا يرضى لعباده الكفر، قال تعالى: ﴿ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ ﴾ [الزمر٧]، ومن اعتقد أنَّ هؤلاء مسلمون ما عرف الإسلام ولا خالط بشاشة قلبه، قال تعالى: ﴿ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[يوسف:٤٠]، فالدين القيم هو الذي يتحقق فيه اختصاص الله بالحكم كما يتحقق فيه اختصاصه بالعبودية، فأيُ دينٍ بقيَ لقومٍ أشركوا بالله في العبادة والحاكمية كما سياتي بيانه في بابه.

المطلب الثالث: الاستسلام لله بتوحيد الاتباع

ويتحقق الاستسلام لله بتوحيد الاتباع بإفراد الله بالتلقي عنه وحده دونما سواه في الأصول الأربعة السابق ذكرها[١]، والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف١]، أَيْ: لَا تَخْرُجُوا عَمَّا جَاءَكُمْ بِهِ الرَّسُولُ إِلَى غَيْرِهِ، فَتَكُونُوا قَدْ عَدَلْتُمْ عَنْ حُكْمِ اللَّهِ إِلَى حُكْمِ غَيْرِهِ"[٢]، وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ

---

[١] **الأصول الأربعة**:1_ العقائد والأخبار 2_والمناسك والشعائر 3_والشرائع و الأحكام 4_ ونظام الملك ومنهج الحياة

[٢] تفسير ابن كثير ١٢/٢٩٥

يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[الأعراف ١٥٧]، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران٣٢]، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: «فَإِنْ تَوَلَّوْا عَلَى كُفْرِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الكافرين»[1]، فالتولي عن الطاعة والاتباع لله ورسوله ﷺ هو الكفر المراد به في الآية، وقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[القصص٥٠]،وقال تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾[الشورى٢١] "أي: هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس من تحريم ما حرموا عليهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي وتحليل أكل الميتة والدم والقمار إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالات الباطلة التي كانوا قد اخترعوها في جاهليتهم من التحليل والتحريم والعبادات الباطلة والأقوال الفاسدة، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: ﴿رأيت عمرو بن لحي بن قمعة يجر قصبه في النار لأنه أول من سيب السوائب وهو أحد ملوك خزاعة وهو أول من فعل هذه الأشياء وحمل قريشًا على عبادة الأصنام﴾"[2].

ويقول الله عزَّ وجلَّ بعد ذكر إباحة نكاح العفائف من أهل الكتاب: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[النساء١٣١]، يريد بالإيمان: شرائع الإسلام، وبالكفر به: ترك الانقياد والامتناع عنه.

<u>ومن الآثار:</u>

❁ قال عكرمة: « لما نزلت: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾، قالت اليهود فنحن مسلمون، قال الله ﷻ فأخصمهم فحجهم يعني فقال لهم النبي ﷺ: ﴿ إن الله فرض على المسلمين

[1] رواه ابن ابي حاتم في تفسيره برقم ٣٤٠٩

[2] تفسير ابن كثير ١٩٨/٧

حج البيت من استطاع إليه سبيلًا»، فقالوا لم يكتب علينا، وأبوا أن يحجوا قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[آل عمران٩٧]، ، وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد نحوه»[١].

❁ وعن عبد الله بن ثابت قال جاء عمر إلى النبيﷺ فقال يا رسول الله إني أمرت بأخ لي يهودي من قريظة فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغير وجه رسول الله ﷺ، قال عبد الله بن ثابت قلت له ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ فقال عمر: رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولًا قال: فسرى عن النبي ﷺ وقال: «والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السلام ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين»، وفي رواية: «لو كان موسى حيًا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني»، وفي أخرى: «لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا إتباعي»[٢].

❁ وعن قتادة قال: ذكر لنا أن ناسًا من المسلمين قالوا كيف نتزوج نساءهم يعني نساء أهل الكتاب وهم على غير ديننا فأنزل الله ﷻ: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾. ويذكر تأويل الآية على ظاهرها وحقيقة ألفاظها من يأبى الإيمان بالله ويمتنع من توحيده والطاعة له فيما أمره به ونهاه عنه فقد حبط عمله"[٣].

❁ وعَنْ عَطِيَّةَ الْعَوْفِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ:" قَالَ رَجُلٌ: الْمَسْحُ حَسَنٌ، وَمَا أَمْسَحُ أَوْ مَا تَطِيبُ نَفْسِي بِهِ فَقَالَ لَهُ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: وَاللَّهِ مَا لَكَ ذَلِكَ حَتَّى لَا يَكُونَ فِي نَفْسِكَ حَرَجٌ مِمَّا قَالَ وَتُسَلِّمَ تَسْلِيمًا "[٤].

❁ وعن الرَّبِيعُ أَخْبَرَنَا الشَّافِعِيُّ قَالَ:" لم أسمع أَحَدًا يَنْسِبُهُ عَامَّةُ عِلْمِهِ أَوْ يَنْسِبُ نَفْسَهُ إِلَى عِلْمٍ يُخَالِفُ فِي أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ اتِّبَاعَ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالتَّسْلِيمَ لِحُكْمِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ لِأَحَدٍ بَعْدَهُ إِلَّا اتِّبَاعَهُ وَأَنَّهُ لَا يَلْزَمُ قَوْلٌ بِكُلِّ حَالٍ إِلَّا بِكِتَابِ اللَّهِ أَوْ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ وَأَنَّ مَا سِوَاهُمَا تَبَعٌ لَهُمَا"[٥].

---

[١] تفسير ابن كثير٢/٧٤

[٢] تفسير ابن كثير ٢/٨٤

[٣] تفسير الطبري ٩/٥٩٤

[٤] الفقيه والمتفقه ١/٣٧٩

[٥] جماع العلم ص ٣

ومن اتبع منهجاً وشِرعَةً غير ما شَرَعَهُ اللهُ لعباده فقد اتخذ الذي تلقى منه الشِرْعَةَ والمنهجَ رباً من دون الله، و قد اتبع أهواء الطواغيت وأراء الذين لا يعلمون قال تعالى:﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية ١٨]، قال البغوي : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ ﴾ يَا مُحَمَّدُ :﴿ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ ﴾سُنَّةٍ وَطَرِيقَةٍ بَعْدَ مُوسَى،﴿ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ مِنَ الدِّينِ ﴿ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يَعْنِي مُرَادَ الْكَافِرِينَ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ لَهُ: ارْجِعْ إِلَى دِينِ آبَائِكِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَفْضَلَ مِنْكَ، فَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ:﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾[١]، وعَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ رَفِيعٍ قَالَ سُئِلَ عَطَاءٌ عَنْ شَيْءٍ فَقَالَ لَا أَدْرِي قِيلَ لَهُ أَلا تَقول بِرَأْيِك فِيهَا قَالَ إِنِّي لَأَسْتَحِي مِنَ اللَّهِ أَنْ يُدَانَ فِي الْأَرْضِ بِرَأْيِي"[٢].

وهؤلاء الخارجين من عبودية الله في الحكم والطاعة والاتباع، قد صاروا عبيداً للبشر تحكمهم أهواء البشر وتسوسهم أوضاعهم فهم مشركون بهذا الاتباع، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾[الأنعام:١٢١]، ولا فرق بين من يسجد ويتضرع بالدعاء لقبر، ومن يتبع نظاماً وضعياً في النهي والأمر، قال تعالى:﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام ١٠٦] ، وهذه الآية عظيمة الدلالة على توحيد الاتّباع،﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ ﴾ ففيها الأمر باتباع الوحي من الرب الواحد الأحد ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ ثم أتبعه بكلمة التوحيد للدلالة على أن إفراد الله بالاتباع هو التوحيد، كما قال ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما:﴿ قَوْلُهُ: لَا إِلَهَ إِلا هُوَ: تَوْحِيدٌ﴾"[٣]،﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ "يقول: ودع عنك جدالهم وخصومتهم. ثم نسخ ذلك جل ثناؤه بقوله في براءة: ﴿ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾[التوبة ٥]"[٤].

وبعد هذا التأصيل والبيان تقرر بفضل الله الواحد الديان: أن من حقق الاستسلام لله في توحيد الألوهية والربوبية والأسماء والصفات والاتباع على ما ذكرنا، وحقق البراءة من الآلهة والأرباب وعُبّادهم وكفر بهم وأبغضهم وعاداهم فقد حقق هذا الركن العظيم الذي لا يقوم عماد الإسلام في الفرد أو في الأرض إلا عليه، "فالإسلام يتضمن

---

[١] تفسير البغوي ٤ /١٨٦

[٢] رواه الهروي في ذم الكلام برقم ٣٦٤

[٣] رواه ابن أبي حاتم في التفسير برقم ٧٧٥٧

[٤] تفسير الطبري ٣٢/١٢

الاستسلام لله وحده، **فمن استسلم له ولغيره كان مشركاً، ومن لم يستسلم له كان مستكبراً عن عبادته**، والمشرك به والمستكبر عن عبادته كافر، والاستسلام له وحده يتضمن عبادته وحده وطاعته وحده، **فهذا دين الإسلام الذي لا يقبل الله عزَّوجلَّ ديناً غيره**"[1].



[1] مجموع الفتاوى لابن تيمية ٩١/٣

البَابُ الثَّالِث

الانقياد لله بالطاعة والاتباع

الفَصْلُ الأَوَّل

منزلة الحاكمية في دين الله جل جلاله

ونقدم هنا بمقدمة لا غنى لنا عنها في هذا الباب، وذلك لبيان منزلة الحكم في دين الله عز وجل، والمتقرر في كتاب الله أنَّ الدين القيم يقوم على أصلين وهما:]_إفراد الله بالعبودية [_ إفراد الله بالحكم، والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف:٤٠] ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ قَوْلُهُ: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ قَالَ:« أُسِّسَ الدِّينُ عَلَى الإِخْلاصِ لِلَّهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ»[١]، وقال البغوي: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ ﴾ مَا الْقَضَاءُ وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ الْمُسْتَقِيمُ، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٢].

والقرآن كله من أوله إلى آخره في تقرير هذا الأصل العظيم وبيان أن الحكم والأمر لله وحده دونما سواه، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾، « **لا إِلَهَ إلا اللَّهُ أَيْ: لَيْسَ مَعَهُ غَيْرُهُ شَرِيكًا فِي أَمْرِهِ**»[٣]، ففسر التوحيد بإفراد الله عز وجل بالأمر، ومن النصوص الدالة على ذلك ما يلي:

---

[١] رواه ابن أبي حاتم برقم ١١٦٢١

[٢] تفسير البغوي ٤/٢٤٣

[٣] رواه ابن أبي حاتم برقم ١٠١١٧٤

❁ قولــه تعــالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾ [الأنعام٥٧]، وفيــه النفي والإثبات الذي فيه دلالة على إفراد الله بالحكم والبراءة من كل حاكم بغير شرع الله، و" قَـرَأَ أَبُـو عَمْـرٍو يقـض الحـق، وقـال: لا يَكُـونُ الْفَصْـلُ إلا بَعْـدَ الْقَضَـاءِ."[١]، وقـال الطبـري:" وقـرأ ذلـك جماعـة مـن قـراء الكوفـة والبصـرة: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ﴾بالضاد، من "القضاء"، بمعنى الحكم والفصل بالقَضَاء، واعتبروا صحة ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾ **وأن "الفصل" بين المختلفين إنما يكون بالقضاء لا بالقَصَص، وهذه القراءة عندنا أولى القراءَتين بالصواب**، لما ذكرنا لأهلها من العلّة"[٢]، ومثله قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [يوسف:٦٧].

❁ وَقَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾ [غافر:١٢]، قال الطبري:" يقول: فالقضاء لله العلي على كل شيء، الكبير الذي كل شيء دونه متصاغرا له اليوم"[٣]، وقال ابن كثير:" **أَيْ: هُوَ الْحَاكِمُ فِي خَلْقِهِ، الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَجُورُ**، فَيَهْدِي مَنْ يشاء، ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ."[٤].

❁ وَقَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص:٨٨]، وَقَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص:٧٠]، قال يحي ابن سلام:" قَالَ: ﴿ لَه ٱلْحُكْمُ ﴾ الْقَضَاءُ."[٥].

❁ وقـال تعـالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾[الأنعام٦٢]، قال الطبري: "ألا له الحكم"، يقول: **ألا له الحكم والقضاء دون من سواه من جميع خلقه**"[٦].

---

[١] رواه ابن أبي حاتم برقم ٧٣٦٢

[٢] تفسير الطبري ٣٩٩/١١

[٣] تفسير الطبري ٣٦٢/٢١

[٤] تفسير بن كثير ١٣٤/٧

[٥] تفسير ابن سلام ٦١٤/٢

[٦] تفسير الطبري ٤١٣/١١

❁ وَقَوْلِـــــــهِ تَعَـــــــالَى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾[الأنعــــــــــــام:١١٤]، وقولــه تعــالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ ﴾[الرعــد٢٧]، قــال ابــن أبــي زمنــين يَعْنِـي: الْقُــرْآنَ"[١]، وقــال الواحــدي :" يعنـي: القــرآن لأنَّــه بــه يحكــم ويفصــل بــين الحــقّ والباطــل وهــو بلغــة العرب"[٢].

❁ والنهي عـن الشـرك باللـه في الحكـم والتحـاكم كـالنهي عـن الشـرك في العبـادة والـدعاء ســواءً بســواء، قــال تعــالى :﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾[الكهـــف:٢٦] قــال البغــوي: ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ ، قَــرَأَ ابْــنُ عَــامِرٍ وَيَعْقُــوبُ: «وَلَا تُشْــرِكْ» بِالتَّــاءِ عَلَــى الْمُخَاطَبَــةِ وَالنَّهْيِ، وَقَـرَأَ الْآخَـرُونَ اليـاء أَيْ لَا يُشْـرِكُ اللَّـهُ فِي حُكْمِـهِ أَحَـدًا"[٣]، وقـال يحي بـن سـلام:" ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ ،وَهِـيَ تُقْـرَأُ بِالْيَـاءِ وَالتَّـاءِ، يَقُولُـونَ: وَلا تُشْـرِكْ يَـا مُحَمَّـدُ فِـي حُكْمِـهِ أَحَـدًا، يَقُـولُ: **حَتَّـى تَجْعَلَـهُ مَعَـهُ شَـرِيكًا فِـي حُكْمِـهِ وَقَضَـائِهِ وَأُمُـورِهِ**، وَمَـنْ قَرَأَهَـا بِالْيَـاءِ يَقُـولُ: وَلا يُشْـرِكُ اللَّـهُ فِي حُكْمِـهِ أَحَـدًا"[٤]، " وَلَا نَافِيَـةٌ وَالْمَعْنَى: وَلَا يُشْـرِكُ اللَّـهُ جَـلَّ وَعَـلَا أَحَـدًا فِي حُكْمِـهِ، بَـلِ الْحُكْـمُ لَـهُ وَحْـدَهُ جَـلَّ وَعَـلَا لَا حُكْـمَ لِغَيْـرِهِ أَلْبَتَّـةَ، فَـالْحَلَالُ مَـا أَحَلَّـهُ تَعَـالَى، وَالْحَـرَامُ مَـا حَرَّمَـهُ، وَالـدِّينُ مَـا شَـرَعَهُ، وَالْقَضَـاءُ مَـا قَضَـاهُ، وَقَـرَأَهُ ابْـنُ عَـامِرٍ مِـنَ السَّـبْعَةِ ؛ «وَلَا تُشْـرِكْ» بِضَـمِّ التَّـاءِ الْمُثَنَّـاةِ الْفَوْقِيَّـةِ وَسُـكُونِ الْكَـافِ بِصِـيغَةِ النَّهْيِ، أَيْ: لَا تُشْـرِكْ يَـا نَبِيَّ اللَّـهِ، أَوْ لَا تُشْـرِكْ أَيُّهَـا الْمُخَاطَـبُ أَحَـدًا فِي حُكْـمِ اللَّـهِ جَـلَّ وَعَـلَا، بَـلْ أَخْلِـصِ الْحُكْـمَ لِلَّـهِ مِـنْ شَـوَائِبِ شِـرْكِ غَيْـرِهِ فِي الْحُكْـمِ، وَحُكْمُـهُ جَـلَّ وَعَـلَا الْمَـذْكُورُ فِي قَوْلِـهِ: وَلَا يُشْـرِكُ فِي حُكْمِـهِ أَحَـدًا شَـامِلٌ لِكُـلِّ مَـا يَقْضِـيهِ جَـلَّ وَعَـلَا، وَيَـدْخُلُ فِي ذَلِـكَ التَّشْـرِيعُ دُخُـولًا أَوَّلِيًّا.

وَمَـا تَضَـمَّنَتْهُ هَـذِهِ الْآيَـةُ الْكَرِيمَـةُ مِـنْ كَـوْنِ الْحُكْـمِ لِلَّـهِ وَحْـدَهُ لَا شَـرِيكَ لَـهُ فِيـهِ عَلَـى كِلْتَـا الْقِـــرَاءَتَيْنِ جَـــاءَ مُبَيَّنًـــا فِـــي آيَـــاتٍ أُخَـــرَ، كَقَوْلِـــهِ تَعَـــالَى: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ

[١] تفسير ابن أبي زمنين ٣٥٨/٢

[٢] الوجيز للواحدي ٥٧٥/١

[٣] تفسير البغوي ١٨٨/٣

[٤] تفسير بن سلام ١٨٠/١

فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [يوسف:٦٧]الْآيَةَ وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [الشورى:١٠]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾ [غافر:١٢]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص:٨٨]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص:٧٠]، وَقَوْلِهِ: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة:٥٠]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [الأنعام:١١٤]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

وَيُفْهَمُ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ، كَقَوْلِهِ: ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف:٢٦]، **أَنَّ مُتَّبِعِي أَحْكَامِ الْمُشَرِّعِينَ غَيْرِ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ أَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ بِاللَّهِ**، وَهَذَا الْمَفْهُومُ جَاءَ مُبَيَّنًا فِي آيَاتٍ أُخَرَ، كَقَوْلِهِ فِي مَنِ اتَّبَعَ تَشْرِيعَ الشَّيْطَانِ فِي إِبَاحَةِ الْمَيْتَةِ بِدَعْوَى أَنَّهَا ذَبِيحَةُ اللَّهِ: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام:١٢١]، فَصَرَّحَ بِأَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ بِطَاعَتِهِمْ، وَهَذَا الْإِشْرَاكُ فِي الطَّاعَةِ، وَاتِّبَاعِ التَّشْرِيعِ الْمُخَالِفِ لِمَا شَرَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُرَادُ بِعِبَادَةِ الشَّيْطَانِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [يس:٦٠]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ نَبِيِّهِ إِبْرَاهِيمَ: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾ [إبراهيم ٤٤]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾ [النساء ١١٧]، أَيْ: مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا شَيْطَانًا، أَيْ: وَذَلِكَ بِاتِّبَاعِ تَشْرِيعِهِ، وَلِذَا سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى الَّذِينَ يُطَاعُونَ فِيمَا زَيَّنُوا مِنَ الْمَعَاصِي شُرَكَاءَ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الانعام ١٣٧]، وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا لِعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا سَأَلَهُ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُمْ

أَحَلُّوا لَهُمْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَاتَّبَعُوهُمْ فِي ذَلِكَ، وَأَنَّ ذَلِكَ هُوَ اتِّخَاذُهُمْ إِيَّاهُمْ أَرْبَابًا.

وَمِنْ أَصْرَحِ الْأَدِلَّةِ فِي هَذَا: أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا فِي «سُورَةِ النِّسَاءِ» بَيَّنَ أَنَّ مَنْ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى غَيْرِ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ يَتَعَجَّبُ مِنْ زَعْمِهِمْ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّ دَعْوَاهُمُ الْإِيمَانَ مَعَ إِرَادَةِ التَّحَاكُمِ إِلَى الطَّاغُوتِ بَالِغَةٌ مِنَ الْكَذِبِ مَا يَحْصُلُ مِنْهُ الْعَجَبُ ؛ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴾ [النساء:٦٠]، وَبِهَذِهِ النُّصُوصِ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي ذَكَرْنَا يَظْهَرُ غَايَةَ الظُّهُورِ: أَنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْقَوَانِينَ الْوَضْعِيَّةَ الَّتِي شَرَعَهَا الشَّيْطَانُ عَلَى أَلْسِنَةِ أَوْلِيَائِهِ **مُخَالَفَةً** لِمَا شَرَعَهُ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ، **أَنَّهُ لَا يَشُكُّ فِي كُفْرِهِمْ وَشِرْكِهِمْ إِلَّا مَنْ طَمَسَ اللَّهُ بَصِيرَتَهُ، وَأَعْمَاهُ عَنْ نُورِ الْوَحْيِ مِثْلَهُمْ**"[١].

<u>ومن السنة:</u>

❁ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: ﴿كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا تَهَجَّدَ مِنَ اللَّيْلِ قَالَ: «اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، أَنْتَ الحَقُّ، وَقَوْلُكَ الحَقُّ، وَوَعْدُكَ الحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ الحَقُّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، **وَإِلَيْكَ خَاصَمْتُ، وَبِكَ حَاكَمْتُ**، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾[٢].

قال ابن منظور:" وَفِي الْحَدِيثِ: وبكَ حاكَمْتُ، أَي: رَفَعْتُ الحُكمَ إِليك **وَلَا حُكْمَ إِلا لَكَ**، وَقِيلَ: **بكَ خاصمْتُ فِي طَلَبِ الحُكْمِ و إبطالِ مَنْ نازَعَني فِي الدِّين**، وَهِيَ مُفَاعَلَةٌ مِنَ الحُكْمِ."[٣]

وقال ابن القيم:" فتكون مخاصمة هذا العبد لله لا لهواه وحظه **ومحاكمته خصمه إلى أمر الله وشرعه لا إلى شيء سواه**، فمن خاصم لنفسه فهو ممن اتبع هواه وانتصر لنفسه، وقد قالت عائشة: "ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط"، وهذا لتكميل عبوديته. **ومن حاكم خصمه إلى غير الله ورسوله فقد حاكم إلى الطاغوت**، وقد أمر

[١] أضواء البيان ٣/٢٥٩

[٢] رواه البخاري برقم ٧٤٤٢

[٣] لسان العرب ١٢/١٤٢

أن يكفر به، ولا يكفر العبد بالطاغوت حتى يجعل الحكم لله وحده كما هو كذلك في نفس الأَمر"[١].

❁ وعَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ شُرَيْحٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ هَانِئِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ: وَفَدْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَرَآهُمْ يُكَنُّونِي بِأَبِي الْحَكَمِ، فَقَالَ: «**إِنَّ اللهَ هُوَ الْحَكَمُ**، لِمَ تُكَنَّى بِأَبِي الْحَكَمِ؟» ، قُلْتُ: إِذَا كَانَ بَيْنَ قَوْمِي شَيْءٌ تَحَاكَمُوا إِلَيَّ فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ رَضُوا بِحُكْمِي. قَالَ: «وَمَا لَكَ مِنْ وَلَدٍ؟» ، قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: «فَمَا اسْمُ أَكْبَرِهِمْ؟» ، قُلْتُ: شُرَيْحٌ. قَالَ: «فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ» [٢]

❁ عَنْ لَيْثِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، قَالَ: «لَا تُسَمُّوا الْحَكَمَ، وَلَا أَبَا الْحَكَمِ، **فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ**، وَلَا تُسَمُّوا الطَّرِيقَ السِّكَّةَ» [٣].

المطلب الأول: التلازم بين الحاكمية والعبادة

قال تعالى: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٤٠]، و عن مسروق: أنه كان يحلِّف اليهوديَّ والنصراني بالله، ثم قرأ: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ [المائدة: ٤٩] ، وأنزل الله: ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ ﴾ [الأنعام ١٥١]"[٤] ، فترى أن مسروقاً قابل بين الأمر بالحكم بما أنزل الله والنهي عن الشرك بالله تعالى.

وهذا النص ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ يبين بجلاء التلازم بين العبودية والحاكمية، فحينما نتصور معنى العبادة على ما سبق بيانه من المعنى الشمولي لها، نفهم لماذا جعل يوسف عليه السلام اختصاص الله بالعبادة تعليلاً لاختصاصه بالحكم في

---

[١] طريق الهجرتين ٣٧/١

[٢] رواه بهذا اللفظ الطبراني في المعجم الكبير برقم ٤٦٥، والحاكم في المستدرك برقم ٦٢، وعند النسائي وغيره زيادة : «مَا أَحْسَنَ مِنْ هَذَا» ، والحسنُ هنا راجع إلى صفة العدل الموجبة للتحسين في العقول السليمة والشرائع المنزلة، لأن رضى المتنازعين من علامات العدل والإنصاف وهي الغاية التي وضع لها القضاء أصالة، وليس كما يزعم الصعافقة أنه ثناء على الحكم الجاهلي وإقرار له؟ كيف ولم يقره رسول الله ﷺ على اسمه الذي اشتق له من صفة الحكم وأعلمه أن الحكم لله وحده، قال السندي:" مَا أحسن هَذَا أَي **الَّذِي ذكرت من الحكم على وَجه يرضى المتخاصمين فَإِنَّهُ لَا يكون دَائِما على هَذَا الْوَجْه الا بِكَوْنِهِ عدلا"** حاشية السندي على سنن النسائي ٢٢٧/٨

[٣] جامع معمر بن راشد برقم ١٩٨٥٩

[٤] رواه الطبري في تفسيره برقم ١٢١٢٥

مقام الدعوة إلى الإسلام، فالعبادة لا تقوم بكمالها وشمولها إذا كان الحكم لغير الله، فإفراد الله بالحكم والعبادة هو الدين القيم، ولا دين لله سوى هذا الدين القيم: الذي يتحقق فيه اختصاص الله بالحكم تحقيقاً لاختصاصه بالعبادة، فإذا كانت الحاكمية في الأرض لغير الله كان الأمر والنهي والحكم والتشريع لغير الله تعالى، وبالتالي ستكون الطاعة والعبودية لغير الله تعالى، إذْ يجري على الناس حكم الطاغوت ويدينون لدينه طائعين وينقادون لأمره خاضعين، فالناس على دين ملوكها منقادة، كما قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ تَكُونُ السُّنَّةُ فِيهِ بِدْعَةً ، وَالْبِدْعَةُ سُنَّةً ، وَالْمَعْرُوفُ مُنْكَرًا ، وَالْمُنْكَرُ مَعْرُوفًا؛ **وَذَلِكَ إِذَا اتَّبَعُوا وَ اقْتَدَوْا بِالْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ فِي دُنْيَاهُمْ**»[١]، فالحكم بغير شرع الله يهدم الإسلام، فعن زِيَادِ بْنِ حُدَيْرٍ، قَالَ: قَالَ لِي عُمَرُ: «هَلْ تَعْرِفُ مَا يَهْدِمُ الْإِسْلَامَ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ: «يَهْدِمُهُ زَلَّةُ الْعَالِمِ، وَجِدَالُ الْمُنَافِقِ بِالْكِتَابِ **وَحُكْمُ الْأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ**»[٢]، وهذا في حكم الأئمة المضلين فكيف في حكم الطواغيت المبدلين.

والطاغوت لا يقوم إلا في غيبة الدين القيم والعقيدة الصحيحة عن قلوب الناس، إذْ لا يمكن أن يقوم وقد استقر في قلوب الناس عقداً أن الحكم لله وحده، لأن العبادة لا تكون إلا لله وحده، وسبق بيان أن الخضوع للحكم عبادة بل هو أصلاً مدلول العبادة، فالطاغوت لا يقوم في الأرض إلا مدعياً الربوبية أي حق تعبيد الناس لأمره وشرعه، وإخضاعهم لفكره وقانونه.

فالعلاقة بين العبودية والحاكمية هي التلازم، فلا تقوم العبودية لله في الأرض كاملة إلا بقيام الحاكمية لله وحده دونما سواه، ولا يستطيع المسلم أن يعيش بدينه عبداً لله في أرضه حراً من ربقة العبودية للطواغيت إلا تحت ظل نظام حاكم بما أنزل الله، حيث يتحقق فيه إفراد الله عز وجل بالطاعة و الاتباع و الخضوع والانقياد و تلقي منهج الحياة و جميع التشريعات و القيم والموازين من الله وحده دون ما سواه، وبهذا يقوم الدين القيم بقيام الحاكمية و السلطان لله في الأرض، وتتحقق العبودية لله كاملة بالانقياد لشرعه وتكون الحياة كلها لله، أي: تسير وفق أمر الله كما قال تعالى:

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ

---

[١] البدع لابن وضاح ٢٣٥

[٢] رواه الدارمي في سننه بسند صحيح برقم ٢٢٠

وَأَنَاْ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[الأنعام١٦٣]، وهذا هو الصراط المستقيم وهو الدين القيم والملة الحنيفية التي تكون فيها الصلاة والنسك والحياة والممات كلها لله، وهذه هي شمولية الدين القيم، فإن الله لم يترك العباد يحتاجون إلى مصادر أخرى يستمدون منها الشرائع و القيم والأحكام فيما يَعرِض لهم من مشكلات الحياة، بل فصَّل الله كتابه العزيز و جعله تبيانا لكل شيء فقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[النحل٧٩]، وقال تعالى:﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُون ﴾[الأعراف٥٢] و أمر الله برد كل الأمور المتنازع فيها إلى الله و رسوله فقال تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾[النساء٥٩] فعلق الرد على وجود الإيمان ورتب انتفاء الإيمان بانتفاء الرد، بل ذكرها صريحة واضحة وأقسم بذاته العلية و أكدها بالمؤكدات : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾[النساء٦٥].

وهذا هو التصور الصحيح للإسلام الذي يجب بناؤه في نفوس المخاطبين بهذا الدين، حتى ينطلقوا إلى إقامة دين الله بشموليته التي لا يقوم إلا بها، إذ لا تصح العبودية مُجزَّأة أو مُبعَّضة، وهي الصورة التي تكون الحاكمية فيها لغير لله، كما يريدها طواغيت العلم في هذا الزمان ويبغونها عوجا ويقولون كما قال أسلافهم: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾[النساء١٥١]، وعليه فارتفاع سلطان الله من الأرض دلالة على انتفاء العبودية الكاملة عند الأفراد لانتفاء الانقياد والاتباع لشِرعَة الله و المنهاج الربَّاني، واتخاذ الشركاء والأرباب في الطاعة والتلقي عنهم واتباع مناهجهم والخضوع لدينهم والانقياد لشرائعهم وقيام الجاهلية بأوضاعها وقيمها في الأرض، لذلك تواتر النقل عن الفقهاء حينما يتكلمون عن ضابط دار الكفر يجعلونه في علو الأحكام في الدار، فعلو الأحكام هو الذي يتميز به دار الإسلام من دار الكفر وهو الذي نعرف به الحاكمية لمن في الدار؟ هل هي لله أو لملوك الأرض، وحينئذ نعرف: هل المحكومين هم عباد لله أو عباد لملوك الأرض؟ فمن يكون له الحكم تكون له الطاعة والانقياد التي هي مدلول العبادة.

وهـذه القضـية العظيمة- التي أُرسلت بها الرسل وأُنزلت بها الكتب -: إفراد الله بالحكم والطاعة والاتباع حتى تكون العبودية لله خالصة له دونما سواه من الأرباب والأنداد، قد صارت مُغيَّبةً اليوم عن تصور الناس - إلا من رحم الله - و هي التي حرفها طواغيت العلم ليستطيعوا العيش في هذه الجاهلية ببعض الدين الذي يسمونه الإسلام زورا و بهتانا، و هم يعرفون جيدا أن الدين القيم بشموليته يُنَازِعُ ملوك الأرض و لا يُجامع الباطل ولا يقوم إلا بزوال الطاغوت وسلطانه من الأرض، ولكنهم لا يستطيعون حمل الدين القيم فبدلوا وغيروا وكانوا أعظم بلاء على هذه الأمة من الطواغيت الحاكمين فضيعوا الدين ولم يعملوا بوصية سيد المرسلين، فعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَلَا إِنَّ رَحَى الْإِسْلَامِ دَائِرَةٌ فَدُورُوا مَعَ الْكِتَابِ حَيْثُ دَارَ أَلَا إِنَّ الْكِتَابَ وَالسُّلْطَانَ سَيَفْتَرِقَانِ فَلَا تُفَارِقُوا الْكِتَابَ أَلَا إِنَّهُ سَيَكُونُ أُمَرَاءُ يَقْضُونَ لَكُمْ، فَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ أَضَلُّوكُمْ وَإِنْ عَصَيْتُمُوهُمْ قَتَلُوكُمْ» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَكَيْفَ نَصْنَعُ؟ قَالَ: «كَمَا صَنَعَ أَصْحَابُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ نُشِرُوا بِالْمَنَاشِيرِ وَحُمِلُوا عَلَى الْخَشَبِ **مَوْتٌ فِي طَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ**»[1]

إنَّ حَمَلَة الدين اليوم لا يسكنون البيوت الفارهة و يتمرغون في متاع الحياة الزائلة، ويتكلمون ويسكتون بإذن الطاغوت فيما لا سخط عليهم فيه ولا شطط، بل حملة هذه الدعوة اليوم مطاردين مشردين فإن أمسكوا أُودعوا السجون و إن نفذوا دافعوا الباطل و لا يرضون بالدون و لا يغيرون و لا يبدلون حتي يقضي الله أمرا كان مفعولا، وحالهم كما قال الله تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴾[الأحزاب٢٣].

إنَّ هذا الدين القيم وهذه الدعوة الحنيفية إذا قامت بشموليتها استدعت الخصومة الشديدة من الملأ وأصحاب النفوذ وأهل الملك والسلطان وطواغيت الأرض، لذلك كانت المدافعة والحرب قائمة من أول يوم ظهرت فيه تلك الدعوات في تلك الأقوام، فإعلانها هو بمثابة تجريد ملوك الأرض من سلطانهم المستمد من أهوائهم كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ ﴾[النمل٤٥] ، إنه الصراع الحتمي بين الفريقين والصدام المتواصل إلى قيام

[1] رواه الطبراني في الكبير برقم ٧٤٩ وجاله ثقات ورواه أبو نعيم في الحلية ١٦٥/٥

الســـــاعة: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَـٰعُواْ ﴾[البقـــرة٢١٧] ، هــــذه هي حقيقة الدعوة وطبيعة الحركة ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وهـذه المعـاني كانـت متقـررة عنـد الصـحابة والتـابعين كمـا روي في تفسـير قولـه تعـالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَـٰلَۢا بَعِيدٗا ﴾[النســـــاء:٦٠]، أخـــرج الثَّعْلَبِيّ عَـن ابْـن عَبَّـاس فِي قَوْلـه ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ ﴾ الْآيَـة قَـالَ: نزلـت فِي رجـل مـن الْمُنَـافِقين يُقَـال لَـهُ بشـر خَاصـم يَهُودِيّـا فَـدَعَاهُ الْيَهُـودِيّ إِلَى النَّبِي ﷺ وَدعَـاهُ الْمُنَـافِق إِلَى كَعْـب بـن الْأَشْـرَف ثـمَّ إِنَّهُمَـا احْتَكَمَـا إِلَى النَّبِي ﷺ فقضـى لِلْيَهُـودِيّ فَلـم يـرض الْمُنَـافِق، وَقَـالَ: تعـال نَتَحَـاكَم إِلَى عمـر بـن الْخطـاب، فَقَـالَ الْيَهُـودِيّ لعمـر: قضـى لنـا رَسُـول اللـه ﷺ فَلـم يـرض بِقَضَـائِهِ، فَقَـالَ لِلْمُنَـافِقِ: أَكَـذَلِك قَـالَ: نعـم، فَقَـالَ عمـر: مَكَانكُمَـا حَتَّى أخـرج إِلَيْكُمَـا، فَـدخل عمـر فَاشْـتَمَلَ على سَـيْفه ثـمَّ خـرج فَضـرب عنـق الْمُنَـافِق حَتَّى بـرد ثـمَّ قَـالَ: **هَكَـذَا أَقْضِـي لمـن لـم يـرض بِقَضَـاء اللـه وَرَسُـوله**: فَنزلـت الآيـة"[١]، فهكـذا هـو قضـاء الصحابة في مـن لـم يرضـى بحكـم اللـه ورسـوله ﷺ ولمـن تحـاكم لغير حكـم اللـه ورسـوله ﷺ ولمـن اتبـع غير شـرعة اللـه ورسـوله ﷺ، قـال محمـد ابـن عبـد الوهـاب:" وهكـذا ينبغي أن يفعـل بالمتحـاكمين إلى الطواغيـت، فـإذا كـان هـذا الخليفـة الراشـد قـد قتـل هـذا الرجـل، بمجـرد طلبـه التحـاكم إلى الطـاغوت، فمـن هـذا عادتـه التي هـو عليهـا، ولا يرضـى لنفسـه وأمثالـه سـواها، أحـق وأولى أن يقتـل لردتـه عـن الإسـلام وعمـوم فسـاده في الأرض، فإنـه لا صـلاح للخليقـة، إلا بـأن يكـون اللـه معبودهـا والإسـلام دينهـا، ومحمـد نبيهـا الـذي تتبعه، وتتحاكم إلى شريعته، ومتى عدم ذلك عظم فسادها، وظهر خرابها"[٢].

[١] الدر المنثور ٥٨٢/٢

[٢] الدرر السنية ٥٠٧/١٠

المطلب الثاني: الحكم بغير ما أنزل الله في القضية لرشوة ونحوها

إنَّ الله عز وجل أنزل القرآن حكماً بين الناس، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ [الرعد:٣٧] وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد:٢٥]، وقال تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾ [البقرة:٢١٣]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [الشورى:١٠]. قال ابن عمرو في حديثه: فهو يحكم فيه، وقال الحارث: فالله يحكم فيه"[1]، وقال تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [النساء:٥٩]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [النساء:١٠٥] قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ﴾ يا محمد ﴿ ٱلْكِتَٰبَ ﴾، يعني: القرآن ﴿ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾، لتقضي بين الناس فتفصل بينهم ﴿ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾، يعني: بما أنزل الله إليك من كتابه"[2].

وأمر الله عزَّ وجل الحكام بما أمر به نبيه ﷺ في قوله: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة:٤٩] قال أبو جعفر: وهذا أمر من الله تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ أن يحكم بين المحتكمين إليه من أهل الكتاب وسائر أهلِ الملل بكتابه الذي أنزله إليه، وهو القرآن الذي خصّه بشريعته ـ إلى أن قال ـ يقول له: اعمل بكتابي الذي أنزلته إليك إذا احتكموا إليك فاخترتَ الحكم عليهم، ولا

---

[1] تفسير الطبري ٥٠٦/٢١

[2] تفسير الطبري ١٧٦/٩

تتركنَّ العمل بذلك اتباعًا منك أهواءهم، وإيثارًا لها على الحق الذي أنزلته إليك في كتابي"[١]، وقال تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾[الشورى١٥] أَيْ: فِي الْحُكْمِ كَمَا أَمَرَنِي اللَّهُ"[٢]، وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللَّهِ»[٣]، وَقَالَ الحَسَنُ: «أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الحُكَّامِ أَنْ لاَ يَتَّبِعُوا الهَوَى، وَلاَ يَخْشَوُا النَّاسَ، وَلاَ يَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾[ص٢٦] وقرأ ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[المائدة ٤٤] ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ﴾ اسْتُوْدِعُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَقَرَأَ: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ﴾[الأنبياء٨٧] «فَحَمِدَ سُلَيْمَانَ وَلَمْ يَلُمْ دَاوُدَ، وَلَوْلاَ مَا ذَكَرَ اللَّهُ مِنْ أَمْرِ هَذَيْنِ لَرَأَيْتُ أَنَّ القُضَاةَ هَلَكُوا، فَإِنَّهُ أَثْنَى عَلَى هَذَا بِعِلْمِهِ وَعَذَرَ هَذَا بِاجْتِهَادِهِ»[٤].

ومن ترك الحكم بما أنزل الله من حكام المسلمين الحاكمين أصالةً بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فعطله وحكم بغير ما أنزل الله من أهواء المخلوقين عامداً عالماً لرشوة أو قرابة أو نحوها فقد كفر بالله تعالى كفراً مخرجاً من الملة، قَالَ السُّدِّي في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤]، يَقُولُ: «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أنزلتُ فَتَرَكَهُ عَمْدًا، أَوْ جَارَ وَهُوَ يَعْلَمُ، فَهُوَ مِنَ الْكَافِرِينَ بِهِ»[٥].

---

[١] تفسير الطبري ٣٨٢/١٠

[٢] تفسير البغوي ١٩٦/٧

[٣] بعض حديث من رواية زيد بن خالد الجهني رواه البخاري برقم ٢٦٩٥

[٤] صحيح البخاري ٦٧/٩

[٥] رواه الطبري برقم ١٢٠٦٢

وقال البغوي: "وَقَالَ الْعُلَمَاءُ: **هَذَا إِذَا رَدَّ نَصَّ حُكْمِ اللَّهِ عِيَانًا عَمْدًا،** فَأَمَّا مَنْ خَفِيَ عَلَيْهِ أَوْ أخطأ في تأويل فلا"[1]، **فحكاه البغوي عن العلماء عموماً**[2]، وهو في معنى دفع شيئاً مما أنزل الله الذي ورد فيه الإجماع على كفره كما قال إسحق بن راهويه : «وَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ أَنَّ مَنْ سَبَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوْ سَبَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَوْ **دَفَعَ شَيْئًا أَنْزَلَهُ اللَّهُ** أَوْ قَتَلَ نَبِيًّا مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مُقِرٌّ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ أَنَّهُ كَافِرٌ ، فَكَذَلِكَ تَارِكُ الصَّلَاةِ حَتَّى يَخْرُجَ وَقْتُهَا عَامِدًا ، وَلَقَدْ أَجْمَعُوا فِي الصَّلَاةِ عَلَى شَيْءٍ لَمْ يُجْمِعُوا عَلَيْهِ فِي سَائِرِ الشَّرَائِعِ »[3]، وأما من أخطأ في التأويل أو خفي عليه النص وكان مجتهداً في حكمه فهو كما ورد عَنْ عَمْرِو بْنِ العَاصِ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ﴿إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ﴾[4].

سرد الأثار من فهم الصحابة وجملة من التابعين:

❁ عَنْ عَلْقَمَةَ وَمَسْرُوقٍ أَنَّهُمَا سَأَلَا ابْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ الرِّشْوَةِ فَقَالَ: مِنَ السُّحْتِ: قَالَ: فَقَالَا وَفِي الْحُكْمِ؟ قَالَ:« **ذَاكَ الْكُفْرُ!** ثُمَّ تَلَا: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[المائدة:٤٤]»[5].

ومن يصرف الكفر في أثر عبد الله إلى الكفر الأصغر فقد تعنَّت في الرد وهي دعوى باطلة مردودة عليه، إذ لمّا فرّق عبد الله بين الرشوة في الحكم والرشوة في غيره ومثَّل لكل واحدة منهما وأعطى كل نوع حكماً دل على المغايرة، فقد جعل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ التي في الحكم كفراً والأخرى سحتاً من جملة المعاصي، ومما هو ظاهر في التفريق بينهما تعليله فلو كانتا سواء لأقر السائل على أنها في الحكم سحتاً كالتي في غيرها، ويؤيد ذلك استدلاله بظاهر آية المائدة على أنَّ الرشوة في الحكم كفراً، فعن عبيد ابن أَبِي الْجَعْدِ عَنْ مَسْرُوقٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «مَنْ شَفَعَ لِرَجُلٍ لِيَدْفَعَ عَنْهُ مَظْلِمَةً أَوْ يَرُدَّ عَلَيْهِ حَقًّا فأهدا لَهُ هَدِيَّةً فَقَبِلَهَا فَذَلِكَ السُّحْتُ. فَقُلْنَا يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، إِنَّا كُنَّا نَعُدُّ

[1] تفسير البغوي ٢/٥٥

[2] قال ابن القيم :" مِنْهُمْ مَنْ تَأَوَّلَهَا عَلَى الْحُكْمِ بِمُخَالَفَةِ النَّصِّ، تَعَمُّدًا مِنْ غَيْرِ جَهْلٍ بِهِ وَلَا خَطَإٍ فِي التَّأْوِيلِ، **حَكَاهُ الْبَغَوِيُّ عَنِ الْعُلَمَاءِ عُمُومًا.**" مدارج السالكين١/٣٤٥

[3] التمهيد (٤/٢٢٦)

[4] رواه البخاري برقم ٧٣٥ ومسلم برقم ١٧١٦

[5] رواه الطبري برقم ١٢٠٦١

السُّحْتَ الرِّشْوَةَ فِي الْحُكْمِ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [١]، وهو الذي فهمه مسروق من شيخه عبد الله حيث قال مسروق: الْقَاضِي إِذَا أَكَلَ الْهَدِيَّةَ فَقَدْ أَكَلَ السُّحْتَ، وَإِذَا قَبِلَ الرِّشْوَةَ بَلَغَتْ بِهِ الْكُفْرَ"[٢]، وهذا تفريق واضح بين المعصية والكفر وهو فهم الصحابة كما هو منقول عن عمر رضي الله عنه وعلي رضي الله عنه كما سيأتي معنا .

وإن كان الكفر لا ينصرف إلى الأصغر إلا بقرينة واضحة كما هو متقرر، كيف ونص كلام عبد الله ابن مسعود فيه قرينة على أنه الكفر الأكبر، وهو واضح في مراده على أن الكفر هو كفر أكبر، ومع ذلك تجد من يريد أن يثبت خلاف ذلك تعنتاً، بل ويرمي هذا القول بالخارجية!! وهذا طعن صريح في أكابر الصحابة رضوان الله عليهم عمر وعلي وعبد الله ابن مسعود رضي الله عنهم.

❁ ومثل ذلك ثبت عن **عمر ابن الخطاب وعلي رضي الله عنهما**، كما" أخرج ابن المنذر عن مسروق قال: قلت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: أرأيت الرشوة في الحكم أمن السحت هي؟ قال: «لا، **ولكن كفر**، إنما السحت أن يكون للرجل عند السلطان جاه ومنزلة، ويكون للآخر إلى السلطان حاجة فلا يقضي حاجته حتى يهدي إليه هدية»[٣].

❁ وأخرج عبد بن حميد عن علي رضي الله عنه أنه سُئل عن السحت فقال: «الرشا، فقيل له في الحكم، قال: **ذاك الكفر**، وأخرج البيهقي في سننه عن ابن مسعود نحو ذلك»[٤]، ونقول هنا كما قلنا في تفصيل عبد الله ابن مسعود رضي الله عنهما.

---

[١] رواه ابن أبي حاتم برقم ٦٣٨٢

[٢] رواه ابن أبي حاتم برقم ٦٣٨٣

[٣] روح المعاني للألوسي ٦/١٤٠

[٤] نفس المصدر السابق

❁ وهو تفصيل بعض التابعين، قَالَ الْحَسَنُ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، فِي تَفْسِيرِ قوله تعالى: ﴿ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِ ﴾[المائدة٤٢]، «هُوَ الرِّشْوَةُ، وَقَالَ: إِذَا قَبِلَ الْقَاضِي الرِّشْوَةَ، **بَلَغَتْ بِهِ إِلَى الْكُفْرِ**»[١].

❁ "ونقل في اللباب عن ابن مسعود ﷺ **والحسن والنخعي**: أن هذه الآيات الثلاث عامة في اليهود وفي هذه الأمة، فكل من ارتشى وبدل الحكم فحكم بغير حكم الله، **فقد كفر** وظلم وفسق، **وإليه ذهب السدّيّ**. لأنه ظاهر الخطاب. ثم قال: وقيل: هذا فيمن علم نص حكم الله ثم رده عيانا عمداً، وحكم بغيره. وأما من خفي عليه النص أو أخطأ في التأويل، فلا يدخل في هذا الوعيد"[٢].

❁ وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: إذَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي شَيْءٍ **فَخُذُوا بِمَا قَالَ عُمَرُوَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ**: إنِّي لَأَحْسَبُ عُمَرَ ذَهَبَ بِتِسْعَةِ أَعْشَارِ الْعِلْمِ وَقَالَ أَيْضًا: لَوْ أَنَّ عِلْمَ عُمَرَ وُضِعَ فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ وَوُضِعَ عِلْمُ أَهْلِ الْأَرْضِ فِي كِفَّةٍ لَرَجَحَ عِلْمُ عُمَرَ"[٣]، وهذا على فرض وجود خلاف بين الصحابة ولا خلاف كما سيأتي بيانه.

❁ وَقَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ إبْرَاهِيمَ:« **إنَّهُ كَانَ لَا يَعْدِلُ بِقَوْلِ عُمَرَوَعَبْدِ اللَّهِ إذَا اجْتَمَعَا،** فَإِذَا اخْتَلَفَا كَانَ قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ أَعْجَبَ إلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ أَلْطَفَ»[٤].

❁ وروى وكيع قال حَدَّثَنَا الْحَسَن بْن أبي الربيع الجرجاني قال: أَخْبَرَنَا عَبْد الرزاق، عَن مَعْمَر، عَن ابن طاوس، عَن أبيه قال: سئل ابْن عَبَّاس عَن قوله: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾[المائدة:٤٤]، قال: «**كفى به كفره**»[٥].

❁ وروى عبد الرزاق عَنْ مَعْمَرٍ عَنِ ابْنِ طَاوُسٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿ ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾[المائدة:٤٤]، قَالَ:« **هِيَ بِهِ كُفْرٌ**

---

[١] المغني ٦٩/١٠

[٢] محاسن التأويل ٢١٥/٦

[٣] إعلام الموقعين ١٣/١

[٤] إعلام الموقعين ١٣/١

[٥] أخبار القضاة ٤١/١ **وإسناده صحيح**، وروى كذلك عن علي بْن العباس الحضري؛ قال: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن مروان القطان؛ قال: حَدَّثَنَا إبراهيم بْن الحكم بْن ظهير، عَن أبيه، عَن السدي؛ قال: قَالَ: ابْن عَبَّاس: من جار في الحكم وهو يعلم، ومن حكم بغير علمه، ومن أخذ الرشوة في الحكم، فهو من الكافرين. وهَذَا في أهل التوحيد". وهو ضعيف فيه مُحَمَّد بن مَرْوَان الْقطَّان شيعي قَالَ الدَّارَقُطْنِيّ حَاطِب ليل مَتْرُوك

» قَالَ ابْنُ طَاوُسٍ: «وَلَيْسَ كَمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ»[١]، وهذه الرواية تُبيّن أن الزيادة المنسوبة إلى ابن عباس رضي الله عنه على أنها من قوله : «وَلَيْسَ كَمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ» هي مدرجة من ابن طاوس وليست من كلام ابن عباس كما تُوهِم الرواية التي أخرجها الطبري[٢] وعبد الرزاق[٣] والمروزي[٤]، فالثابت عن ابن عباس من قوله: «هي به كفر»[٥]، والزيادة هي من قول طاوس أدرجها ابنه ونسبها إلى ابن عباس رضي الله عنه.

[١] رواه المروزي في تعظيم قدر الصلاة برقم ٥٧٠.

[٢] في تفسيره برقم ١٢٠٥٣

[٣] رواه عبد الرزاق في تفسيره برقم ٧١٣

[٤] في تعظيم قدر الصلاة برقم ٥٧١

[٥] وجاءت الزيادة منسوبة إلى طاوس بإسناد صحيح عند الطبري: قال حدثنا هناد قال، حدثنا وكيع وحدثنا ابن وكيع قال، حدثنا أبي عن سفيان، عن سعيد المكي، عن طاوس :"﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ ، قال:« ليس بكفرٍ ينقل عن الملّة»، فثبت أن الكلام هو لطاوس وليس لابن عباس كما هو واضحٌ في رواية عبد الرزاق التي بينت الإدراج، **وإذا اختلف أصحاب معمر فالحديث لعبد الرزاق**، كما أخرج ابن عساكر بسنده عن حنبل بن إسحاق قال سمعت أحمد بن حنبل يقول إذا اختلف أصحاب معمر فالحديث لعبد الرزاق" تاريخ دمشق ١٦٩/٣٦

دراسة إسنادية لأثر عبد الله ابن عباس:

❁ ما رواه المروزي في تعظيم قد الصلاة برقم ٥٧٣، قال حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى، ثنا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ سُفْيَانَ، **عَنْ رَجُلٍ**، عَنْ طَاوُسٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: «كُفْرٌ لَا يَنْقُلُ عَنِ الْمِلَّةِ»، والإسناد ضعيف لإبهام الرجل.

❁ وما رواه المروزي برقم ٥٦٩ والحاكم في مستدركه برقم ٣٢١٩ قال أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ سُلَيْمَانَ الْمَوْصِلِيُّ، ثنا عَلِيُّ بْنُ حَرْبٍ، ثنا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، عَنْ هِشَامِ بْنِ حُجَيْرٍ، عَنْ طَاوُسٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِنَّهُ " لَيْسَ بِالْكُفْرِ الَّذِي يَذْهَبُونَ إِلَيْهِ إِنَّهُ لَيْسَ كُفْرًا يَنْقِلُ عَنِ الْمِلَّةِ ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ كُفْرٌ دُونَ كُفْرٍ» قال الحاكم: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ"

وهذا الاسناد رجاله ثقات غير هِشَام بن حُجَيْر الْمَكِّيّ قَالَ أَحْمد: لَيْسَ بِالْقَوِيّ قَال عَبد الله بْن أحمد بْن حنبل: سَأَلتُ أبي عنه، فَقَالَ: ليس هو بالقوي. قلت: هو ضعيف؟ قال: ليس هو بذاك، قال: وسألت يحيى بْن مَعِين عنه، فضعفه جدا " تهذيب الكمال ١٧٩/٣٠.

وقَال عَمْرو بْن علي: سمعت يحيى سئل عن حديث هشام بن حجير فأبى أن يحدث به ولم يرضه" الكامل: ٣ / ٢٠٠.

وَقَال إسحاق بْن مَنْصُور، عَنْ يحيى بْن مَعِين: صالح.

وَقَال العجلي: ثقة، صاحب سنة.

وَقَال أَبُو حَاتِم: يكتب حديثه.

وَقَال علي ابن المديني: قرأت عَلَى يحيى بن سَعِيد: حَدَّثَنَا ابن جُرَيْج عَنْ هشام بن حجير، فَقَالَ يحيى بن سَعِيد: خليق أن أدعه. قلت: أضرب عَلَى حديثه؟ قال نعم .

وَقَال أبو عُبَيد الآجُرِيّ: سمعت أبا داود قال: هشام بن حجير ضرب الحد بمكة. قلت: في ماذا؟ قال: فيما يضرب فيه أهل مكة.

وذكره ابنُ حِبَّان في كتاب "الثقات" ... انظر تهذيب الكمال في أسماء الرجال ٣٠/١٨٠

وَقَال ابن سعد: كان ثقة وله أحاديث". (طبقاته: ٥ / ٤٨٤) .

وذكره العقيلي في الضعفاء" ونقل عَنِ ابن عُيَيْنَة أنه قال: **لم نكن نأخذ عن هشام بن حجير مالا نجده عند غيره**"،" الضعفاء (٢٢٥)، وهذه الرواية من طريق سفيان بن عيينة وسفيان أخذه من هشام لأنه لم يجده عند غيره، وفيه دلالة على أن هشام لم يُتابع على هذا الأثر، أي: مع ضعفه لم يُتابع، وإن كان حديثه يُكتب .كما قال أبو حاتم .ليُتابع، أي يصلح في الشواهد والمتابعات، أما مع انفراده لا يُقبل حديثه، ومع تضعيف الأئمة لهشام لا يعتمد توثيق من وثقه كابن سعد الذي يعتمد على الواقدي ومادته في الطبقات منه في الغالب، والواقدي ليس بمعتمد، وأما ابن حبان والعجلي فمشهوران بالتساهل في توثيق المجاهيل ويؤخذ بتوثيقهم لغير المجاهيل، لكن في هشام قد خالفا أئمة الجرح والتعديل. قال المعلمي:" توثيق العجلي وجدته بالاستقراء كتوثيق بن حبان تماما أو أوسع ... ـ إلى أن قال ـ وكذا توثيق ابن سعد فإن أغلب مادته من الواقدي المتروك كما ذكر ابن حجر في مقدمة الفتح عند ترجمة عبدالرحمن بن شريح" « الأنوار الكاشفة ص ٦٨»

فإذا كان هذا حال من وثَّقوه فإن روايته لا تقوم بها حجة بتوثيقهم هذا، فكيف وقد عارضهم وقال بتضعيفه الأئمة الجبال الرواسي كأحمد وابن معين ويحي بن سعيد القطان وعلي بن المديني وغيرهم.

وأما من يحتج برواية البخاري ومسلم لهشام فنقول أن البخاري لم يرو له إلا حديثا واحداً، قال حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ هِشَامِ بْنِ حُجَيْرٍ، عَنْ طَاوُسٍ، سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ، قَالَ: " قَالَ سُلَيْمَانُ: لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى تِسْعِينَ امْرَأَةً " الحديث، أورده في كفارة الأيمان برقم ٦٧٢٠ من طريق هشام وتابعه برقم ٦٦٣٩ عن طريق أَبُو اليَمَانِ، قال أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، حَدَّثَنَا أَبُو الزِّنَادِ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ" قَالَ سُلَيْمَانُ: لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى تِسْعِينَ امْرَأَةً" ، وأما مسلم فليس له عنده إلا حديثين ولم يرو له إلا مقرونا ... وراجع في هذا ما قاله الهرروي في كتابه « خلاصة القول المفهم على تراجم رجال الإمام مسلم».

فعُرف مما سبق أنه لا حجة لمن حاول تقوية هشام بالاحتجاج برواية البخاري ومسلم له، لأنهما لم يرويا له استقلالا ولكن متابعة... وهذا يدل على تضعيفه إذا انفرد كما في رواية الباب.

❁ الرواية الثالثة: قال الطبري حدثني المثنى قال، حدثنا عبد الله بن صالح قال، حدثني معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ قال: «من جحد ما أنزل الله فقد كفر. ومن أقرّ به ولم يحكم، فهو ظالم فاسقٌ». رواه ابن جرير برقم ١٢٠٦٣

والأثر فيه عبد الله بن صالح بن محمد بن مسلم الجهني، أبو صالح المصري كاتب الليث، قال عبد الله بن أحمد: سألت (يعني أباه) عن عبد الله بن صالح، كاتب الليث. فقال: كان أول أمره متماسكاً. ثم فسد بأخرة، وليس هو بشيء". العلل (٤٩١٩) ، وقال عبد الله: سمعتُ أَبي ذكر كاتب الليث بن سعد، عبد الله بن صالح، فذمه وكرهه وقال: إنه روى عن ليث، عن ابن أبي ذئب كتابا أو أحاديث، وأنكر أن يكون الليث روى عن ابن أبي ذئب" العلل (٥٠٦٧) .

وقال زياد بن أيوب: نهاني أحمد بن حنبل أن أروي حديث عبد الله بن صالح". المجروحون لابن حبان ٤٢/٢.

وقال علي بن المديني ضربت على حديث عبد الله بن صالح، وما أروي عنه شيئا"

وقال النسائي: ليس بثقة

وقال أبو حاتم الأحاديث التي أخرجها أبو صالح في آخر عمره فأنكروها عليه

وقال أبو زرعة لم يكن عندي ممن يتعمد الكذب وكان حسن الحديث

قال أحمد بن صالح: متم ليس بشيء

وقال صالح جزرة: كان ابن معين يوثقه وهو عندي يكذب في الحديث

وقال يحي بن معين هما ثبتان ثبت حفظ وثبت كتاب وأبو صالح كاتب الليث ثبت كتاب"، ينظر الضعفاء والمتروكين للنسائي رقم ٣٠١ تهذيب الكمال رقم ٣٣٣٦ والمغني في الضعفاء رقم ٣٢١٨

وجامع القول فيه ما قاله ابن حبان وهو من أهل الاستقراء في هذا الشأن، " قال ابن حبان: عَبْد اللَّهِ بْن صَالِح كَاتب اللَّيْث الْمصْرِيّ يروي عَن ابن لَهِيعَة وَمُعَاوِيَة بن صَالح مَاتَ سنة ثِنْتَيْنِ أَو ثَلَاث وَعشْرين وَمِائَتَيْنِ **مُنكر الحَدِيث جدا** يروي عَن الْأَثْبَات مَالا يشبه حَدِيث الثِّقَات وَعِنْده الْمَنَاكِير الْكَثِيرَة عَن أَقوام مشاهير أَئِمَّة وَكَانَ فِي نَفسه صَدُوقًا يكْتب لليث بن سعد الْحساب وَكَانَ كَاتبه على الغلات وَإِنَّمَا وَقع الْمَنَاكِير فِي حَدِيثه من قبل جَار لَهُ رجل سوء سَمِعت بن خُزَيْمَة يَقُول كَانَ لَهُ جَار بَينه وَبَينه عَدَاوَة فَكَانَ يضع الحَدِيث على شيخ عبد الله بن صَالح وَيكْتب فِي قرطاس بِخَط يشبه خطّ عبد الله بن صَالح ويطرح فِي دَاره فِي وسط كتبه فيجده عبد لله فَيحدث بِهِ فيتوهم أَنه خطه وسماعه فَمن ناحيته وَقع الْمَنَاكِير فِي أخباره" المجروحين ٤٠/٣

وفيه علي بن أبي طلحة، واسمه سالم، بن المخارق الهاشمي، أبو الحسن، ويُقال: أبو محمد، ويُقال: أبو طلحة مولى العباس بن عبد المطلب، أصله من الجزيرة، وانتقل إلى حمص.

"وعلي بن أبي طَلْحَة هَذَا (قَالَ أَحْمد) لَهُ أَشْيَاء مُنكرَات، وقال أبو حاتم: **علي بن أبي طلحة عن ابن عباس مرسل**، إنما يروي عن مجاهد والقاسم بن محمد وذكر شيخنا المزي في "التهذيب" أنه روى عن كعب بن مالك وأن ذلك مرسل أيضا." انظر البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير ٦٦٢/٧، وتحفة التحصيل في ذكر رواة المراسيل !/٢٣٤ ،

وقال الخطيب البغدادي: قرأت فِي كتاب أَبِي الحسن بْن الفرات بخطه أَخْبَرَنَا مُحَمَّد بْن العباس الهروي، قَالَ: حَدَّثَنَا يعقوب بْن إِسْحَاق بْن محمود الفقيه، قَالَ: سئل يعني: صالح بْن مُحَمَّد عَن علي بْن أَبِي طلحة ممن سمع التفسير؟ **قَالَ: من لا أحد!**" تاريخ بغداد ٣٨٠/١٣

وقال ابن حبان: "روى عن ابن عباس ولم يره"، وقال ابن طهمان، عن يحيى: علي بن أبي طلحة روى عنه بديل في التفسير ولم يسمع من ابن عباس شيئا فروى مُرْسلاً". تهذيب الكمال ٣٢/٤

وبعد هذه الدراسة لأسانيد هذا الأثر تبين فيه علتان ولا يحتج بمثله في هذا المقام العظيم، وخاصة إذا علمت أن أقواما بنو عليه ديناً جديداً فيه الحكم للطواغيت وصححوا دينهم وشدوا به ملكهم وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وما أوردنا أقوى ما يستدل به من الآثار في نسبة القول إلى ابن عباس، وغيرها لا يلتفت إلى مثله، ولا يصلح حتى في الشواهد والمتابعات، والله أعلى وأعلم.

❁ وقَالَ مسروق: «القاضي إِذَا أكل الهدية أكل السحت، وإذا قبل الرشوة **بلغ به الكفر**»[1].

❁ وعَنْ عَبْدِ الرحمن بْن زيد بْن أسلم في تفسير زيد بْن أسلم لقوله:﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾، قال: «بهَذَا حكم لكتابه، فمن ترك الحكم بكتاب الله **فقد كفر**»[2].

وما نُقل عن بعض السلف أنها نزلت في أهل الكتاب كما "قَالَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ وَحُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو مِجْلَزٍ وَأَبُو رَجاء العُطارِدي وعِكْرِمة وَعَبِيدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَغَيْرُهُمْ أنها نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ[3] وزَادَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: وَهِيَ عَلَيْنَا وَاجِبَةٌ[4]... مثله نُقل عن بعض السلف أنها في هذه الأمة:

❁عن الشعبي: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [المائدة:٤٤]، قال: «هذا في المسلمين، ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [المائدة:٤٧]، قال: النصارى» [5].

❁ وعن عامر قال: «نزلت "الكافرون" في المسلمين، و"الظالمون" في اليهود، و"الفاسقون" في النصارى»[6].

❁ وعن حذيفة رضي الله عنه في قوله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [المائدة:٤٤]، قال: «نعم الإخوة لكم بنو إسرائيل، إن كانت لكم كل حُلْوة، ولهم كل مُرَّة!! ولتسلُكُنَّ طريقَهم قِدَى الشِّراك»[7].

[1] رواه وكيع في أخبار القضاة ٥٣/١

[2] أخبار القضاة ٤٤/١

[3] تفسير بن كثير ١١٩/٢

[4] رواه الطبري برقم ١٢٠٦٠

[5] رواه الطبري برقم ١٢٠٤٢، وَكَذَا رَوَاهُ هُشَيْم وَالثَّوْرِيُّ، عَنْ زَكَرِيَّا بْنِ أَبِي زَائِدَةَ، عَنِ الشَّعْبِيِّ.

[6] رواه الطبري في تفسيره برقم ١٢٠٣٨

[7] رواه الطبري برقم ١٢٠٢٧

❁ وعَــنْ إِبْــرَاهِيمَ: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [المائـــــدة:٤٤]، قَـــالَ: «نَزَلَتْ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَرَضِيَ لَكُمْ بِهَا»[١].

❁ وعــنْ أَبِـي سَـعِيدٍ التَّيْمِيِّ قَـالَ: سَـمِعْتُ عَمَّـارَ بْـنَ يَاسِـرٍ ﵁ يَقُـولُ: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ ، ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [المائـــدة: ٤٥] ، ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [المائـــدة: ٤٧] ، «**يَعْنِـــي: كُلَّهَا فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ**»[٢].

❁ وعَـن ثابـت الثمـالي قـال: قلـت لأبـي جعفـر: « **إن المرجئـة يخاصـموننا** في هـذه الآيـات، فقلـت: إنهـم يزعمـون أنهـا في بني إسـرائيل؛ فقـال: «نعـم الإخـوة نحـن لبني إسـرائيل إن كـان حلو القرآن لنا، ومره لهم؛ نزلت فيهم ثم جرت فينا »[٣].

وبهـذا يتقـرر أن الصـحابة لـم يصـح عـنهم لفـظ كفـر دون كفـر في تفسـيرهم لآيـة المائـدة، ولا مخـالف بيـنهم في أن الكفـر هـو الأكبر، وقـد نُقـل ذلـك عـن عمـر وعلي وابـن مسـعود وأثبتنـا أنـه قـول ابـن عبـاس أيضـاً، ولا اعتبـار للخـلاف الواقـع بـين التـابعين: كمسـروق والسـدي والحسـن والنخعـي وسـعيد ابـن جبير وزيـد بـن أسـلم، ومـن خـالفهم كطـاوس وعطـاء وعكرمـة وأبـو مجلـز، فمـع عـدم المخـالف مـن الصـحابة لا حجـة في قـول أحـدهم علـى الآخـر ولا علـى مـن بعـدهم، قـال ابـن قدامـة: "وجـه قـول القاضـي: أن الصـحابة شـاهدوا التنزيـل، وهـم أعلـم بالتأويـل، وأعـرف بالمقاصـد، وقـولهم حجـة على مـن بعـدهم، فهـم مـع التـابعين كالعلمـاء مـع العامـة، ولـذلك قـدمنا تفسـيرهم، وأنكـرت عائشـة -رضـي اللـه عنهـا- على أبي سـلمة[٤]حـين خـالف ابـن عبـاس، قالـت: "إنمـا مثلـك مثـل الفـروج، سـمع

[١] رواه الخلال في السنة برقم ١٤١٦

[٢]ترتيب الأمالي الخميسية للشجري برقم ٢٦٢٦

[٣] أخبار القضاة ٤٤/١

[٤] هـو: أبـو سـلمة بـن عبـد الـرحمن بـن عـوف الزهـري المـدني، تـوفي سـنة ٩٤هــ وقيـل: سـنة ١٠٤هــ "تهـذيب التهـذيب ١٢/ ١١٥"، وقالت ذلك لمخالفة أبي سلمة لابن عباس في عدة المتوفى عنها زوجها.

الديكة تصيح فصاح لصياحها"[١]، فخلاف التابعين[٢] في التفسير لا يكون به قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم، ويُرجع في ذلك أقوال الصحابة أو إلى لغة

[١] روضة الناظر وجنة المناظر ٣٩٧/١ ، ذكره في الخلاف الوارد في الاعتداد بقول التابعي المجتهد مع إجماع الصحابة.

[٢] وثبت أن لفظ: «إنه ليس بالكفر الذي يذهبون إليه»، ولفظ:« إنه ليس كفرًا ينقل عنه الملة»، ولفظ:« كفر دون الكفر» هي ألفاظ ثابتة عن طاوس وعطاء وأبو مجلز، وهي أقوالٌ لهم في مقابلة قول الخوارج الذين تأولوا الآية على غير تأويلها وعمموا الحكم بها على أصحاب الكبائر، وللتدليل على أن هؤلاء التابعين ذكروا هذه الألفاظ مقيدة وليست مطلقة وهي في مقابلة استدلال الخوارج المخالف للحق في أصل المسألة، وفي ذلك شواهد منها:

❁ طاوس بن كيسان اليماني:كانت له خصومة شديدة مع الخوارج وكان قد أفتى بقتالهم وبينه وبينهم مساجلات، فروى عبد الرزاق بسنده إلى ابن طاووس قال: لما قدمت الحروراء علينا فر أبي، فلحق بمكة، ثم لقي ابن عمر فقال: قدمت الحروراء علينا، ففررت منهم، ولو أدركوني لقتلوني، فقال ابن عمر: أفلحت إذا وأنجحت". المصنف (١٠/ ١١٩/ ١٨٥٨٠).

وله بسنده إليه قال: كان أبي يحرض يوم رزيق في قتال الحرورية". المصنف (١٠/ ١٢٠/ ١٨٥٨١).

وقَالَ مَعْمَرٌ، عَنِ ابْنِ طَاوُسٍ قَالَ: كُنْتُ لا أَزَالُ أَقُولُ لِأَبِي: إِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُخْرَجَ عَلَى هَذَا السُّلْطَانِ وَأَنْ يُفْعَلَ بِهِ، قَالَ: فَخَرَجْنَا حُجَّاجًا، فَنَزَلْنَا فِي بَعْضِ الْقُرَى وَفِيهَا عامِلٌ لِنَائِبِ الْيَمَنِ، يُقَالُ لَهُ: أَبُو نُجَيْحٍ، وَكَانَ مِنْ أَخْبَثِ عُمَّالِهِمْ، فَشَهِدْنَا الصُّبْحَ فِي الْمَسْجِدِ، فَإِذَا أَبُو نُجَيْحٍ قَدْ عَلِمَ بِطَاوُسٍ، فَجَاءَ فَقَعَدَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يُجِبْهُ، ثُمَّ كَلَّمَهُ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ عَدَلَ إِلَى الشِّقِّ الآخَرِ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، فَلَمَّا رَأَيْتُ مَا بِهِ قُمْتُ إِلَيْهِ، فَمَدَدْتُ بِيَدِهِ، وَجَعَلْتُ أُسَائِلُهُ، وقلت: إن أبا عبد الرحمن لم يعرفك، فَقَالَ: بَلَى مَعْرِفَتُهُ بِي فَعَلَتْ بِي مَا رَأَيْتَ، قَالَ: فَمَضَى وَهُوَ سَاكِتٌ، فَلَمَّا دَخَلْنَا الْمَنْزِلَ قَالَ لِي: **يَا لُكَعُ، بَيْنَمَا أَنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَخْرُجَ عَلَيْهِمْ بِسَيْفِكَ، لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَحْبِسَ عَنْهُمْ لِسَانَكَ**" تاريخ الإسلام ٦٥/٣.

❁ وأما الآثار التي رويت عن أبي مجلز فهي في مقام المناظرة بينه وبين الإباضية الخوارج، فقد روى الطبري عن عمران بن حدير قال أتى أبا مجلز ناسٌ من بني عمرو بن سدوس، فقالوا: يا أبا مجلز، أرأيت قول الله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ ، أحق هو؟ قال: نعم! قالوا: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥] ، أحق هو؟ قال: نعم! قالوا: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ ، أحق هو؟ قال:« نعم! قال فقالوا: يا أبا مجلز، فيحكم هؤلاء بما أنزل الله؟ قال: هو دينهم الذي يدينون به، وبه يقولون، وإليه يدْعون، فإن هم تركوا شيئًا منه عرفوا أنهم قد أصابوا ذنبًا! فقالوا: لا والله، ولكنك تَفْرَقُ! قال: أنتم أولى بهذا مني! لا أرى، وإنكم أنتم ترون هذا ولا تحرَّجُون، ولكنها أنزلت في اليهود والنصارى وأهل الشرك أو نحوًا من هذا». تفسير الطبري برقم ١٢٠٢٥

وروى الطبري قال حدثني المثنى قال، حدثنا حجاج قال، حدثنا حماد، عن عمران بن حدير قال: قعد إلى أبي مجلز نفرٌ من الإبَاضيَّة، قال فقالوا له: يقول الله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ ، ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ ، ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾"! قال أبو مجلز: «إنهم يعملون بما يعلمون يعني الأمراء ويعلمون أنه ذنب! قال: وإنما أنزلت هذه الآية في اليهود! والنصارى قالوا: أما والله إنك لتعلم مثل ما نعلم، ولكنك تخشاهم! قال: أنتم أحق بذلك منّا! أمّا نحن فلا نعرف ما تعرفون! [قالوا] : ولكنكم تعرفونه، ولكن يمنعكم أن تمضوا أمركم من خشيتهم! »" رواه الطبري برقم ١٢٠٢٦

فأبو مجلز .لاحق ابن حميد الشيباني السدوسي.تابعي ثقة وكان يحب علياً رضي الله عنه وكان قوم أبو مجلز وهم بنو شيبان من شيعة علي يوم الجمل وصفين، فلما كان أمر الحكمين يوم صفين واعتزلت الخوارج كان فيمن خرج على علي رضي الله عنه طائفة من بني شيبان ومن بني سدوس بن شيبان بن ذهل، وهؤلاء الـذين سـألوا أبا مجلز ناس من بني عمرو بن سدوس ــ كما في الأثر ــ وهم نفر من الإباضية ـ والإباضية جماعة من الخوارج وهم أصحاب عبد االله بـن إبـاض التميمـي وهـم يقولـون بمقالـة سـائر الخوارج في التحكيم وفي تكفير علي رضي الله عنه عنه إذ حكَّم الحكمين، وأن عليا لم يحكم بما أنزل االله في أمر التحكيم، ثم أن عبد االله بن إباض قال: من خالف الخوارج كافر ليس بمشرك فخالف أصحابه، وأقـام الخوارج على أن أحكام المشركين تجري على من خالفهم ثم افترقت الإباضية بعد عبد االله بن إباض افتراقا لا ندرى معه.في أمر هذين الخبرين.في أي الفرق كان هـؤلاء السائلون بيد أن الإباضــية كلهـا تقول: دور مخالفيهم دور توحيد إلا معسكر السلطان فإنه دار كفر عندهم، ومن البيّن أن الذين سألوا أبا مجلز من الإباضية **إنما كانوا يريدون أن يلزموه الحجة في تكفير الأمراء لأنهم في معسكر السلطان ولأنهم ربما عصوا أو ارتكبوا بعض ما نهاهم االله عن ارتكابه** ولذلك قال لهم في (الخبر الأول)فإن هم تركوا شيئًا منه عرفوا أنهم قد أصابوا ذنبا. وقال لهم في (الخبر الثاني) إنهم يعملون بما يعلمون ويعلمون أنه ذنب.

والظاهر أن أبا مجلز كانت له مشاهد مع الخوارج وهو الذي روى خبرهم مع عليّ رضي الله عنه، في مصنف ابن أبي شيبة عَنْ أَبِي مِجْلَزٍ، قَالَ: نَهَى عَلِيٌّ أَصْحَابَهُ أَنْ يَسْطُوا عَلَى الْخَوَارِجِ حَتَّى يُحْدِثُوا حَدَثًا، فَمَرُّوا بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَبَّابٍ فَأَخَذُوهُ ، فَمَرَّ بَعْضُهُمْ عَلَى تَمْرَةٍ سَاقِطَةٍ مِنْ نَخْلَةٍ فَأَخَذَهَا فَأَلْقَاهَا فِي فِيهِ ؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: تَمْرَةُ مُعَاهِدٍ ، فَبِمَ اسْتَحْلَلْتَهَا؟ فَأَلْقَاهَا مِنْ فِيهِ، ثُمَّ مَرُّوا عَلَى خِنْزِيرٍ فَنَفَحَهُ بَعْضُهُمْ بِسَيْفِهِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: خِنْزِيرُ مُعَاهَدٍ فَبِمَ اسْتَحْلَلْتَهُ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: أَلا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ عَلَيْكُمْ حُرْمَةً مِنْ هَذَا؟ قَالُوا: نَعَمْ قَالَ: أَنَا فَقَدَّمُوهُ فَضَرَبُوا عُنُقَهُ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ عَلِيٌّ أَنْ أَقِيدُونَا بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَبَّابٍ" الأثر برقم ٣٧٨٩٣

<u>ومن التابعين وغيرهم من تأول الآية على غير تأويلها:</u>

❁ فَمِنْهُمْ مَنْ تَأَوَّلَ الْآيَةَ عَلَى تَرْكِ الْحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ جَاحِدًا لَهُ، **وَهُوَ قَوْلُ عِكْرِمَةَ**، وَهُوَ تَأْوِيلٌ مَرْجُوحٌ، فَإِنَّ نَفْسَ جُحُودِهِ كُفْرٌ، سَوَاءٌ حَكَمَ أَوْ لَمْ يَحْكُمْ، وهذا الذي رجحه الأشـاعرة في تفاسـيرهم كالرازي والقرطبي وغيرهم لأنه يتخرج على أصـولهم في باب الإيمان.

وعكرمة لا يصح عنه هذا القول لأنه كان خارجياً إباضياً "قَالَ أَبُو أَحْمَدَ بْنُ عدي: حدثنا ابن أبي عصمة، قال: حدثنا أَبُو طَالِبٍ أَحْمَدُ بْنُ حُمَيْدٍ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ يَقُولُ: كَانَ عِكْرِمَةُ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ، وَلَكِنَّهُ يَرَى رَأْيَ الصُّفْرِيَّةِ، وَلَمْ يَدَعْ مَوْضِعًا إلا خَرَجَ إِلَيْهِ: خُرَاسَانَ، وَالشَّامِ، وَالْيَمَنِ، وَمِصْرَ، وَإِفْرِيقِيَةَ، كَانَ يَأْتِي الْأُمَرَاءَ فَيَطْلُبُ جَوَائِزَهُمْ، وَيُقَالُ: إِنَّمَا أَخَذَ أَهْلُ إِفْرِيقِيَةَ رَأْيَ الصُّفْرِيَّةِ مِنْ عِكْرِمَةَ،

وقَالَ مُصْعَبٌ الزُّبَيْرِيُّ: كَانَ يَرَى رَأْيَ الخوارج، وادّعى على ابن عَبَّاسٍ أَنَّهُ كَانَ يَرَى رَأْيَ الْخَوَارِجِ، نَقَلَهُ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي خَيْثَمَةَ، عَنْ مُصْعَبٍ.

وَقَالَ خالد بن نزار الأيلي: حدثنا عُمَرُ بْنُ قَيْسٍ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ **أَنَّ عِكْرِمَةَ كَانَ إِبَاضِيًّا**." تاريخ بغداد ١٠٦/٣

❁ وَمِنْهُمْ مَنْ تَأَوَّلَهَا عَلَى تَرْكِ الْحُكْمِ بِجَمِيعِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، قَالَ: وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْحُكْمُ بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِسْلَامِ، وَهَذَا تَأْوِيلُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْكِنَانِيِّ، وَهُوَ أَيْضًا بَعِيدٌ، إِذِ الْوَعِيدُ عَلَى نَفْيِ الْحُكْمِ بِالْمُنَزَّلِ، وَهُوَ يَتَنَاوَلُ تَعْطِيلَ الْحُكْمِ بِجَمِيعِهِ وَبِبَعْضِهِ، **وَلِأَنَّهُ لَوْ كَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَعِيدًا مَخْصُوصًا بِمَنْ خَالَفَ حُكْمَ اللَّه تَعَالَى فِي كُلِّ مَا أَنْزَلَ اللَّه تَعَالَى لَمْ يَتَنَاوَلْ هَذَا الْوَعِيدُ الْيَهُودَ بِسَبَبِ مُخَالَفَتِهِمْ حُكْمَ اللَّه فِي الرَّجْمِ.**

<u>**ووجه استدلال الخوارج بآية المائدة:**</u> والأصل في تكفير الخوارج أصحاب الكبائر هي آية المائدة فأبقوا اللفظ على ظاهره وصرفوه إلى غير مناطه، وأرادوا أن يُدخلوا في (مَن) مطلق المخالفة الشرعية، ولم يكتفوا بتكفير الإمام

بمعصيته لربه حتى يكفروا معه الرعية، وهذا أمر معلوم بطلانه من الدين بالضرورة، ولهذا أنكره التابعون وتابعوهم من أهل القرون الثلاثة الأولى وقالوا ما قالوا في تفسير هذه الآيات رداً عليهم، وكلامهم في هذا كان بحسب الحاجة الحاضرة، **قال قتادة :** «في الآيات الثلاث: ليست والله كما تأولها أهل الشبهات وأهل البدع وأهل الفرى على الله وعلى كتابه، وإنما أنزل ما تسمعون في أهل الكتاب حينما **نبذوا كتاب الله، وعطلوا حدوده، وتركوا أمره**، وقتلوا رسله" الوسيط في تفسير القرآن المجيد ١/٢ ٩١، فمن نبذ كتاب الله وعطل حدوده وترك أمره قد دخل في ما ذكرناه من حد الحكم بغير ما أنزل الله في القضية لرشوة ونحوها.

وقال النيسابوري :" ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ ، **احتجت الخوارج بالآية على أن كل من عصى الله فهو كافر**" تفسير النيسابور ٥٩٦/٢.

وقال الرازي: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ ، وَفِيهِ مَسْأَلَتَانِ:

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: قَالَتِ الْخَوَارِجُ: كُلُّ مَنْ عَصَى اللَّه فَهُوَ كَافِرٌ. وَقَالَ جُمْهُورُ الْأَئِمَّةِ: لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، **أَمَّا الْخَوَارِجُ فَقَدِ احْتَجُّوا بِهَذِهِ الْآيَةِ وَقَالُوا: إِنَّهَا نَصٌّ فِي أَنَّ كُلَّ مَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّه فَهُوَ كَافِرٌ، وَكُلُّ مَنْ أَذْنَبَ فَقَدْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّه**، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ كَافِرًا". تفسير الرازي ٣٦٨/١٢. وهذا النقل لبيان قول الخوارج في آية المائدة.

<u>مسألة: القول في ولاة الجور في الأحكام:</u> سبق تقرير أن الخوارج والمعتزلة يكفرون أئمة الجور ويستدلون بآية المائدة، قال القاضي أبو يعلى لما ذكر حجج الخوارج والمعتزلة على قولهم في مرتكب الكبيرة فقال:" احتجوا بأشياء منها: .... واحتج بقوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ وظاهر هذا يوجب إكفار أئمة الجور وهذا قولنا" مسائل الإيمان للقاضي أبي يعلى ص ٣٤٠، فهذه الآية حجتهم على تكفير أصحاب الكبائر ومنهم أئمة الجور.

ومنهج أهل الحديث والأثر عدم الخروج على الولاة وإن جاروا وظلموا، وهي من أصول أهل السنة والجماعة كما قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى في أصول السنة: "والسمع وَالطَّاعَة للأئمة وأمير الْمُؤمنِينَ الْبر والفاجر وَمن ولي الْخلَافَة وَاجْتمعَ النَّاس عَلَيْهِ وَرَضوا بِهِ وَمن عَلَيْهِم بِالسَّيْفِ حَتَّى صَار خَليفَة وَسمي أَمِير الْمُؤمنِينَ والغزو مَاض مَعَ الإِمَام إِلَى يَوْم الْقِيَامَة الْبر والفاجر لَا يتْرك وَقِسْمَة الْفَيْء وَإِقَامَة الْحُدُود إِلَى الْأَئِمَّة مَاض لَيْسَ لأحد أَن يطعن عَلَيْهِم وَلَا ينازعهم وَدفع الصَّدقَات إِلَيْهِم جَائِزَة نَافِذَة من دَفعهَا إِلَيْهِم أَجْزَأَت عَنهُ برا كَانَ أَو فَاجِرًا وَصَلَاة الْجُمُعَة خَلفه وَخلف من ولاه جَائِزَة بَاقِيَة تَامَّة رَكْعَتَيْنِ من أعادهما فَهُوَ مُبْتَدع" أصول السنة ١٨

والخوارج خالفوا أهل السنة في هذا الأصل فحكموا بكفر **الحاكم المسلم الجائر الذي يحكم بغير الحق اجتهاداً**، ومن ذلك ما أخرجه الآجري في الشريعة قال: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي دَاوُدَ قَالَ: حَدَّثَنَا الْمُثَنَّى بْنُ أَحْمَدَ قَالَ: حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ خَالِدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا **ابْنُ لَهِيعَةَ**، عَنْ عَطَاءِ بْنِ دِينَارٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾[آل عمران: ٧] قَالَ: " أَمَّا الْمُتَشَابِهَاتُ: فَهُنَّ آيٌ فِي الْقُرْآنِ يَتَشَابَهْنَ عَلَى النَّاسِ إِذَا قَرَءُوهُنَّ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ يُضِلُّ مَنْ ضَلَّ مِمَّنِ ادَّعَى هَذِهِ الْكَلِمَةَ، كُلُّ فِرْقَةٍ يَقْرَءُونَ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهَا لَهُمْ أَصَابُوا بِهَا الْهُدَى وَمِمَّا تَتْبَعُ الْحَرُورِيَّةُ مِنَ الْمُتَشَابِهِ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ وَيَقْرَءُونَ مَعَهَا: ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾[الأنعام: ١]، **فَإِذَا رَأَوُا الْإِمَامَ يَحْكُمُ بِغَيْرِ الْحَقِّ** قَالُوا: قَدْ كَفَرَ وَمَنْ كَفَرَ عَدَلَ بِرَبِّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ فَهَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةُ مُشْرِكُونَ، فَيَخْرُجُونَ فَيَفْعَلُونَ مَا رَأَيْتَ؛ لِأَنَّهُمْ يَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ الْآيَةَ " **وهذا الأثر ضعيف** فيه ابن لهيعة قَالَ الدَّارمِيّ: قلت ليحيى: كَيفَ رِوَايَة ابْن لَهِيعَة عَن أبي الزبير؟ قَالَ: ابْن لَهِيعَة ضَعِيف الحَدِيث. وَمرَّة قَالَ: ابْن لَهِيعَة ضَعِيف. وَمرَّة: لَا يحْتَج بحَدِيثه. وقَالَ الْحميدِي عَن يحيى بن سعيد: كَانَ لَا يرَاهُ شَيْئا" مختصر الكامل في الضعفاء ٤٥٠/١

وهذا من المتشابه النسبي فآية المائدة اشتبهت على الخوارج فنزلوها على غير محملها وحملوا لفظها على عمومه كما سبق بيانه، أما مسألة الحكم بغير الحق اجتهاداً الذي هو الجور الواقع من الحكام على الرعية، فهي مسألة أخرى لا تدخل في هذا الباب البتة، فالحكم بغير الحق والاجتهاد المخالف للحق لا يخلو منه أحد إلا من عصمه الله تعالى، وهذا الباب يدخل فيه الخطأ في الحكم والتأويل الفاسد وتنزيل الأحكام على غير محلها كالقتل بغير حق وأداء الحقوق لغير أهلها، وبعض السياسات الظالمة التي يُخرجونها على وجه من أوجه الشريعة، كما قال الشاطبي:" وأيضاً فإن كثيراً من الأُمراءِ يَحْتَجِنُون أموال المسلمين لأنفسهم

القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب، "وَقَالَ شُعْبَةُ بْنُ الْحَجَّاجِ وَغَيْرُهُ أَقْوَالُ التَّابِعِينَ فِي الْفُرُوعِ لَيْسَتْ حُجَّةً فَكَيْفَ تَكُونُ حُجَّةً فِي التَّفْسِيرِ؟ يَعْنِي أَنَّهَا لَا تَكُونُ حُجَّةً عَلَى غَيْرِهِمْ مِمَّنْ خَالَفَهُمْ وَهَذَا صَحِيحٌ أَمَّا إذَا أَجْمَعُوا عَلَى الشَّيْءِ فَلَا يُرْتَابُ فِي كَوْنِهِ حُجَّةً فَإِنْ اخْتَلَفُوا فَلَا يَكُونُ قَوْلُ بَعْضِهِمْ حُجَّةً عَلَى بَعْضٍ وَلَا عَلَى مَنْ بَعْدَهُمْ وَيُرْجَعُ فِي ذَلِكَ إلَى لُغَةِ الْقُرْآنِ أَوْ السُّنَّةِ أَوْ عُمُومِ لُغَةِ الْعَرَبِ **أَوْ أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ فِي ذَلِكَ**"[1]،وعن أبي عَبْدِ اللَّهِ يَعْنِي أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ: «الِاتِّبَاعُ أَنْ يَتَّبِعَ الرَّجُلُ مَا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَعَنْ أَصْحَابِهِ ثُمَّ هُوَ بَعْدُ فِي التَّابِعِينَ مُخَيَّرٌ»[2].

وحمل لفظ الآية على الكفر الأصغر مخالف لقواعد اللغة[3] ودلالة عرف الشارع، وهي أن لَفْظَ الْكُفْرِ إِذَا أُطْلِقَ انْصَرَفَ إِلَى الْكُفْرِ فِي الدينِ لا كفر النعمة، ولم يرد في

اعْتِقَادًا مِنْهُمْ أَنها لَهُمْ دُونَ الْمُسْلِمِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْتَقِدُ نَوْعًا مِنْ ذَلِكَ فِي الْغَنَائِمِ المأخوذة عُنْوةً مِنَ الْكُفَّارِ، فَيَجْعَلُونَهَا فِي بَيْتِ الْمَالِ، ويَحْرِمون الْغَانِمِينَ مِنْ حُظُوظِهِمْ مِنْهَا **تأْويلاً عَلَى الشَّرِيعَةِ بِالْعُقُولِ**، فَوَجْهُ الْبِدْعَةِ هَا هَنَا ظَاهِرٌ" الاعتصام ٤٤٤/٢، **وهذه من جملة المعاصي التي تقع من الأمراء والحكام** كما ورد عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الأَشْجَعِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ﴿مَنْ وُلِّيَ عَلَيْهِ وَالٍ، **فَرَآهُ يَأْتِي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ**، فَلْيَكْرَهْ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيةِ اللَّهِ، وَلا ينْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ﴾ رواه مسلم برقم ٦٦.

وعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ قَالَ: دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَسْجِدَ، فَقَالَ: ﴿مِنْ هَاهُنَا؟ هَلْ تَسْمَعُونَ؟ إِنَّ مَنْ بَعْدِي أُمَرَاءُ **يَعْمَلُونَ بِغَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ**، فَمَنْ شَارَكَهُمْ فِي عَمَلِهِمْ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ، وَلَنْ يَرِدَ عَلَيَّ الْحَوْضَ، وَمَنْ لَمْ يُشَارِكْهُمْ فِي عَمَلِهِمْ، وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، وَسَيَرِدُ عَلَيَّ الْحَوْضَ﴾ رواه الطبراني في الأوسط ٧٤٦

وعن عبادة ابن الصامت قال قال رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ»، قَالَ: «إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ﴾ رواه مسلم برقم ٤٢، والبخاري برقم ٧٠٥٦.

[1] انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ٣٧٠/١٣

[2] الفقيه والمتفقه ٤٣٩/١

[3] وذلك أنَّ الكفر في الآية جاء بصيغة الاسم المعرف بأل (الكافرون) الدال على حصول كمال المعنى، أي أنه الكفر الأكبر، والله سبحانه وتعالى قد أكد الكفر في هذه الآية وبالَغَ في وصفه وتغليظه بأسلوب هو من أقوى أساليب اللغة في إفادة المعنى ومن ذلك:

❁ مجيء الكفر بلفظ الاسم وهو دال على ثبوت الكفر ولزومه دون الفعل الدال على التجدد والحدوث.

❁ تصدير الاسم بالألف واللام لحصول كمال المسمى (الكافرون) بما يدل على أنه الكفر الأكبر.

❁ مجيء جملة جواب الشرط في صورة مبتدأ وخبر معرفتين (أولئك) (الكافرون) وذلك من علامات انحصار الخبر (الكفر) في المبتدأ (أولئك)، وهو اسم إشارة يعود على من لم يحكم بما أنزل لله، وانحصار الخبر المعرف بأل في المبتدأ فيه مبالغة في حصول كمال معناه في المحكوم عليه (وهو المبتدأ) أي مبالغة في حصول كمال الكفر لأولئك الذين لم يحكموا بما أنزل الله..
انظر (الإيضاح في علوم البلاغة) للقاضي جلال الدين القزويني، ص ١٠١)

كتاب الله مُراداً به الكفر الأصغر، فيُحمل اللفظ على معهود استعمال الشارع له[1]، قال عبد اللطيف بن عبدالرحمن بن حسن:" ولفظ الظلم و المعصية والفسوق

۞ ومجيء المبتدأ في جملة جواب الشرط في صيغة اسم الإشارة (أولئك) زيادة في الدلالة على المقصود من اختصاص المذكورين قبله (من لم يحكم ...) باستحقاق الكفر، انظر (الإيضاح) للقزويني ص٤٧.

۞ وتقديم المبتدأ على الخبر في جملة جواب الشرط وإن كان هو الأصل في اللغة إلا أنه يفيد في أن كون المبتدأ (أولئك) متصفا بالخبر (الكافرون) هو المطلوب بيانه، كما أن هذا التقديم يفيد زيادة تخصيص.

۞ وإدخال ضمير الفصل (هم) بين المبتدأ والخبر (أولئك هم الكافرون) يفيد اختصاص المبتدأ بالخبر، أي اختصاص أولئك الذين لم يحكموا بما أنزل الله بالكفر.

والخلاصة: أن أسلوب هذه الآية من جهة بنية ألفاظها وتركيبها بلغ الغاية في إفادة المعنى، وهو أن أولئك الذين لم يحكموا بما أنزل الله قد بلغوا الغاية في الكفر، كما ورد في رواية النسائي وصف الآية من أهل الكتاب في قولهم:" مَا نَجِدُ شَتْمًا أَشَدَّ مِنْ شَتْمٍ يَشْتِمُونَا هَؤُلَاءِ، إِنَّهُمْ يَقْرَءُونَ: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ .

والأثر عند النسائي بسنده إلى ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «كَانَتْ مُلُوكٌ بَعْدَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ بَدَّلُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ، وَكَانَ فِيهِمْ مُؤْمِنُونَ يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ قِيلَ لِمُلُوكِهِمْ: مَا نَجِدُ شَتْمًا أَشَدَّ مِنْ شَتْمٍ يَشْتِمُونَا هَؤُلَاءِ، إِنَّهُمْ يَقْرَءُونَ: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾، وَهَؤُلَاءِ الْآيَاتُ مَعَ مَا يَعِيبُونَا بِهِ فِي أَعْمَالِنَا فِي قِرَاءَتِهِمْ، فَادْعُهُمْ فَلْيَقْرَءُوا كَمَا نَقْرَأُ، وَلْيُؤْمِنُوا كَمَا آمَنَّا، فَدَعَاهُمْ، فَجَمَعَهُمْ، وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ أَوْ يَتْرُكُوا قِرَاءَةَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، إِلَّا مَا بَدَّلُوا مِنْهَا، فَقَالُوا: مَا تُرِيدُونَ إِلَى ذَلِكَ دَعُونَا، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ: ابْنُوا لَنَا أُسْطُوَانَةً ثُمَّ ارْفَعُونَا إِلَيْهَا، ثُمَّ اعْطُونَا شَيْئًا نَرْفَعُ بِهِ طَعَامَنَا وَشَرَابَنَا، فَلَا نَرِدُ عَلَيْكُمْ. وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ: دَعُونَا نَسِيحُ فِي الْأَرْضِ، وَنَهِيمُ وَنَشْرَبُ كَمَا يَشْرَبُ الْوَحْشُ، فَإِنْ قَدَرْتُمْ عَلَيْنَا فِي أَرْضِكُمْ فَاقْتُلُونَا، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ: ابْنُوا لَنَا دُورًا فِي الْفَيَافِي، وَنَحْتَفِرُ الْآبَارَ، وَنَحْتَرِثُ الْبُقُولَ فَلَا نَرِدُ عَلَيْكُمْ، وَلَا نَمُرُّ بِكُمْ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْقَبَائِلِ إِلَّا وَلَهُ حَمِيمٌ فِيهِمْ. قَالَ: فَفَعَلُوا ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾[الحديد: ٢٧] وَالْآخَرُونَ قَالُوا: نَتَعَبَّدُ كَمَا تَعَبَّدَ فُلَانٌ، وَنَسِيحُ كَمَا سَاحَ فُلَانٌ، وَنَتَّخِذُ دُورًا كَمَا اتَّخَذَ فُلَانٌ، وَهُمْ عَلَى شِرْكِهِمْ، لَا عِلْمَ لَهُمْ بِإِيمَانِ الَّذِينَ اقْتَدَوْا بِهِ، فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ النَّبِيَّ ﷺ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ، انْحَطَّ رَجُلٌ مِنْ صَوْمَعَتِهِ، وَجَاءَ سَائِحٌ مِنْ سِيَاحَتِهِ، وَصَاحِبُ الدَّيْرِ مِنْ دَيْرِهِ، فَآمَنُوا بِهِ، وَصَدَّقُوهُ، فَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ ﴾ [الحديد: ٢٨] أَجْرَيْنِ بِإِيمَانِهِمْ بِعِيسَى وَبِالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَبِإِيمَانِهِمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَتَصْدِيقِهِمْ. قَالَ: يَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ الْقُرْآنَ، وَاتِّبَاعَهُمُ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: ﴿ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ [الحديد: ٢٩] يَتَشَبَّهُونَ بِكُمْ ﴿ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ ﴾[الحديد: ٢٩] الْآيَةَ.

[1] والسلف الصالح ـ مع معرفتهم بمقاصد الشريعة وكونهم عرباً على السليقة ـ قد أخذوا بعموم اللفظ في بعض الصور وإن كان سياق الاستعمال يدل على خلاف ذلك، فقد يعتبرون العموم بحسب اللفظ الإفرادي وإن عارضه السياق، ولذلك حمل بعض التابعين لفظ آية المائدة في ردهم على الخوارج على الكفر الأصغر وهذا في مقابلة استدلال الخوارج باللفظ على غير مناطه، فلما استعمل الخوارج الآية في غير تنزيلها وعمموا اللفظ على المعاصي،

والفجور والموالاة والمعاداة والركون والشرك ونحو ذلك من الألفاظ الواردة في الكتاب والسنة قد يُراد بها مسماها المطلق وحقيقتها المطلقة، وقد يراد بها مطلق الحقيقة، والأول هو الأصل عند الأصوليين، والثاني لا يحمل عليه إلا بقرينة لفظية أو معنوية و إنما يعرف ذلك بالبيان النبوي و تفسير السنة، قال تعالى ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم:٤][١].

توسع التابعون في الرد عليهم في استعمال اللفظ " الكافرون" في عمومه ليدخل فيه الأكبر والأصغر، ولهذا الموضع مثائل من كلام بعض الصحابة والتابعين واستدلالاتهم ومنها:

❁ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يتخذ الخشن من الطعام، ويلبس المرقع في خلافته، فقيل له :لو اتخذت طعاما ألين من هذا، فقال: أخشى أن تعجل طيباتي، يقول االله تعالى: ﴿ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا ﴾ [الأحقاف:٢٠]، وجاء أنه قال لأصحابه وقد رأى بعضهم قد توسع في الإنفاق شيئًا: أين تذهب بكم هذه الآية :﴿ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا ﴾ ،وسياق الآية يقتضي أنها إنما نزلت في الكفار الذين رضوا الحياة الدنيا من الآخرة كما في قوله تعالى﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ﴾ [الأحقاف:٢٠].

❁ وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾، قَالَ: «الأَنْدَادُ هُوَ الشِّرْكُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءَ، فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ. وَهُوَ أَنْ يَقُولَ: وَاللَّهِ، وَحَيَاتِكَ يَا فُلانَةُ، وَحَيَاتِي. وَيَقُولُ: لَوْلا كَلْبُهُ هَذَا لأَتَانَا اللُّصُوصُ، وَلَوْلا الْبَطُّ فِي الدَّارِ لأَتَى اللُّصُوصُ. وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ: لَوْلا اللَّهُ وَفُلَانٌ. لَا تَجْعَلْ فِيهَا فلان، فَإِنَّ هَذَا كُلَّهُ بِهِ شِرْكٌ.» رواه ابن أبي حاتم برقم ٢٢٩.

وسياق الآية في الشرك الأكبر أي التنديد المطلق وحملها ابن عباس على مطلق التنديد، واستدل بها على بعض صور الشرك الأصغر.

وغير ذلك من الشواهد وفيها دلالة على صحة الأخذ بالعموم اللفظي وإن دل الاستعمال اللغوي أو السياق القرآني على خلافه، والمناط الذي قال بعض التابعين فيه كفر دون كفر هو في التكفير بالمعاصي دون غيرها مما نزل فيه قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾.

[١] الرسائل المفيدة لعبد اللطيف، جمع سليمان بن سحمان، ص ٢١ ٢٢ ومعنى حقيقته المطلقة أي الكاملة، ومعنى مطلق الحقيقة أي أدنى ما يُطلق عليه، وبالنسبة للكفر فحقيقته المطلقة وهي الأصل في خطاب الشارع عند الأصوليين هي الكفر الكامل أي الأكبر، ولا يُحمل على مطلق حقيقته أي الكفر الأصغر إلا بدليل من كتاب أو سنة وهذا منتف بالنسبة لآية المائدة.

المطلب الثالث: تبديل أحكام الله وشرائعه

إن تبديل أحكام الله وشرائعه بأحكامٍ وقوانين من وضع البشر، وجعلها حاكمة على عقائد الناس ودمائهم وأموالهم وأعراضهم، وإماتة شريعة الله كاملةً هو الكفر البواح والشرك الصراح، وهي من المحادة لله ورسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ۞ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴾[المجادلة ٢٠]، قال الطبري يقول تعالى ذكره: إن الذين يخالفون الله في حدوده وفرائضه، **فيجعلون حدودًا غير حدوده، وذلك هو المحادّة لله ولرسوله**"[١]، ثم قال بعدها ﴿ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾[المجادلة ٢١]، فلن تجد مؤمنا بالله يوادُّ هؤلاء المبدلين ويواليهم، وقال أبو زيدٍ في قوله: ﴿ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ «**لا يعملون بما في التوراة والإنجيل، بل حرفوهما و أتوا بأحكام كثيرة من قبل أنفسهم**»[٢].

وصورة التبديل ليست محل نزاع بين السلف البتة ولا من جاء بعدهم، بل لم يقع في تاريخ الأمة هذا التبديل العام إلا ما يُحكى عن التتار ونُقل فيه الإجماع على كفرهم[٣]، وفي مثلها نزلت آيات المائدة كما جاء في حديث الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: هِيَ فِي الْكُفَّارِ كُلُّهَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ﴿اللهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَكَ إِذْ أَمَاتُوهُ، فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ﴾[٤] فعبر النبي ﷺ عن فعل اليهود بالإماتة لحكم الله، كما هو حال طواغيت هذا الزمان الذين بدلوا دين الله بزبالات عقول الفلاسفة وسلكوا سنن أهل الكتاب نحو القذة بالقذة، وصدق فيهم حذيفة رضي الله عنه في قوله: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾[المائدة:٤٤]، قال:« نعم الإخوة لكم بنو إسرائيل، إن كانت لكم كل حُلْوة، ولهم كل مُرَّة!! **ولتسلُكُنَّ طريقهم قِدَى الشِّراك**»[٥]، وقَالَ رضي الله عنه: «أَوَّلُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ

---

[١] تفسير الطبري ٢٣/ ٢٣٥

[٢] اللباب في علوم الكتاب ١٠/ ٦٤

[٣] قال ابن كثير: " فَمَنْ تَرَكَ الشَّرْعَ الْمُحْكَمَ الْمُنَزَّلَ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَتَحَاكَمَ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ الْمَنْسُوخَةِ كَفَرَ، فَكَيْفَ بِمَنْ تحاكم إلى الياسا وَقَدَّمَهَا عَلَيْهِ؟ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَفَرَ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى أَفَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمن أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٥٠ وَقَالَ تَعَالَى فَلا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً." البداية والنهاية ١٣/ ١١٩

[٤] السنن الكبرى للنسائي برقم ٧١٨٠

[٥] رواه الطبري برقم ١٢٠٢٧

الْخُشُـوعُ وَآخِـرُ مَـا تَفْقِـدُونَ مِـنْ دِيـنِكُمُ الصَّـلَاةُ وَلَيُصَـلِّيَنَّ النِّسَـاءُ وَهُـنَّ حُـيَّضٌ وَلَيُنْقَضَـنَّ الْإِسْـلَامُ عُـرْوَةً عُـرْوَةً ، وَلَتَـرْكَبُنَّ طَرِيـقَ مَـنْ كَـانَ قَـبْلَكُمْ حَـذْوَ النَّعْـلِ بِالنَّعْـلِ وَحَـذْوَ الْقُـذَّةِ بِالْقُذَّةِ **لَا تُخْطِئُونَ طَرِيقَهُمْ ، وَلَا يَخْطَأُ بِكُمْ**»[1].

وَأَجْمَعَ الْمُفَسِّـرُونَ عَلَى أَنَّ هَـذَا الْوَعِيـدَ يَتَنَـاوَلُ الْيَهُـودَ بِسَـبَبِ مُخَـالَفَتِهِمْ حُكْـمَ اللَّـه تَعَـالَى فِي وَاقِعَـةِ الـرَّجْمِ، كمـا وردت بـه الآثـار[2] في تفسـير قولـه تعـالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾[المائـدة:٤١] والمتقـرر في الأصـول أن صـورة السـبب قطعيـة الـدخول، قـال في الاتقـان " فَـإِنَّ دُخُـولَ صُـورَةِ السَّـبَبِ قَطْعِـيٌّ وَإِخْرَاجُهَـا بِالِاجْتِهَـادِ مَمْنُـوعٌ كَمَـا **حَكَـى الْإِجْمَاعَ** عَلَيْهِ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ فِي التقريب ولا التفات إِلَى مَنْ شَذَّ فَجَوَّزَ ذَلِكَ"[3].

وقـال ابْـنَ زَيْـدٍ فِـي قَوْلِـهِ: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا ﴾ قَـالَ: «هَـؤُلَاءِ الْيَهُـودُ كَتَبُـوا كِتَابًـا ضَـادُّوا بِـهِ كِتَـابَ اللَّـهِ يُقَـالُ لَـهُ الْمَثْنَـاةُ

---

[1] الإبانة الكبرى لابن بطة ٥٧١/٢

[2] روى الامام أحمد في مسـنده قال حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُرَّةَ، عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: مُرَّ عَلَى رَسُـولِ ﷺ، بِيَهُودِيٍّ حَمَّمٍ مَجْلُودٍ، فَدَعَاهُمْ، فَقَالَ: " أَهَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ؟ " فَقَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: فَدَعَا رَجُلًا مِنْ عُلَمَائِهِمْ، فَقَالَ: " أَنْشُـدُكَ بِاللهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَـى، أَهَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ؟ " فَقَالَ: لَا وَاللهِ، وَلَوْلَا أَنَّكَ أَنْشَـدْتَنِي بِهَذَا لَمْ أُخْبِرْكَ، نَجِدُ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِنَا الرَّجْمَ، وَلَكِنَّهُ كَثُرَ فِي أَشْـرَافِنَا، فَكُنَّا إِذَا أَخَذْنَا الشَّـرِيفَ، تَرَكْنَاهُ، وَإِذَا أَخَذْنَا الضَّعِيفَ، أَقَمْنَا عَلَيْهِ الْحَدَّ، فَقُلْنَا: تَعَالَوْا حَتَّى نَجْعَلَ شَيْئًا نُقِيمُهُ عَلَى الشَّرِيفِ وَالْوَضِيعِ، فَاجْتَمَعْنَا عَلَى التَّحْمِيمِ وَالْجَلْدِ، فَقَالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: " اللهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَكَ إِذْ أَمَاتُوهُ " قَالَ: فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ ﴾[المائدة: ٤١] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ ﴾[المائدة: ٤١] يَقُولُونَ: ائْتُوا مُحَمَّدًا فَإِنْ أَفْتَاكُمْ بِالتَّحْمِيمِ، وَالْجَلْدِ، فَخُذُوهُ، وَإِنْ أَفْتَاكُمْ بِالرَّجْمِ، فَاحْذَرُوا، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤] قَالَ فِي الْيَهُودِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥] ، ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾[المائدة: ٤٧] قَالَ: هِيَ فِي الْكُفَّارِ ﴾ وفي رواية عند مسلم في صحيحه قال حدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ يَحْيَى، وَأَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، كِلَاهُمَا عَنْ أَبِي مُعَاوِيَةَ، قَالَ يَحْيَى: أَخْبَرَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ به وفيه .... فَجَعَلْنَا التَّحْمِيمَ، وَالْجَلْدَ مَكَانَ الرَّجْمِ﴾.

[3] الإتقان في علوم القرآن ١٠٧/١.

الْمُحِـقُّ فِيهَـا مُبْطِـلٌ فِي التَّـوْرَاةِ، وَالْمُبْطِـلُ فِيهَـا مُحِـقٌّ فِي التَّـوْرَاةِ﴾[١]، وقـال أبـو عبيـد القاسـم ابـن سـلام : ﴿ فَسَـأَلت رجـلا مـن أهـل الْعلـم بالكتـب الأُوَل قـد عرفهَـا وَقرأَهَـا عَـن المَثْنَـاة فَقَـالَ: إن الْأَحْبَـار والرهبـان مـن بني إِسْـرَائِيل بعـد مُوسَى وضعُوا كتابـا فيهمَـا بَينهم على مَـا أَرَادوا مـن غير كتـاب اللـه تبَـارك وَتَعَـالَى فسَـمَّوه الْمُثَنَّـاة كَأَنَّـهُ يَعْنِي أَنهـم أحلّـوا فِيـهِ مَـا شـاؤا وحرموا فِيهِ مَا شاؤا على خلاف كتاب الله تبَارك وَتَعَالَى»[٢].

وإن كـان مـن المتقـدمين مـن قـال عـن مـانعي الزكـاة أنهـم أرادوا تبـديل الـدين وأحكامـه فكيـف بمـن بـدل الـدين كلـه!! قـال البخـاري رحمـه اللـه تعـالى: "وَكَانَـتِ الأَئِمَّـةُ بَعْـدَ النَّبِيِّ ﷺ يَسْتَشِيرُونَ الأُمَنَـاءَ مِـنْ أَهْـلِ العِلْـمِ فِي الأُمُـورِ المُبَاحَـةِ لِيَأْخُـذُوا بِأَسْـهَلِهَا، فَـإِذَا وَضَـحَ الكِتَـابُ أَوِ السُّـنَّةُ لَـمْ يَتَعَـدَّوْهُ إِلَى غَيْرِهِ، اقْتِـدَاءً بِـالنَّبِيِّ ﷺ وَرَأَى أَبُـو بَكْـرٍ قِتَـالَ مَـنْ مَنَـعَ الزَّكَـاةَ، فَقَـالَ عُمَـرُ: كَيْـفَ تُقَاتِـلُ النَّـاسَ وَقَـدْ قَـالَ رَسُـولُ اللَّـهِ ﷺ : ﴿أُمِـرْتُ أَنْ أُقَاتِـلَ النَّـاسَ حَتَّى يَقُولُـوا لاَ إِلَـهَ إِلَّا اللَّـهُ، فَـإِذَا قَـالُوا: لاَ إِلَـهَ إِلَّا اللَّـهُ عَصَـمُوا مِنِّي دِمَـاءَهُمْ وَأَمْـوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَـا وَحِسَـابُهُمْ عَلَى اللَّـهِ ﴾ فَقَـالَ أَبُـو بَكْـرٍ: وَاللَّـهِ لَأُقَـاتِلَنَّ مَـنْ فَـرَّقَ بَـيْنَ مَـا جَمَـعَ رَسُـولُ ﷺ «ثُـمَّ تَابَعَـهُ بَعْـدُ عُمَـرُ، فَلَـمْ يَلْتَفِـتْ أَبُـو بَكْـرٍ إِلَى مَشُـورَةٍ إِذْ كَـانَ عِنْـدَهُ حُكْـمُ رَسُـولِ اللَّـهِ ﷺ فِي الَّـذِينَ فَرَّقُـوا بَـيْنَ الصَّـلاَةِ وَالزَّكَـاةِ **وَأَرَادُوا تَبْـدِيلَ الـدِّينِ وَأَحْكَامِـهِ**» وَقَـالَ النَّبِيُّ ﷺ : ﴿مَـنْ بَـدَّلَ دِينَـهُ فَـاقْتُلُوهُ﴾ وَكَـانَ القُـرَّاءُ أَصْـحَابَ مَشُـورَةِ عُمَـرَ كُهُـولًا كَـانُوا أَوْ شُـبَّانًا، وَكَـانَ وَقَّافًـا عِنْـدَ كِتَـابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ"[٣].

ومـا وقـع فيـه النـاس اليـوم أشـد ممـا وقـع فيـه اليهـود بـالأمس بمفـاوز، إنـه الإلحـاد في الحاكميـة والتشـريع كمـا سـبق بيانـه، فدخولـه في صـورة السـبب مـن بـاب أولى وأحـرى، وإن كـان السـلف قـد حكمـوا بكفـر مـن حكـم أو أفتى بكتـاب الحيـل لأبـي حنيفـة، فكيـف بمـن حكـم بكتـاب جيرمـي بنثـام[٤] فيلسـوف اللَّـذة الحـاكم في دمـاء النـاس وأعراضـهم وأمـوالهم في هذا الزمان.

---

[١] رواه ابن ابي حاتم في تفسيره برقم ٨٤٩٦.

[٢] غريب الحديث ٢٨٢/٤.

[٣] صحيح البخاري ١١٣/٩

[٤] جيريمي بنثام عاش في الفترة (١٥ فبراير ١٧٤٨ - ٦ يونيو ١٨٣٢) هو عالم قانون وفيلسـوف إنكليزي، ومصلح قانوني واجتماعي، وكان المنظر الرائد في فلســفة القانون الأنجلو-أمريكي. شــملت مواقفه الحجج المؤيدة للفرد، والحرية الاقتصــادية، الفائدة، والفصــل بين الكنيســة والدولة، حرية التعبير، والمســاواة في الحقوق للمرأة، الحق في الطلاق، وعدم تجريم أفعال المثلية الجنسية كما طالب بإلغاء الرق وعقوبة الإعدام وإلغاء العقوبات البدنية، بما في ذلك للأطفال.

ويُعرّف بنثام بأنه «البديهية الأسـاسـية» لفلسـفته المُتمحورة حول المبدأ الذي ينصّ على «**أن السـعادة المطلقة لأكبر عدد من الأشخاص هي مقياس الصـواب والخطأ**»، وأصبح بنثام واضع نظريات رائدًا في الفلسـفة القانونية الأنجلوأمريكية، والراديكالي

ومن الآثار في حكم الإفتاء والعمل بكتب الحيل:

❁ قال عبد الله ابن المبارك: «من نظر في كتاب الحيل لأبي حنيفة أحل ما حرم الله، وحرم ما أحل الله»[١].

❁ وقال ابن المبارك: «من كان كتاب الحيل في بيته يفتي به أو يعمل بما فيه فهو كافر، بانت امرأته، وبطل حجه، قال: فقيل له: إن في هذا الكتاب إذا أرادت المرأة أن تختلع من زوجها ارتدت عن الإسلام حتى تبين، ثم تراجع الإسلام، فقال عبد الله: من وضع هذا فهو كافر، بانت منه امرأته، وبطل حجه، فقال له خاقان المؤذن: ما وضعه إلا إبليس، قال: الذي وضعه عندي أبلس من إبليس»[٢].

❁ وقال الْأَوْزَاعِي: «مَنْ أَخَذَ بِنَوَادِرِ الْعُلَمَاءِ خَرَجَ مِنَ الْإِسْلَامِ»[٣]، فكيف بمن أخذ بقوانين أعداء الله من أهل الكتاب؟.

❁ وقال الشّعْبِي:« وَاللَّهِ لَئِنِ اتَّخَذْتُمْ بِالْمَقَايِيسِ لَتُحَرِمُنَّ الْحَلَال ولتحلن الْحَرَام»[٤].

❁وقال أَبي عَبْدِ اللَّهِ: «هَذِهِ الْحِيَلُ الَّتِي وَضَعَهَا هَؤُلَاءِ - أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ - عَمَدُوا إِلَى السُّنَنِ فَاحْتَالُوا فِي نَقْضِهَا، أَتَوْا إِلَى الَّذِي قِيلَ لَهُمْ إِنَّهُ حَرَامٌ وَاحْتَالُوا فِيهِ حَتَّى أَحَلُّوهُ»[٥].

❁ وقَالَ أَبُو عَلِيٍّ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ ابْنِ الْمُبَارَكِ يَوْمًا إِذْ دَخَلَ حَمْزَةُ الْبَزَّازُ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ: «حَدَثَ حَدَثٌ عَظِيمٌ، قَال: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: بِنْتُ أَبِي رَوْحٍ ارْتَدَّتْ عَنِ الإِسْلامِ، لِتَبِينَ مِنْ زَوْجِهَا، فَغَضِبَ ابْنُ الْمُبَارَكِ غَضَبًا مَا غَضِبَ مِثْلَهُ قَطُّ، ثُمَّ قَالَ: لا جَرَمَ، قَدْ أَحْبَطَ اللَّهُ كُلَّ حَسَنَةٍ عَمِلَتْهَا إِلَى الْيَوْمِ وَبَقِيَ الْوِزْرُ، ثُمَّ قَالَ: أَوْ قِيلَ: هَذَا كِتَابُ الْحِيَلِ،

السياسي الذي أثرت أفكاره في تطور النزعة الاتكالية، وقد دافع عن الحريات الفردية والاقتصادية وفصل الكنيسة عن الدولة وحرية التعبير والمساواة في حقوق المرأة والحق في الطلاق.

[١] تاريخ بغداد ١٥/٥٥٨

[٢] نفس المصدر

[٣] السنن الكبرى للبيهقي برقم ٢٠٩١٨ وروى بسنده قال سَمِعْتُ إِسْمَاعِيلَ بْنَ إِسْحَاقَ الْقَاضِي يَقُولُ: دَخَلْتُ عَلَى الْمُعْتَضِدِ، فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا نَظَرْتُ فِيهِ وَكَانَ قَدْ جَمَعَ لَهُ الرُّخَصَ مِنْ زَلَلِ الْعُلَمَاءِ، وَمَا احْتَجَّ بِهِ كُلٌّ مِنْهُمْ لِنَفْسِهِ، **فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُصَنِّفُ هَذَا الْكِتَابِ زِنْدِيقٌ**، فَقَالَ: أَلَمْ تَصِحَّ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ؟ قُلْتُ: " الْأَحَادِيثُ عَلَى مَا رُوِيَتْ وَلَكِنَّ مَنْ أَبَاحَ الْمُسْكِرَ لَمْ يُبِحِ الْمُتْعَةَ، وَمَنْ أَبَاحَ الْمُتْعَةَ لَمْ يُبِحِ الْغِنَاءَ وَالْمُسْكِرَ، وَمَا مِنْ عَالِمٍ إِلَّا وَلَهُ زَلَّةٌ، **وَمَنْ جَمَعَ زَلَلَ الْعُلَمَاءِ ثُمَّ أَخَذَ بِهَا ذَهَبَ دِينُهُ** " فَأَمَرَ الْمُعْتَضِدُ فَأُحْرِقَ ذَلِكَ الْكِتَابُ ".

[٤] رواه الهروي في ذم الكلام برقم ٣٥٨

[٥] الحيل لابن بطة ١/٥٣

فَقَـال: لَقَـدْ أَحْبَبْـتُ أَنْ أَرَى هَـذَا الْكِتَـابَ، فَـلا يُقْضَـى لِي أَنْ أَرَاهُ فَـأَعْلَمَ مَـا فِيـهِ، ثُـمَّ قَـالَ: أَشْـهَدُ عَلَـى مَـنْ وَضَـعَ هَـذِهِ الْمَسْـأَلَةَ فِي هَـذَا الْكِتَـابِ لِحِيلَـةِ النِّسَـاءِ لِتَبِـينَ مِـنْ زَوْجِهَـا إِذَا أَرَادَتْ، إِنَّـهُ كَـافِرٌ بِاللَّـهِ: ثُـمَّ قَـالَ: وَذَلِـكَ لَـوْ أَنِّي أَمَـرْتُ رَجُـلا أَنْ يَكْفُـرَ فَكَفَـرَ بِقَـوْلِي، كُنْـتُ أَنَـا الْكَافِرَ»[١].

وقـال الشـاطبي:" وإنمـا وُضِـعَ هَـذَا الْكِتَـابُ وأمثالـه لِيَكُـونَ حُجَّـةً عَلَـى زَعْمِهِـمْ فِي أَن يَحْتَـالُوا لِلْحَـرَامِ حَتَّى يصـير حـلالاً، وللواجـب حتى يصـير غَيْرَ وَاجِـبٍ، وَمَـا أَشـبه ذَلِـكَ مِـنَ الْأُمُـور الْخَارِجَـةِ عَـنْ نِظَـامِ الـدِّينِ، كَمَـا أَجـازوا نِكَـاحَ الْمُحَلِّـلِ، وَهُـوَ احتيـالٌ عَلَـى رَدّ الْمُطَلَّقَـةِ ثَلَاثًـا لِمَنْ طَلَّقَهَا، وأَجازوا إِسقاط فَرْضِ الزَّكَاةِ بِالْهِبَةِ المستعارة، وأَشباه ذلك"[٢].

المطلب الرابع: التحاكم إلى الطواغيت الحاكمين بغير ما أنزل الله

<u>التحـاكم:</u> هـو إسـنادُ القضـاء إلى حـاكم لفصـل النـزاع القـائم بـين الاثنـين[٣] المتنـازعين أو أكثـر، ويقـع بطلـب[٤] الفصـل بـين المتنـازعين مـن جهـة المـدعي والاسـتجابة مـن جهـة المـدعى عليـه، **فمـن رد النـزاع والخصـومة إلى الكتـاب والسـنة فقـد أفـرد اللـه في عبـادة التحـاكم**، ومـن رد النـزاع إلى غير شـرع مـن أحكـام الجاهليـة والطواغيـت فقـد أشـرك باللـه في العبادة.

قال ابن منظور:" وحاكَمَهُ إِلى الحَكَمِ: **دَعَاهُ**"[٥].

وَقَـالَ اللَّيْـث: وَيُقَـال: حَكَّمْنَـا فلَانـا بَيْننَـا أَي أَجَزْنـا حكمـه بَيْننَـا. وحاكمنـا فلَانـا إِلَى اللـه **أَي دعوناه إِلَى حكم الله**"[٦].

---

[١] أخبار الشيوخ وأخلاقهم برقم ٢٨٢

[٢] الاعتصام ٢/٤٤٢

[٣] قال الجرجاني **وتَفَاعَلَ لمُشَارَكَةِ أمْرَيْنِ فصاعداً في أصلهِ صريحاً، نحو: تَشَارَكَ، ومِنْ ثَمَّ نقصَ مفعولاً عن "فَاعَلَ"، وليدلَّ على أنَّ الفاعلَ أظهرَ أنّ أصلَه حاصل له، وهو مُنْتَفٍ، نحو: تَجَاهَلْتُ وتَغَافَلْتُ**" المفتاح في الصرف ١/٥٠

[٤] **وقلنـا أنـه طلـب لأن القضـاء يُسـتعدى إليـه** كمـا قـال ذلـك أبـو يعلى الفـراء حـال ذكـره الفـروق بـين ولايـة القضـاء وولايـة الحسـبة :" ومـا الْوَجْهَـانِ فِي زِيَادَتِهَـا عَلَى أَحْكَامِ الْقَضَـاءِ فَأَحَـدُهُمَا: أَنَّـهُ يَجُـوزُ لِلنَّـاظِرِ فِيهَـا أَنْ يَتَعَـرَّضَ لِتَصَـفُّحِ مَـا يَـأْمُرُ بِـهِ مِـنْ الْمَعْـرُوفِ، وَيَنْهَى عَنْـهُ مـن المنكـر، وإن لـم يحضـره خصـم يسـتعدي، وَلَـيْسَ لِلْقَاضِـي أَنْ يَتَعَـرَّضَ لِـذَلِكَ إلَّا بِحُضُـورِ خَصْـمٍ يَجُـوزُ لَـهُ سَـمَاعُ الـدَّعْوَى مِنْـهُ، فَـإِنْ تَعَـرَّضَ الْقَاضِـي لِـذَلِكَ خَـرَجَ عَـنْ مَنْصِـبِ وِلَايَتِـهِ وَصَـارَ مُتَجَـوِّزًا فِي قَاعِـدَةِ نَظَـرِهِ. وَالثَّـانِي: أَنَّ لِلنَّـاظِرِ فِي الْحِسْـبَةِ مِـنْ سَـلَاطَةِ السَّـلْطَنَةِ وَاسْـتِطَالَةِ الحمـاة فيمـا يتعلـق بِـالْمُنْكَرَاتِ مَـا لَـيْسَ لِلْقُضَـاةِ، لِأَنَّ الْحِسْـبَةَ مَوْضُـوعَةٌ على الرهبـة، فَـلَا يَكُـونُ خُـرُوجُ الْمُحْتَسِـبِ إلَيْهَـا بِالسَّـلَاطَةِ وَالْغِلْظَـةِ تَجَـوُّزًا فِيهَـا وَلَا خَرْقًـا، وَالْقَضَاءُ مَوْضُوعٌ لِلْمُنَاصَفَةِ، فهو بالأناة والوقار أخص" الأحكام السلطانية ١/٢٨٦

[٥] لسان العرب ١٢/١٤٢

[٦] تهذيب اللغة ٤/ ٧١

والتحاكم إما أن يكون إلى سلطان البلد الذي يُستعدى إليه في حق كافة الناس، أو بالتحكيم: وهو "عبارة عن تصيير غيره حاكما فيكون الحكم في حق ما بين الخصمين كالقاضي في حق كافة الناس، وفي حق غيرهما بمنزلة الصلح، لأنه إنما صار حَكَمًا بتراضي الخصمين، وتراضيهما عامل في حقهما ولم يعمل في حق غيرهما لأن لهما ولاية على نفسهما لا على غيرهما"[1].

ويدل على أن الإجابة إلى التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ عبادة والإعراض عنه كفر بالله تعالى وهو من صفة المنافقين وأعداء الله من أهل الكتاب، قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ۞ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[النور48]، **وقوله تعالى:**﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[آل عمران23]ن **وكقوله تعالى:** ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴾[الأحقاف3]، **فنفى الله** الإيمان عمن ترك الاحتكام إلى رسول الله وأعرض عنه، قال أبو جعفر :﴿ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِين ﴾ يقول: وليس قائلوا هذه المقالة، يعني قوله: ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ﴾ بالمؤمنين؛ **لتركهم الاحتكام إلى رسول الله ﷺ وإعراضهم عنه إذا دعوا إليه."**[2]، وقال الجصاص:" وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ ـ ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ـ **دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ مَنْ رَدَّ شَيْئًا مِنْ أَوَامِرِ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ أَوَامِرِ رَسُولِهِ ﷺ فَهُوَ خَارِجٌ مِنْ الْإِسْلَامِ سَوَاءٌ رَدَّهُ مِنْ جِهَةِ الشَّكِّ فِيهِ أَوْ مِنْ جِهَةِ تَرْكِ الْقَبُولِ وَالِامْتِنَاعِ مِنْ التَّسْلِيمِ وَذَلِكَ يُوجِبُ صِحَّةَ مَا ذَهَبَ إلَيْهِ الصَّحَابَةُ فِي حُكْمِهِمْ بِارْتِدَادِ مَنْ امْتَنَعَ مِنْ أَدَاءِ الزَّكَاةِ وَقَتْلِهِمْ وَسَبْيِ ذَرَارِيِّهِمْ لِأَنَّ** اللَّهَ تَعَالَى حَكَمَ بِأَنَّ مَنْ لَمْ يُسَلِّمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ قَضَاءَهُ وَحُكْمَهُ فَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ"[3].

[1] أنيس الفقهاء في تعريفات الألفاظ المتداولة بين الفقهاء ٨٦/١

[2] تفسير الطبري ٢٠٥/١٩

[3] أحكام القرآن للجصاص ١٨١/١

وفي الآية بيان صفة المنافقين التي هي الإعراض عن التحاكم إلى رسول الله حين الدعوة إليه كما ورد في تفسير السلف:

۞ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ قَوْلُهُ: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ قَالَ:« هَؤُلَاءِ المنافقين»[1].

۞ وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:« ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ﴾قَالُوا: بَلْ نُحَاكِمُكُمْ إِلَى كَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ»[2].

۞ وعَنْ قَتَادَةَ قوله: ﴿ مُّعۡرِضُونَ﴾ قَالَ:« عَنْ كِتَابِ اللَّهِ»[3].

أقول: وإذا كانت الإجابة إلى التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسول الله عبادة، فصرف هذه العبادة إلى غير شرع الله كفر، وإجابة الدعوة إلى التحاكم إلى غير الله ورسوله إذا دُعيَّ إليها كفر بالله تعالى لأنها صرف العبادة لغير الله والإعراض عنه هو الإيمان.

والتحاكم داخلٌ في حد العبادة التي هي: "الخضوعُ لله بالطاعة، والتذلل له بالاستكانة"[4]، إذ هو خضوعٌ لله بالطاعة أي: طاعة الله برد النزاع لكتابه وسنة رسوله ﷺ وحده دونما سواه كما قال تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النِّسَاء:٥٩] ، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَضَى فِي امْرَأَتَيْنِ مِنْ هُذَيْلٍ اقْتَتَلَتَا، فَرَمَتْ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى بِحَجَرٍ، فَأَصَابَ بَطْنَهَا وَهِيَ حَامِلٌ، فَقَتَلَتْ وَلَدَهَا الَّذِي فِي بَطْنِهَا، **فَاخْتَصَمُوا إِلَى النَّبِيِّ** ﷺ، فَقَضَى: أَنَّ دِيَةَ مَا فِي بَطْنِهَا غُرَّةٌ عَبْدٌ أَوْ أَمَةٌ، فَقَالَ وَلِيُّ المَرْأَةِ الَّتِي غَرِمَتْ: كَيْفَ أَغْرَمُ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ لاَ شَرِبَ وَلاَ أَكَلَ، وَلاَ نَطَقَ وَلاَ اسْتَهَلَّ، فَمِثْلُ ذَلِكَ يُطَلُّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّمَا هَذَا مِنْ إِخْوَانِ الكُهَّانِ»[5].
وعَنْ عَامِرٍ، قَالَ: كَانَ بَيْنَ عُمَرَ وَأُبَيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا **خُصُومَةٌ فِي حَائِطٍ**، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: بَيْنِي وَبَيْنَكَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، فَانْطَلَقَا فَطَرَقَ عُمَرُ الْبَابَ فَعَرَفَ زَيْدٌ صَوْتَهُ فَفَتَحَ الْبَابَ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَلَا بَعَثْتَ إِلَيَّ حَتَّى آتِيَكَ؟ فَقَالَ: " **فِي بَيْتِهِ يُؤْتَى الْحَكَمُ** "[6].

والتحاكُم إلى الطاغُوت كُفرٌ يزولُ به أصل الإيمان والتَّوحيد، لأنَّ الحُكم والأمر لله، ومن أفرد الله بذلك وانقاد لأوامره وخضع لأحكامه وتحاكم لكتابه فهُو المُسلمُ

[1] رواه ابن ابي حاتم برقم ١٤٧٣١

[2] رواه ابن أبي حاتم برقم ١٤٧٣٦

[3] رواه ابن أبي حاتم برقم ١٤٧٣٧

[4] ذكره الطبري في تفسيره ٣٦٣/١

[5] رواه البخاري برقم ٥٧٥٨ ومسلم برقم ١٦٧١

[6] رواه النسائي في الكبرى برقم ٢٠٥١٢

المُوحد، ومن تحاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فقد أشرك بالله في عبادته، ولا يُشترطُ للمُتحاكم اعتقادُ أنَّ شريعةَ الطاغُوت أفضلُ من شريعة الله، أو أنَّ أمر الطاغوت واجب الاتّباع، أو الرضى بالتحاكم إلى الطاغوت، بل يصيرُ المرء مُتحاكماً بفعل التَّحاكُم قولاً أو فعلاً على جهة الاختيار، أي: قولاً بالطلب أو فعلاً بالاستجابة، ويكفُر بمجرَّد الإرادة ـ أي الطلب ـ دون الفعل ولو لم يقصُد الكفُرَ بالله تعالى، إذ من قال أو فعل ما هو كفر كفَرَ بذلك وإن لم يقصد أن يكون كافراً، وهنا قد صرف العبادة لغير الله، وهذا العمل مكفر بذاته ولا يشترط فيه الرضا للكفر أو الاستحلال، كما هو منطوق القرآن وأصلٌ متقرر في باب الإيمان عند السلف، إذ لا يقصد الكفر أحدٌ إلا ما شاء الله، وصرف العبادة العملية إلى الطاغوت كفر كصرف السجود والدعاء إلى الأوثان والقبور، فمن اشترط الرضى أو قصد الكفر في الدعاء فهو جهمي كذلك من اشترط الرضى والاستحلال في التحاكم إلى غير شرع الله.

والله عزَّ وجلَّ كفّر بإرادة التحاكم إلى الطاغوت دون فعلها، وإرادة التحاكم في الآية هي طلب التحاكم إلى الطاغوت كما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ وعَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: «تَنَازَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: اذْهَبْ بِنَا إِلَى مُحَمَّدٍ، وَقَالَ الْمُنَافِقُ: **اذْهَبْ بِنَا إِلَى كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ** فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ ﴾[النساء:٦٠]، وَهُوَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ»[١]، وقال مجاهد وغيره:« المراد بهذه الآية ـ ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾ ـ من تقدم ذكره ممن **أراد التحاكم إلى الطاغوت وفيهم أنزلت**»[٢]، فطلب التحاكم إلى الطاغوت دون فعله كفر فكيف بالتحاكم نفسه.

<u>ومن الأدلة الواضحات والحجج البينات على أن صرف التحاكم للطاغوت إيمانٌ به وشرك بالله ما يلي:</u>

❁ **قال تعالى**: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ

[١] تفسير مجاهد ٢٨٥/١

[٢] الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي ٢٦٦/٥

ضَلَـٰلاً بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾[النساء٦٠].

ومن أوجه الاستدلال بالآية:

١- أن الله جل وعلا أضاف التحاكم للطاغوت وأمر بالكفر به في قوله: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ ﴾، **كما أضاف العبادة إلى الطاغوت وأمر باجتنابه في قوله:** ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾[الزمر١٧]، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، وهذه في غاية الوضوح والظهور وهي كافية شافية لأهل التجرد والاتباع.

و الطاغوت هو كل ما عبد من دون الله، فدل على أن صرف التحاكم للطاغوت عبادة له من دون الله، قال عبد الرحمن بن حسن:" قال الإمام مالك -رحمه الله-: "الطاغوت ما عُبد من دون الله"، كذلك من دعا إلى تحكيم غير الله ورسوله فقد ترك ما جاء به الرسول ﷺ ورغب عنه، **وجعل لله شريكا في الطاعة**، وخالف ما جاء به رسول الله ﷺ فيما أمره الله تعالى به في قوله: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾. وقوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾، فمن خالف ما أمر الله به ورسوله ﷺ بأن حكم بين الناس بغير ما أنزل الله، أو طلب ذلك اتباعا لما يهواه ويريده، فقد خلع ربقة الإسلام والإيمان من عنقه، وإن زعم أنه مؤمن، فإن الله تعالى أنكر على من أراد ذلك، وأكذبهم في زعمهم الإيمان لما في ضمن قوله: ﴿ يَزْعُمُونَ﴾ من نفي إيمانهم؛ فإن﴿ يَزْعُمُونَ﴾ إنما يقال غالبا لمن ادعى دعوى هو فيها كاذب لمخالفته لموجبها وعمله بما ينافيها، يحقق هذا قوله: ﴿ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ ﴾لأن الكفر بالطاغوت ركن التوحيد كما في آية البقرة، فإذا لم يحصل هذا الركن لم يكن موحداً، والتوحيد هو أساس الإيمان الذي تصلح به جميع الأعمال وتفسد بعدمه، كما أن ذلك بين في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة ٢٥٦]، **وذلك أنَّ التحاكم إلى الطاغوت إيمان به**."[١].

---

[١] فتح المجيد ٣٩٣/١

٢ ـ أنَّ اللـه جـل وعـلا سـمى ادعـاء المتحـاكم للإيمـان زعمـاً، والـزعم هـو الخبر الكـاذب[١]، فـدل على أن التحـاكم يـنقض الإيمـان ويُصيّره زعمـا لا حقيقـة لـه، يقـول سـليمان بـن عبـد اللـه: "وفي الآيـة دليـل على تـرك التحـاكم إلى الطـاغوت الـذي هـو مـا سـوى الكتـاب والسـنة من الفرائض، وأن المتحاكم إليه غير مؤمن بل ولا مسلم."[٢].

٣ ـ قولــه تعــالى: ﴿وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾ يفســره قولــه تعــالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾، فمـن تحـاكم إلى الطـاغوت لـم يكفـر بـه، ومـن لـم يكفـر بالطـاغوت فهـو مـؤمن بـه كـافر باللـه تعـالى لـم يستمسـك بـالعروة الـوثقى، قـال عبـدالرحمن بـن حسـن عنـد ذكـر قولـه تعـالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾الآيـة قـال: "**وذلـك أن التحــاكم إلـى الطـاغوت إيمـان بـه**"[٣]، " وَأَشَـارَ إِلَى أَنَّـهُ لَا يُـؤْمِنُ أَحَـدٌ حَتَّى يَكْفُـرَ بِالطَّـاغُوتِ بِقَوْلِـهِ: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

وَمَفْهُـومُ الشَّـرْطِ أَنَّ مَـنْ لَـمْ يَكْفُـرْ بِالطَّـاغُوتِ لَـمْ يَسْتَمْسِـكْ بِـالْعُرْوَةِ الْـوُثْقَى وَهُـوَ كَـذَلِكَ، وَمَـنْ لَـمْ يَسْتَمْسِـكْ بِـالْعُرْوَةِ الْـوُثْقَى فَهُـوَ بِمَعْـزِلٍ عَـنِ الْإِيمَـانِ ؛ لِأَنَّ الْإِيمَـانَ بِاللَّـهِ هُـوَ الْعُـرْوَةُ الْـوُثْقَى، **وَالْإِيمَـــانُ بِالطَّـــاغُوتِ يَسْـــتَحِيلُ اجْتِمَاعُـــهُ مَـــعَ الْإِيمَـــانِ بِاللَّـــهِ، لِأَنَّ الْكُفْـــرَ بِالطَّـــاغُوتِ شَـــرْطٌ فِـي الْإِيمَـــانِ بِاللَّـــهِ أَوْرُكْـــنٌ مِنْـــهُ**، كَمَـا هُـوَ صَـرِيحُ قَوْلِـهِ: فَمَـنْ يَكْفُـرْ بِالطَّاغُوتِ الْآيَةَ"[٤].

٤ ـ أن التحــاكم للطــاغوت ممــا أمــر بــه الشــيطان كمــا في قولــه تعــالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ٦١ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا﴾[النساء٦٢].قـال عبـد الـرحمن بـن حسـن:" أن التحـاكم إلى الطـاغوت ممـا يـأمر بـه الشـيطان ويزينـه لمـن أطاعـه، ويبـيّن أن ذلـك ممـا أضـلّ بـه الشـيطان مـن أضلـه،

---

[١] "وَالزَّعْمُ: خَبَرٌ كَاذِبٌ، أَوْ مَشُوبٌ بِخَطَإٍ، أَوْ بِحَيْثُ يَتَّهِمُهُ النَّاسُ بِذَلِكَ، فَإِنَّ الْأَعْشَى لَمَّا قَالَ يمدح قيسا بْنَ مَعْدِ يكَرِبَ الْكِنْدِيَّ:
وَنُبِّئْتُ قَيْسًا وَلَمْ أَبْلُهُ ... كَمَا زَعَمُوا خَيْرَ أَهْلِ الْيَمَنْ
غَضِبَ قَيْسٌ وَقَالَ: «وَمَا هُوَ إِلَّا الزَّعْمُ» ، وَقَالَ تَعَالَى: زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا [التغابن: ٧] ، وَيَقُولُ الْمُحَدِّثُ عَنْ حَدِيثٍ غَرِيبٍ فَزَعَمَ فُلَانٌ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ كَذَا، أَيْ لِإِلْقَاءِ الْعُهْدَةِ عَلَى الْمُخْبِرِ، وَمِنْهُ مَا يَقَعُ فِي كِتَابِ سِيبَوَيْهِ مِنْ قَوْلِهِ زَعَمَ الْخَلِيلُ، وَلِذَلِكَ قَالُوا: الزَّعْمُ مَطِيَّةُ الْكَذِبِ." التحرير والتنوير ١٠٤/٥

[٢] تيسير العزيز الحميد ص ٤١٩

[٣] فتح المجيد ص ٣٤٥.

[٤] أضواء البيان ٣٤٥/١

وأكـده بالمصـدر، ووصـفه بالبعـد، فـدلّ علـى أن ذلـك مـن أعظـم الضـلال وأبعـده عـن الهدى.

ففي هذه الآية أربعة أمور:

الأول: أنـه مـن إرادة الشـيطان. الثـاني: أنـه ضـلال. الثالـث: تأكيـده بالمصـدر. الرابـع: وصـفه بالبعـد عـن سـبيل الحـق والهـدى. فسـبحان اللـه مـا أعظـم هـذا القـرآن ومـا أبلغـه! ومـا أدلّـه على أنه كلام رب العالمين، أوحاه إلى رسوله الكريم، وبلغه عبده الصادق الأمين ﷺ"[١].

٥ـ أن اللـه سـمى التحـاكم إلـى الطـاغوت بالضـلال البعيـد: ﴿ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴾، والضـلال البعيـد هـو ضـلال الشـرك كمـا قـال تعـالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾[النساء١١٦]، وهي ظاهرة في الاستدلال بتفسير القرآن بالقرآن.

❁ **وقال تعالى:** ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾، قـال مجاهـد وغيـره:« المـراد بهـذه الآيـة مـن تقدم ذكره ممن **أراد التحـاكم إلى الطـاغوت وفـيهم أنزلـت**»[٢]، وعـن الضـحاك في قولـه: ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ ﴾، قـال: إثمـا ﴿ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ يقـول: ويسـلّموا لقضـائك وحكمـك، **إذعانًـا مـنهم بالطاعـة**، وإقـرارًا لـك بـالنبوة تسـليمًا"[٣]، وقـال البغوي: ﴿ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ أي: ينقادوا لأمرك انقيادا"[٤]

وأوجه الاستدلال بالآية ما يلي:

١ـ سـمى اللـه تعـالى تحكـيم النبي ﷺ في مـوارد النـزاع إيمـان كمـا في قولـه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[النور٥١]، وأقسـم اللـه بذاتـه العليـة وأكـدها بالمؤكـدات علـى نفـى الإيمـان حتـى يكـون المـرءُ مُحكمـاً لرسـوله ﷺ في جميـع مـوارد النـزاع، وهـذا القسـم العظـيم

[١] فتح المجيد ٣٩٣/١

[٢] الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي ٢٦٦/٥

[٣] رواه الطبري في تفسيره برقم ٩٩١١

[٤] تفسير البغوي ٦٥٧/١

والتأكيد الوثيق فيمن ترك التحكيم وأعرض عنه فكيف بمن حكَّم غير شرع الله وألزم الناس بحكمه !!!، أو من تحاكم إلى غير شرع الله اختياراً.

قال ابن حزم:" فنص تعالى نصا جليا لا يحتمل تأويلا، وأقسم تعالى بنفسه أنه لا يؤمن أحد إلا من حكم رسوله ﷺ فيما شجر بينه وبين غيره، ثم يسلم لما حكم به عليه السلام، ولا يجد في نفسه حرجا مما قضى"[٣].

وقال ابن كثير:" "يُقْسِمُ تَعَالَى بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ الْمُقَدَّسَةِ: أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ أَحَدٌ حَتَّى يُحَكِّم الرَّسُولَ ﷺ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ، فَمَا حَكَمَ بِهِ فَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي يَجِبُ الِانْقِيَادُ لَهُ بَاطِنًا وَظَاهِرًا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ أَيْ: إِذَا حَكَّمُوكَ يُطِيعُونَكَ فِي بَوَاطِنِهِمْ فَلَا يَجِدُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا حَكَمْتَ بِهِ، وَيَنْقَادُونَ لَهُ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ **فَيُسَلِّمُونَ لِذَلِكَ تَسْلِيمًا كُلِّيًّا مِنْ غَيْرِ مُمَانِعَةٍ وَلَا مُدَافِعَةٍ وَلَا مُنَازِعَةٍ، كَمَا وَرَدَ فِي** الْحَدِيثِ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ»[١].

٢- الامتناع والإعراض عن التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ هو ردٌّ لأمر الله وكفر به سواء من جهة الشك أو ترك القبول أو التولي، قال إسحق بن راهويه : «وَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ أَنَّ مَنْ سَبَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوْ سَبَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَوْ **دَفَعَ شَيْئًا أَنْزَلَهُ اللَّهُ** أَوْ قَتَلَ نَبِيًّا مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مُقِرٌّ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ أَنَّهُ كَافِرٌ ، فَكَذَلِكَ تَارِكُ الصَّلَاةِ حَتَّى يَخْرُجَ وَقْتُهَا عَامِدًا، وَلَقَدْ أَجْمَعُوا فِي الصَّلَاةِ عَلَى شَيْءٍ لَمْ يُجْمِعُوا عَلَيْهِ فِي سَائِرِ الشَّرَائِعِ »[٢].

وقال الجصاص:" وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ - ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾- دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ مَنْ رَدَّ شَيْئًا مِنْ أَوَامِرِ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ أَوَامِرِ رَسُولِهِ ﷺ فَهُوَ خَارِجٌ مِنْ الْإِسْلَامِ سَوَاءٌ رَدَّهُ مِنْ جِهَةِ الشَّكِّ فِيهِ أَوْ مِنْ جِهَةِ تَرْكِ الْقَبُولِ وَالِامْتِنَاعِ مِنْ التَّسْلِيمِ وَذَلِكَ يُوجِبُ صِحَّةَ مَا ذَهَبَ إلَيْهِ الصَّحَابَةُ فِي حُكْمِهِمْ بِارْتِدَادِ مَنْ امْتَنَعَ مِنْ أَدَاءِ الزَّكَاةِ وَقَتْلِهِمْ وَسَبْيِ ذَرَارِيِّهِمْ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَكَمَ بِأَنَّ مَنْ لَمْ يُسَلِّمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ قَضَاءَهُ وَحُكْمَهُ فَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ"[٣].

---

[١] تفسير بن كثير ٣٤٩/٢

[٢] التمهيد (٤/٢٢٦)

[٣] أحكام القرآن للجصاص ١٨١/١

٣ـ دلّت الآية على أن شرط الإيمان هو ردّ النزاع إلى شرع الله وانتفائه بالإعراض أو تحكيم شرع غيره، قال نصر بن إبراهيم المقدسي:" فجعل عز وجل في هذه الآية ـ ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ـ أن من شرط الإيمان وصحته الانقياد لحكم رسوله، ودلَّ على أن من خالفه غير منقاد للحق **وغير ثابت الإسلام**"[١].

وقال محمد ابن عبد الوهاب:" فلو اقتتلت البادية والحاضرة حتى يذهبوا، لكان أهون من أن ينصبوا في الأرض طاغوتا، يحكم بخلاف شريعة الإسلام، التي بعث الله بها رسوله ﷺ. ـ إلى أن قال ـ فلو ذهبت دنياك كلها، لما جاز لك المحاكمة إلى الطاغوت لأجلها، ولو اضطرك مضطر وخيرك بين أن تحاكم إلى الطاغوت، أو تبذل دنياك، لوجب عليك البذل، ولم يجز لك المحاكمة إلى الطاغوت."[٢].

❁ **وقال تعالى**: ﴿ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [النِّسَاء:٥٩].

<u>وجه الدلالة من الآية ما يلي:</u>

١ ـ الأمر بالردّ إلى الله ورسوله عند النزاع دلالة على أن الردّ عبادة لله لا ينبغي صرفها لغير الله، فعَنْ مجاهد فِي قوله: ﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ قَالَ:« إِلَى الله: إِلَى كتابه، وإلى رسوله: إِلَى سنة نبيه ﷺ» [٣]، وَرُوِيَ عَنِ عَطَاءٍ وَالسُّدِّيِّ وَقَتَادَةَ وَمَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ وَأَبِي سِنَانٍ مِثْلُ ذَلِكَ"[٤]، وحُكي في ذلك إجماعا كما قال الشنقيطي:" وأجمع المسلمون على أن الردّ إلى الله سبحانه هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه هو الرد إليه في حضوره وحياته، وإلى سنته في غيبته وبعد مماته"[٥].

٢ـ شرط الإيمان بالله هو الردّ إلى كتاب الله وسنة رسول الله في موارد النزاع وانتفاء الإيمان بانتفاء الرد، قال الطبري:" يعني بذلك جل ثناؤه: فإن اختلفتم، أيها المؤمنون، في شيء من أمر دينكم أنتم فيما بينكم، أو أنتم وولاة أمركم، فاشتجرتم فيه فردوه إلى

---

[١] الحجة على تارك المحجة ٢/٣٩١

[٢] الدرر السنية ١٠/٥١٠

[٣] تفسير ابن المنذر ٢/٧٦٧

[٤] رواه ابن أبي حاتم برقم ٥٥٤١

[٥] أضواء البيان ٤ /٧٩٣

الله، يعني بذلك: فارتادوا معرفة حكم ذلك الذي اشتجرتم أنتم بينكم، أو أنتم وأولو أمركم فيه من عند الله، يعني بذلك: من كتاب الله، فاتبعوا ما وجدتم وأما قوله: ﴿ وَٱلرَّسُولِ﴾فإنه يقول: فإن لم تجدوا إلى علم ذلك في كتاب الله سبيلا فارتادوا معرفة ذلك أيضًا من عند الرسول إن كان حيًا، وإن كان ميتًا فمن سنته ﴿ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ﴾، يقول: افعلوا ذلك إن كنتم تصدقون بالله واليوم الآخر، يعني: بالمعاد الذي فيه الثواب والعقاب، فإنكم إن فعلتم ما أمرتم به من ذلك. فلكم من الله الجزيل من الثواب، وإن لم تفعلوا ذلك فلكم الأليم من العقاب"[1].

وقال ابن كثير:" أَيْ: ردوا الخصومات والجهالات إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، فَتَحَاكَمُوا إِلَيْهِمَا فِيمَا شَجَرَ بَيْنَكُمْ ﴿ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ﴾**فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مَنْ لَمْ يَتَحَاكَمْ فِي مَجَالِ النِّزَاعِ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَلَا يَرْجِعْ إِلَيْهِمَا فِي ذَلِكَ، فَلَيْسَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ**"[2].

وقال ابن القيم:" إن قوله:﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ﴾، نكرة في سياق الشرط تعم كل ما تنازع فيه المؤمنون من مسائل الدين، دقه وجله، جليه وخفيه، **ولو لم يكن في كتاب الله ورسوله وبيان حكم ما تنازعوا فيه، ولم يكن كافيا لم يأمر بالرد إليه، إذ من الممتنع أن يأمر تعالى بالرد عند النزاع إلى من لا يوجد عنده فصل النزاع. ومنها أن جعل هذا الرد من موجبات الإيمان ولوازمه، فإذا انتفى هذا الرد انتفى الإيمان، ضرورة انتفاء الملزوم لانتفاء لازمه**، ولا سيما التلازم بين هذين الأمرين فإنه من الطرفين، وكل منهما ينتفي بانتفاء الآخر، ثم أخبرهم أن هذا الرد خير لهم، وأن عاقبته أحسن عاقبة"[3].

❁ **وقوله تعالى**: ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾[الشورى:١٠]. قال ابن عمرو في حديثه: فهو يحكم فيه، وقال الحارث: فالله يحكم فيه"[4].

<u>وجه الدلالة من الآية ما يلي:</u>

---

[1] تفسير الطبري ٥٠٤/٨

[2] تفسير بن كثير ٣٤٦/٢

[3] أعلام الموقعين ٤٩/١ - ٥٠.

[4] تفسير الطبري ٥٠٦/٢١

١ـ الأمر بتحكيم كتاب الله في موارد النزاع يدل على أن التحاكم عبادة، إذ كل ما أمر الله به امتثاله لله عبادة وصرفه لغيره شرك في العبادة، وجاء الأمر في سياق الإفراد: ﴿ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ أي إفراد الله بالحكم عند الخلاف، قال الطبري:" قوله: يقول تعالى ذكره: ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾وما اختلفتم أيها الناس فيه من شيء فتنازعتم بينكم، فحكمه إلى الله. يقول: فإن الله هو الذي يقضي بينكم ويفصل فيه الحكم"[١].

وقال ابن كثير:" أَيْ: مَهْمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنَ الْأُمُورِ **وَهَذَا عَامٌّ فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ**،﴿ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ أَيْ: هُوَ الْحَاكِمُ فِيهِ بِكِتَابِهِ، وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ، كَقَوْلِهِ: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النِّسَاء:٥٩]"[٢].

" وَقَالَ مُقَاتِلٌ: إِنَّ أَهْلَ مَكَّةَ كَفَرَ بَعْضُهُمْ بِالْقُرْآنِ، وَآمَنَ بِهِ بَعْضُهُمْ فَنَزَلَتْ، وَالِاعْتِبَارُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ. وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: مَعْنَى حُكْمِهِ إِلَى اللَّهِ: أَنَّهُ مَرْدُودٌ إِلَى كِتَابِهِ، فَإِنَّهُ قَدِ اشْتَمَلَ عَلَى الْحُكْمِ بَيْنَ عِبَادِهِ فِيمَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ **فَتَكُونُ الْآيَةُ عَامَّةً فِي كُلِّ اخْتِلَافٍ يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ الدِّينِ أَنَّهُ يُرَدُّ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ**، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾"[٣]

وقال الشنقيطي:" وَقَدْ عَجِبَ نَبِيُّهُ ﷺ بَعْدَ قَوْلِهِ: فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ مِنَ الَّذِينَ يَدَّعُونَ الْإِيمَانَ مَعَ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ الْمُحَاكَمَةَ إِلَى مَنْ لَمْ يَتَّصِفْ بِصِفَاتِ مَنْ لَهُ الْحُكْمُ، الْمُعَبَّرِ عَنْهُ فِي الْآيَةِ بِالطَّاغُوتِ، **وَكُلُّ تَحَاكُمٍ إِلَى غَيْرِ شَرْعِ اللَّهِ فَهُوَ تَحَاكُمٌ إِلَى الطَّاغُوتِ**، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ **فَالْكُفْرُ بِالطَّاغُوتِ الَّذِي صَرَّحَ اللَّهُ بِأَنَّهُ أَمَرَهُمْ بِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ - شَرْطٌ فِي الْإِيمَانِ كَمَا بَيَّنَهُ - تَعَالَى - فِي قَوْلِهِ**: فَمَن﴿ يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة ٢٥٦]، فَيُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّ مَنْ لَمْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ لَمْ يَتَمَسَّكْ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى، وَمَنْ لَمْ يَسْتَمْسِكْ بِهَا فَهُوَ مُتَرَدٍّ مَعَ الْهَالِكِينَ.

[١] تفسير الطبري ٥٠٦/٢١

[٢] تفسير بن كثير ١٩٣/٧

[٣] فتح القدير ٦٠٤/٤

وَمِـنَ الْآيَـاتِ الدَّالَّـةِ عَلَـى ذَلِـكَ قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴾[الكهف٢٦]، فَهَـلْ فِـي الْكَفَـرَةِ الْفَجَـرَةِ الْمُشَـرِّعِينَ مَـنْ يَسْـتَحِقُّ أَنْ يُوصَـفَ بِـأَنَّ لَـهُ غَيْـبُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ وَأَنْ يُبَـالَغَ فِي سَـمْعِهِ وَبَصَـرِهِ لِإِحَاطَـةِ سَـمْعِهِ بِكُـلِّ الْمَسْـمُوعَاتِ وَبَصَـرِهِ بِكُـلِّ الْمُبْصَـرَاتِ؟ وَأَنَّـهُ لَـيْسَ لِأَحَـدٍ دُونَـهُ مِنْ وَلِيٍّ؟ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا"[١].

٢ـ وفي قولـه تعـالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي ﴾ دلالـة علـى أن اختصـاص اللـه بـالحكم هـو مـن ربوبيتـه على خلقـه، والشـرك في الحكـم هـو شـرك في الربوبيـة، قـال البغـوي:" ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ﴾، الَّـذِي يَحْكُـمُ بَـيْنَ الْمُخْتَلِفِـينَ هُـوَ رَبِّـي عَلَيْـهِ تَوَكَّلْـتُ وَإِلَيْـهِ أُنِيـبُ"[٢]، وقـال ابـن كثيـر:" ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي ﴾، أَيِ: الْحَـاكِمُ فِـي كُـلِّ شَـيْءٍ، ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾أَيْ: أَرْجِـعُ فِـي جَمِيعِ الأمور"[٣].

فمـن تحـاكم إلى الطواغيـت الحـاكمين بغير مـا أنـزل اللـه فقـد كفـر باللـه عـز وجـل سـواءً كـان ذلـك في صـغار الأمـور أو كبيرهـا ولـو كـان في عـود أراك، سـواءً سـموه صُـلحا أو عُرفـاً أو كـان في جـدٍ أو لعـب[٤]، فمـن تحـاكم إلـيهم فقـد صـرف الحكـم ورد النـزاع لغير اللـه تعـالى وهو مشرك كافر بالله تعالى كمن صرف الدعاء لغير الله تعالى.



[١] أضواء البيان ٥٠/٧

[٢] تفسير البغوي ١٤٠/٤

[٣] تفسير ابن كثير ١٩٣/٧

[٤] انظر كتاب أضواء أثرية على نوازل الحاكمية لصاحب الكتاب

الفَصْلُ الثَّانِي

الانقياد للّه بالطاعة والاتباع وما يقابله من شرك الطاعة

اعلم هداك الله لما يحبه ويرضاه أنَّ الإسلام قول وعمل ونية لا يجزئ أحدهما عن الآخر، فلا يصح القول إلا بالنية ولا قول ونية إلا بعمل، قال الشافعي رحمه الله تعالى: «وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم وممن أدركناهم يقولون إن الإيمان قول وعمل ونية لا يجزئ واحد من الثلاثة إلا بالآخر»[1]، وقال الحُميدي رحمه الله تعالى:« أُخْبِرْتُ أَنَّ قوماً يقولون: إنَّ من أقرَّ بالصَّلاة، والزَّكاة، والصَّوم، والحجِّ، ولم يفعل من ذلك شيئاً حتى يموتَ أو يصلِّي مسندٌ ظهرَه مستدبر القبلة حتى يموت فهو مؤمنٌ ما لم يكن جاحداً إذا علم أنَّ تركه ذلك في إيمانه إذا كان يقرُّ الفروض واستقبال القبلة، فقلت: هذا الكفر بالله الصُّراح وخلاف كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ وفعل المسلمين. قال حنبل: قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل: من قال هذا فقد كفر بالله، وردَّ على الله أمرَه وعلى الرَّسول ما جاء به»[2].

والانقياد لله عزوجل يكون بقَبُولِ شَرعِهِ وطاعة أمره والعمل بدينه، قال تعالى:﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[المائدة ٩٢]، وقال تعالى:﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾[الأحزاب ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [الزمر ٥٤]، وقوله:"﴿ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ ﴾يقول: **واخضعوا له بالطاعة والإقرار بالدين الحنيفي** ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ من عنده على كفركم به"[3]، وقال الطبري:" والذي أراد ابن

[1] انظر جامع العلوم والحكم (١ / ٥٧) والإيمان لابن تيمية ص ٢٨٠

[2] انظر "السنة" للخلال ٥٨٦/٣ و "أصول الاعتقاد" للالكائي ٨٨٧/٥.

[3] تفسير الطبري ٣١٢/٢١

عباس -إن شاء الله- بقوله في تأويل قوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ وحّدوه، **أي أفردُوا الطاعة والعبادة لربكم دون سائر خلقه**"[١].

وأمر الله بطاعته ﷻ وأذن في طاعة رسوله ﷺ وعلّق عليهما الهداية كما في قوله:﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [النور ٥٤]، وقال تعالى:﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء ٦٤]، قال البغوي: قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ ، أَيْ: **بِأَمْرِ اللَّهِ لِأَنَّ طَاعَةَ الرَّسُولِ وَجَبَتْ بِأَمْرِ اللَّهِ**، قَالَ الزجاج: ﴿ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ فِيهِ وَأَمَرَ بِهِ"[٢]، وعن أَبُو الْعَبَّاسِ الْفَضْلُ بْنُ زِيَادٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ حَنْبَلٍ يَقُولُ:« نَظَرْتُ فِي الْمُصْحَفِ فَوَجَدْتُ فِيهِ طَاعَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي ثَلَاثَةٍ وَثَلَاثِينَ مَوْضِعًا»[٣].

وأذِن الله في طاعة أولياء الأمور في آية واحدة في كتاب الله، وجاءت مقيدة بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، وضمن وصف معين لأولياء أمور المسلمين، قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء٥٩]، وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي»[٤]، وقَالَ عَلِيُّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه: «حَقٌّ عَلَى الْإِمَامِ أَنْ يَحْكُمَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَيُؤَدِّيَ الْأَمَانَةَ فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ فَحَقٌّ عَلَى الرَّعِيَّةِ أَنْ يَسْمَعُوا وَيُطِيعُوا»[٥]، فطاعة أولياء

---

[١] تفسير الطبري ٣٦٣/١

[٢] الابانة الكبرى ٢٦٠/١

[٣] الابانة الكبرى ٢٦٠/١

[٤] رواه البخاري برقم ٧١٣٧ و أخرجه مسلم في الإمارة باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية. . رقم ١٨٣٥

[٥] تفسير البغوي ٦٥٩/١

الأمور ومن له سلطان شرعي هي من طاعة الله ورسوله ﷺ، ومن ذلك ما روي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «طَاعَةُ اللَّهِ طَاعَةُ الْوَالِدِ، وَمَعْصِيَةُ اللَّهِ مَعْصِيَةُ الْوَالِدِ»[1].

المطلب الأول: الطاعة حقٌ خالص لله

إنَّ الطاعة[2] حقٌ خالصٌ لله ﷻ ويدل على ذلك:

❁ قوله تعالى:﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ ﴾ [الزمر ٣] ، قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: "ألا لله **العبادة والطاعة** وحده لا شريك له، خالصة لا شرك لأحد معه فيها، فلا ينبغي ذلك لأحد، لأن كل ما دونه ملكه، وعلى المملوك طاعة مالكه لا من لا يملك منه شيئا"[3].

❁ وقال تعالى:﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف ٥٥] . قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: «الْخَلْقُ خَلْقُ اللَّهِ وَالأَمْرُ أَمْرُهُ» [4].

❁ وقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾[آل عمران١٥٤] وقال تعالى: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴾ [آل عمران١٣٨] قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ ﴾ أَيْ:« لَيْسَ لَكَ مِنَ الْحُكْمِ شَيْءٌ فِي عِبَادِي إلا مَا أَمَرْتُكَ بِهِ فِيهِمْ»[5].

---

[1] رواه الطبراني في الأوسط برقم ٢٢٥٥

[2] والطاعة هي: امتثال الأوامر واجتناب النواهي على جهة الاختيار، ولا تكون الطاعة إلا عن أمر كما أن الجواب لا يكون إلا عن قول، قال أبو العباس: **وَلَا تَكُونُ الطَّاعَةُ إلَّا عَنْ أَمْرٍ كَمَا أَنَّ الْجَوَابَ لَا يَكُونُ إلَّا عَنْ قَوْلٍ** يُقَالُ أَمَرَهُ فَأَطَاعَ وَقَالَ ابْنُ فَارِسٍ إذَا مَضَى لِأَمْرِهِ فَقَدْ أَطَاعَهُ إطَاعَةً وَإِذَا وَافَقَهُ فَقَدْ طَاوَعَهُ" المصباح المنير في غريب الشرح الكبير٢/٣٨٠

وقال ابن عطية:" والطاعة هي موافقة الأمر الجاري عند المأمور مع مراد الأمر" المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ١/٥٠٧

وقال الجرجاني: "الطاعة: هي موافقة الأمر طوعًا: التعريفات ١/١٤

وعَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ قَوْلُ اللَّهِ: ﴿وَأَطَعۡنَا ﴾قَالَ أَقَرُّوا لِلَّهِ أَنْ يُطِيعُوهُ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ " تفسير ابن أبي حاتم برقم ١٤٧٣٣

وقال العز بن عبد السلام:" **وَتَفَرَّدَ الْإِلَهُ بِالطَّاعَةِ لِاخْتِصَاصِهِ بِنِعَمِ الْإِنْشَاءِ وَالْإِبْقَاءِ وَالتَّغْذِيَةِ وَالْإِصْلَاحِ الدِّينِيِّ وَالدُّنْيَوِيِّ**، فَمَا مِنْ خَيْرٍ إلَّا هُوَ جَالِبُهُ، وَمَا مِنْ ضَيْرٍ إلَّا هُوَ سَالِبُهُ" قواعد الأحكام ٢/١٥٨

[3] تفسير الطبري ٢١/٢٥٠

[4] رواه ابن أبي حاتم برقم ٨٥٨٥

[5] رواه الطبري في تفسيره برقم ٤١٢٧

والله سبحانه وتعالى ما خلق الخلق إلا لعبادته وطاعته كما قال تعالى:﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[الذاريات ٥٦]، قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه: «إِلَّا لِيَعْبُدُونِ. أَيْ: إِلَّا لِآمُرَهُمْ أَنْ يَعْبُدُونِي وَأَدْعُوَهُمْ إِلَى عِبَادَتِي»، يُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ ﴾"[١]، وَعَنْ مُجَاهِدٍ وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾بِمَعْنَى: «إِلَّا لِآمُرَهُمْ وَأَنْهَاهُمْ»[٢]، وقال عكرمة: «إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ويطيعون. فأثيب العابد وأعاقب الجاحد»[٣].

ونهى الله عزَّ وجل عن طاعة الطواغيت والمشركين في آيات كثيرة:

❁ قال تعالى:﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٥٠ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الشعراء١٥١]، عَنْ قَتَادَةَ ﴿أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ أَيْ الْمُشْرِكِينَ»[٤].

❁ وقال تعالى: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [الزخرف٥٤] ، "أَيِ: اسْتَخَفَّ عُقُولَهُمْ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الضَّلَالَةِ فَاسْتَجَابُوا لَهُ"[٥].

❁وقال تعالى:﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾[الاحزاب٦٧]، قال قتادة أي: «رؤوسنا في الشر والشرك»[٦]، وقال الطبري:" وقال الكافرون يوم القيامة في جهنم: ربنا إنا أطعنا أئمتنا في الضلالة وكبراءنا في الشرك ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ يقول: فأزالونا عن محجة الحق وطريق الهدى والإيمان بك والإقرار بوحدانيتك **وإخلاص طاعتك في الدنيا**"[٧].

---

[١] تفسير البغوي ٢٨٨/٤

[٢] التحرير والتنوير ٢٧/٢٧

[٣] الكشف والبيان عن تفسير القرآن ١٢٠/٩

[٤] رواه ابن أبي حاتم برقم ١٥٨٦٣

[٥] تفسير ابن كثير ٢٣٢/٧

[٦] رواه الطبري ٣٣١/٢٠

[٧] نفس المرجع

❁وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[الكهف ٢٨] فعن السدي، عن أبي سعيد الأزدي، عن أبي الكنود، عن خباب ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ **قال:« عُيينة، والأقرع»**[١]،

❁وقال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران ١٥٠]، فدلت الآية أن الطاعة من الولاء فمن أطاع الطواغيت المشرعين في معصية الله أو في إسقاط الواجب أو في تغيير أحكام الوضع فقد اتخذهم أولياء من دون الله كما في قوله: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ وكما قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء ١٤٤]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾[النساء ١١٩] قال الواحدي:" **يريد من يُطعه فيما يدعو إليه من الضلال، فكل من أطاعه فهو ولي له** وإن لم يقصد أن يتولاه، كما يكون مطيعًا له وإن لم يقصد أن يطيعه، بموافقته لإرادته وإجابته إلى ما دعاه إليه، فهو يعمل عملًا يُعينه عليه الشيطان، وكان الشيطان له وليًا ناصرًا معينًا"[٢]، وقال ابن المنذِر: "أجمع كلُّ مَن يُحفَظ عنه مِن أهل العلم أنَّ الكافر لا ولاية له على المسلم بِحال"[٣]، وفيه دلالة على التلازم بين الطاعة والولاية، فمن أثبت للطاغوت حق الأمر وأوجب له الطاعة أو أذن بها، فقد جعل من الطاغوت ولي أمره وأقر بسلطانه عليه ودخل في دينه.

المطلب الثاني: النصوص الواردة في بيان حد شرك الطاعة

إنَّ الانقياد لله عز وجل بالطاعة ينافيه الانقياد للطواغيت المشرعين: بتحليل الحرام أو تحريم الحلال أو تغيير أحكام الوضع أو إسقاط الواجب مما هو من حكم الشركاء المبدلين، وطاعتهم في ذلك هو الشرك بالله تعالى في الطاعة[٤] ويدل عليه آيات كثيرة:

---

[١] تفسير الطبري ٨/١٨

[٢] التفسير البسيط للواحدي ١٠٥/٧

[٣] نقله عنه ابن القيم في "أحكام أهل الذِّمَّة" (٢/ ٧٨٧)

[٤] ومن يستمسك بكلام الرجال في هذا الباب العظيم ويترك المحكم من التنزيل، فيعتقد أن طاعة المشرعين في المعصية معصية!!، ويستشهد بكلام المتأخرين فنرد عليه من نفس كلامهم كما في قول ابن تيمية:" والطغيان: مجاوزة الحد؛ وهو الظلم والبغي. فالمعبود من دون الله إذا لم يكن كارهًا لذلك: طاغوت، ولهذا سمى النبي ﷺ الأصنام طواغيت في الحديث الصحيح لمّا قال: ﴿ويتبع من يعبد الطواغيت الطواغيت﴾، **والمطاع في معصية الله**

❁ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام ١٣١]، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَوْلَهُ:« ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ قَالَ: الْفِسْقُ الْمَعْصِيَةُ»[1]، وعنه: «وإن أطعتموهم في أكل ما نهيتكم عنه، إنكم إذًا لمشركون»[2]، وَقَالَ السُّدِّي فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: «إِنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا لِلْمُؤْمِنِينَ: كَيْفَ تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ تَتَّبِعُونَ مَرْضَاةَ اللَّهِ، وَمَا ذَبَحَ اللَّهُ فَلَا تَأْكُلُونَهُ، وَمَا ذَبَحْتُمْ أَنْتُمْ أَكَلْتُمُوهُ؟ فَقَالَ اللَّهُ: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ **فَأَكَلْتُمُ الْمَيْتَةَ** ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾، وَهَكَذَا قَالَهُ مُجَاهِدٌ، وَالضَّحَّاكُ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾، "أَيْ: حَيْثُ عَدَلْتُمْ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ لَكُمْ وَشَرْعِهِ إِلَى قَوْلِ غَيْرِهِ، فَقَدَّمْتُمْ عَلَيْهِ غَيْرَهُ فَهَذَا هُوَ الشِّرْكُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[التوبة٣١]"[3].

<u>ووجه الدلالة</u>: أن طاعة المشرعين في أكل الميتة يصير به المسلم مشركاً بطاعتهم في أكلها، وإن كان أكل الميتة في ذاته معصية، أما طاعة الطواغيت المشرعين في أكلها وامتثال أمرهم ومتابعتهم على التحليل فهو شرك بالله تعالى.

❁ وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الانعام

والمطاع في اتباع غير الهدى ودين الحق - سواء كان مقبولا خبره المخالف لكتاب الله أو مطاعا أمره المخالف لأمر الله - هو طاغوت؛ ولهذا سمي من تحوكم إليه من حاكم بغير كتاب الله طاغوت" مجموع الفتاوى ٢٩١/٢٨، فكيف يكون المطاع طاغوتا والعبد الطائع مسلماً!!!، وقولهم أن طاعة المشرعين في المعصية هي معصية هي عقيدة الأشاعرة التي تأثر بها الكثير من المتأخرين، وهي تجري على أصولهم في باب الإيمان، قال ابن العربي الأشعري: "إنما يكون المؤمن بطاعة المشرك مشركاً: **إذا أطاعه في الاعتقاد** فإن أطاعه في الفعل وعقده سليم مستمر على التوحيد والتصديق فهو عاص فافهموه."، فما هو الفرق بينهم وبين الأشاعرة في هذا الباب العظيم الذي هو من لب وأصل مسألة الإيمان؟

[1] رواه ابن أبي حاتم برقم ٧٨٣٨

[2] رواه الطبري في تفسيره برقم ١٣٨١٥

[3] تفسير بن كثير ٣٢٩/٣

١٣٧]، عـــن مُجَاهِـــدٍ : ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ﴾ قَالَ: «شَيَاطِينُهُمْ يَأْمُرُونَهُمْ أَنْ يَئِدُوا أَوْلادَهُمْ خِيفَةَ الْعَيْلَةِ»[١].

وقال البغوي:" سُمِّيَتِ الشَّيَاطِينُ شُرَكَاءَ لِأَنَّهُمْ أَطَاعُوهُمْ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَأُضِيفَ الشُّرَكَاءُ إِلَيْهِمْ لِأَنَّهُمُ اتَّخَذُوهَا، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: شركاؤهم سدنة آلهتهم هم الَّذِينَ كَانُوا يُزَيِّنُونَ لِلْكُفَّارِ قَتَلَ الأولاد، وكان الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَحْلِفُ لَئِنْ وُلِدَ له كذا غلاما لَيَنْحَرَنَّ أَحَدُهُمْ كَمَا حَلَفَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ عَلَى ابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ .إلى أن قال .وقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ل﴿لِيُرْدُوهُم﴾، لِيُهْلِكُوهُمْ، ﴿وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ﴾، لِيَخْلِطُوا عَلَيْهِمْ، دِينَهُمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِيُدْخِلُوا عَلَيْهِمُ الشَّكَّ فِي دِينِهِمْ، وَكَانُوا عَلَى دِينِ إِسْمَاعِيلَ فرجعوا عنه بلبس الشياطين"[٢].

❁ وقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[التوبة٣١]،وورد في تفسيرها جملة من الآثار:

❁ عن حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، قال:« لم يعبدوهم، ولكنهم أطاعوهم في المعاصي»[٣].

❁ وعن السدي: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، قال عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:« لم يأمروهم أن يسجدوا لهم، ولكن أمروهم بمعصية الله فأطاعوهم، فسمَّاهم الله بذلك أربابًا»[٤].

[١] رواه ابن ابي حاتم برقم ٧٩١٩

[٢] تفسير البغوي ١٦٢/٢

[٣] رواه الطبري في تفسيره برقم ١٦٦٤٣

[٤] رواه الطبري برقم ١٦٦٤١

❁ وعن أبي البختري: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال: «انطلقوا إلى حلال الله فجعلوه حرامًا، وانطلقوا إلى حرام الله فجعلوه حلالا فأطاعوهم في ذلك، فجعل الله طاعتهم عبادتهم، ولو قالوا لهم: "اعبدونا"، لم يفعلوا»[1].

---

[1] رواه الطبري برقم ١٦٦٣٨

لفظ الاستحلال والتحريم: يُطلق في استعمال الشارع بمعنى الاعتقاد وهو الأصل في الاستعمال الشرعي له، ويطلق ويراد به الاستحلال العملي كما دل على ذلك الكتاب والسنة:

❁ قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾[التوبة٢٩]، قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره للمؤمنين به من أصحاب رسوله ﷺ﴿قَٰتِلُواْ﴾، أيها المؤمنون، القومَ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، يقول: ولا يصدّقون بجنة ولا نار ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾، يقول: **ولا يطيعون الله طاعة الحقّ، يعني: أنهم لا يطيعون طاعة أهل الإسلام**" تفسير الطبري ١٩٨/١٤

وقال أبو حفص سراج الدين الحنبلي قوله: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي: لا يُحرّمون ما حرَّم الله في القرآن، وبينه الرسول، وقال أبو زيد: **لا يعملون بما في التوراة والإنجيل**، بل حرفوهما وأتوا بأحكام كثيرة من قبل أنفسهم، وقوله ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾أي: لا يدينون الدِّين الحق، أضاف الاسم إلى الصِّفةِ وقال قتادة: «الحَقّ» هو الله - عزَّ وجلَّ -؛ أي: لا يدينون دين الله، ودينه الإسلام. قال أبو عبيدة: معناه: لا يطيعون الله طاعة أهل الحقّ.". اللباب في علوم الكتاب ٦٤/١٠

❁ ولفظ التحريم قد يأتي ويراد به العمل كترك العمل لنذر أو يمين أو رهبانية وتَديُّن كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾[المائدة٨٧]، عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ قَالَ: «نَزَلَتْ فِي أُنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَرَادُوا أَنْ يَتَخَلَّوْا مِنَ الدُّنْيَا وَيَتْرُكُوا النِّسَاءَ، مِنْهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَعُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ» رواه عبد الرزاق برقم ٧١٨ ، فقوله تعالى ﴿لَا تُحَرِّمُواْ﴾ ليس المقصود منه التحريم العقدي وهو اعتقاد أن هذا العمل حرام في دين الله، فهذا غير وارد ولا يقع من هؤلاء السابقين الأولين بل المراد هو الترك والتخلي الذي هو العمل، لأن الترك عمل كما في قوله تعالى:﴿لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾[المائدة٦٣] ، فترك النهي عن المنكر من الأحبار والربانيين سماه الله عملاً بقوله:﴿ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾.

❁ ومن السنة حديث الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: مَرَّ بِي عَمِّي الْحَارِثُ بْنُ عَمْرٍو وَمَعَهُ لِوَاءٌ قَدْ عَقَدَهُ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَقُلْتُ لَهُ: أَيْ عَمِّ، أَيْنَ بَعَثَكَ النَّبِيُّ ﷺ؟ قَالَ: " بَعَثَنِي إِلَى رَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةَ أَبِيهِ، فَأَمَرَنِي أَنْ أَضْرِبَ عُنُقَهُ "رواه أحمد برقم ١٨٥٧٩وأخرجه سعيد بن منصور (٩٤٢) ، وابن ماجه (٢٦٠٧) ، وأبو يعلى (١٦٦٦) ، والطبراني في "الكبير" (٣٤٠٥). قال الطحاوي:" وَهُوَ أَنَّ ذَلِكَ الْمُتَزَوِّجَ فَعَلَ مَا فَعَلَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى الِاسْتِحْلَالِ كَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَصَارَ بِذَلِكَ مُرْتَدًّا، فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُفْعَلَ بِهِ مَا يُفْعَلُ بِالْمُرْتَدِّ" شرح معاني الآثار ١٤٩/٣

وقد يطلق التحليل والتحريم في اصطلاح العلماء ويراد به العمل فلفظ أحلوه أو حرموه ليس معناه الاعتقاد في كل إطلاقاته بمعنى العلم بصحة شيء والإخبار عنه، بل قد يراد به العمل بمقتضى تحريمهم وتحليلهم من الحكم به والطاعة له والتحاكم إليه ... الخ، ومن تلك الاطلاقات:

❁ وعن الحسن: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، قال: في الطاعة»[1].

❁ وعن الربيع بن أنس، عن أبي العالية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، قال: قلت لأبي العالية: كيف كانت **الرُّبوبية** التي كانت في بني إسرائيل؟ قال: «ما أمرونا به ائتمرنا، وما نهونا عنه انتهينا لقولهم، وهم يجدون في كتاب الله ما أمروا به وما نهوا عنه، فاستنصحوا الرجالَ، ونبذُوا كتاب الله وراء ظهورهم»[2].

❁ بوب ابن حبان في صحيحه: ذِكْرُ الْإِخْبَارِ عَمَّا يَجِبُ عَلَى الْمَرْءِ مِنْ **اسْتِحْلَالِ النُّصْرَةِ** عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ الْكَفَرَةِ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ وروى بسنده عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ فَعَرَفْتُ فِي وَجْهِهِ أَنْ قَدْ حَضَرَهُ شَيْءٌ فَتَوَضَّأَ وَمَا كَلَّمَ أَحَدًا ثُمَّ خَرَجَ فَلَصِقْتُ بِالْحُجْرَةِ أَسْمَعُ مَا يَقُولُ فَقَعَدَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لَكُمْ مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ قَبْلَ أَنْ تَدْعُونِي فَلَا أُجِيبُكُمْ وَتَسْأَلُونِي فَلَا أُعْطِيكُمْ وَتَسْتَنْصِرُونِي فَلَا أنصركم﴾ رواه ابن حبان برقم ٢٩٠، فأطلق على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو عمل استحلالاً للنصرة.

❁عَنْ فُضَيْلِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: " كَانَ إِبْرَاهِيمُ وَأَصْحَابُنَا **يَسْتَحِلُّونَ** الْكَلَامَ فِي الْجُمُعَةِ وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُصَلُّونَ الظُّهْرَ قَبْلَ أَنْ يَأْتُوهُمْ قَالَ الْمُغِيرَةُ: وَكَانَ أَبُو وَائِلٍ يُصَلِّي الْأُولَى وَالْعَصْرَ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ الْجُمُعَةَ فِي إِمَارَةِ الْحَجَّاجِ لِأَنَّهُ كَانَ يُؤَخِّرُهَا " رواه المروزي برقم ١٠٥٧ فأُطلق على كلامهم في الجمعة الذي هو عمل استحلالاً.

وليس الاستحلال والتحريم الوارد في بعض الآثار في هذا الباب من الاستحلال العقدي بل هو من الاستحلال العملي، كمثل ما رواه ابن أبي حاتم برقم ٧٨٤٩ قال حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَةَ ثنا يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ حَدَّثَنِي ابْنُ لَهِيعَةَ حَدَّثَنِي عَطَاءٌ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَوْلَهُ: وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ يَعْنِي اسْتِحْلالا فِي أَكْلِ الْمَيْتَةِ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ مِثْلَهُمْ"، **والأثر ضعيف فيه ابن لهيعة** ولا يثبت في هذه الآية ـــ آية الانعام ـــ لفظ الاستحلال كما وردفي روايات تفسير آية التوبة، ومن ذلك ما رواه الطبري برقم ١٦٦٣٨ – قال حدثني الحسن بن يحيى قال، أخبرنا عبد الرزاق قال، أخبرنا الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن أبي البختري قال: سأل رجل حذيفة فقال: يا أبا عبد الله، أرأيت قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أكانوا يعبدونهم؟ قال: لا كانوا إذا أحلُّوا لهم شيئًا استحلُّوه، وإذا حرَّموا عليهم شيئًا حرَّموه» وهي ظاهرة في الاستحلال العملي، وحتى وإن حملناه على الاستحلال العقدي فليس في هذا الأثر تقييد للآية أو تخصيص لإطلاقها بل هو من باب ذكر بعض أفراد الشيء، أي التفسير بذكر بعض أفراد العام، حيث أن حذيفة ذكر بعض الصور التي تكون فيها الطاعة كفراً وهي المتابعة على الاعتقاد، وليس هو حصرٌ للطاعة في الاعتقاد، كما أنه نُقل عنه ذكر مناط مطلق المتابعة فلتنتبه، فإن اللفظ الوارد في السنة هو الاتباع ومعناه الدخول في العمل كما في الحديث:﴿ فَقَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة ٣١]، قَالَ: فَقُلْتُ: إِنَّهُمْ لَمْ يَعْبُدُوهُمْ. فَقَالَ: « بلَى، إِنَّهُمْ حَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلَالَ، وَأَحَلُّوا لَهُمُ الْحَرَامَ، **فَاتَّبَعُوهُمْ**، فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ»" سنن الترمذي برقم،٣٠٩٥ ، وتفسير الطبري ٢٠٩/١٤ ، وَهَكَذَا قَالَ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، وَغَيْرُهُمَا فِي تَفْسِيرِ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ **إِنَّهُمُ اتَّبَعُوهُمْ** فِيمَا حَلَّلُوا وَحَرَّمُوا»". تفسير بن كثير ١٣٥/٣.

فمن أحلَّ وحرَّم هم الطواغيت والأرباب ـــ الأحبار والرهبان ـــ أما جملة النصارى فكفرهم هنا من جهة الاتّباع والعمل بهذا التشريع، ومن اشترط الاعتقاد أي اعتقاد حل الحرام أو حرمة الحلال للتابع **وقيد الآية والحديث به** فقد استدرك على الشرع وليس في النصوص الواردة في شرك الطاعة ما فيه دلالة على حصرها في الاستحلال العقدي.

[1] رواه الطبري برقم ١٦٦٣٩

[2] رواه الطبري في تفسيره برقم ١٦٦٤٢

ويقـول النسـفي فـي تفسـير قولـه تعـالى ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا﴾: آلهـة ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله، كما يطاع الأرباب في أوامرهم ونواهيهم"[١].

وقال ابن حزم :" فَلَمَّا كَانَ الْيَهُود وَالنَّصَارَى يحرمُونَ مَا حرم أَحْبَارهم وَرُهْبَانهمْ وَيحلونَ مَا أحلُّوا **كَانَت هَذِه ربوبية صَحِيحَة وَعبادَة صَحِيحَة** قد دانوا بهَا وسمى الله تَعَالَى هَذَا الْعَمَل اتِّخَاذ أَرْبَابًا من دون الله وَعبادَة **وَهَذَا هُوَ الشّرك بِلَا خلاف**"[٢].

وقال عبد الرحمن بن حسن:"فظهر بهذا أن الآية[٣] دلت على أن من أطاع غير الله ورسوله، وأعرض عن الأخذ بالكتاب والسنة في تحليل ما حرم الله، أو تحريم ما أحله الله، وأطاعه في معصية الله، واتبعه فيما لم يأذن به الله، **فقد اتخذه ربا ومعبودا وجعله لله شريكا، وذلك ينافي التوحيد الذي هو دين الله** الذي دلت عليه كلمة الإخلاص "لا إله إلا الله"، فإن الإله هو المعبود، وقد سمى الله تعالى طاعتهم عبادة لهم، وسماهم أربابا، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ﴾[آل عمران:٨٠] أي شركاء لله تعالى في العبادة ﴿أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[آل عمران:٨٠] وهذا هو الشرك. فكل معبود رب، وكل مطاع ومتبع على غير ما شرعه الله ورسوله فقد اتخذه المطيع المتبع ربا ومعبودا، كما قال تعالى في آية الأنعام: ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾، وهذا هو وجه مطابقة الآية للترجمة[٤]، ويشبه هذه الآية في المعنى قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾[الشورى ٢١] والله أعلم"[٥].

❁ **وقوله تعالى**: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾[آل عمران:٦٤]، قال ابن جريج: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾، يقول:« لا يطع بعضنا بعضًا في

[١] مدارك التنزيل وحقائق التأويل ٦٧٦/١
[٢] الفصل في الملل ١٣٥/٣
[٣] قوله تعالى:﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾
[٤] باب: " من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله، فقد اتخذهم أربابا من دون الله"
[٥] فتح المجيد في شرح كتاب التوحيد ١٠٥/١

معصية الله. ويقال إنّ تلك الرُّبوبية: أن يطيعَ الناس سادَتهم وقادتهم في غير عبادة، وإن لم يصلُّوا لهم»[1].

وقال الطبري وقوله ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ : يقول: ولا يدين بعضُنا لبعض بالطاعة فيما أمر به من معاصي الله، ويعظِّمه بالسجود له كما يسجدُ لربه"[2].

❁ وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة ١٦٥]، قال السدي:« الأنداد من الرجال، يطيعونهم كما يطيعون الله، إذا أمروهم أطاعوهم وعَصَوا الله»[3].

❁ وقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة٢٢]، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعن مُرَّة عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾قال:« أكفَّاءً من الرجال تطيعونهم في معصية الله»[4]، وقال الطبري: فنهاهم الله تعالى أن يُشركوا به شيئًا، وأن يعبدوا غيرَه، **أو يتخذوا له نِدًّا وَعِدلا في الطاعة**، فقال: كما لا شريك لي في خلقكم، وفي رزقكم الذي أرزقكم وملكي إياكم، ونعمي التي أنعمتها عليكم فكذلك **فأفردوا ليَ الطاعة، وأخلصُوا ليَ العبادة**، ولا تجعلوا لي شريكًا ونِدًّا من خلقي، فإنكم تعلمون أن كلّ نعمةٍ عليكم فمنّي"[5].

❁ وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً ﴾ [الزمر ٨]، قال السديّ:« الأنداد من الرجال: يطيعونهم في معاصي الله»[6].

---

[1] رواه الطبري في تفسيره برقم ٧٢٠٠

[2] تفسير الطبري ٤٨٣/٦

[3] تفسير الطبري برقم ٢٤١١

[4] رواه الطبري ٤٨٢

[5] تفسير الطبري ٣٧٠/١

[6] تفسير الطبري ٢٦٤/٢١

❁ وقوله تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف ٣]، قال البغوي: أَيْ:" لَا تَتَّخِذُوا غَيْرَهُ أَوْلِيَاءَ تُطِيعُونَهُمْ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى"[١].

❁ ومن السنة: رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ جَرِيرٍ وغيرهم مِنْ طُرُقٍ، عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ لَمَّا بَلَغَتْهُ دَعْوَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَّ إِلَى الشَّامِ، وَكَانَ قَدْ تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَأُسِرَتْ أُخْتُهُ وَجَمَاعَةٌ مِنْ قَوْمِهِ، ثُمَّ مَنَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى أُخْتِهِ وَأَعْطَاهَا، فَرَجَعَتْ إِلَى أَخِيهَا، ورَغَّبته فِي الْإِسْلَامِ وَفِي الْقُدُومِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَدِمَ عَدِيّ الْمَدِينَةَ، وَكَانَ رَئِيسًا فِي قَوْمِهِ طَيِّئٍ، وَأَبُوهُ حَاتِمٌ الطَّائِيُّ الْمَشْهُورُ بِالْكَرَمِ، فتحدَّث النَّاسُ بِقُدُومِهِ، فَدَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفِي عُنُقِ عَدِيّ صَلِيبٌ مِنْ فِضَّةٍ، فَقَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة ٣١]، قَالَ: فَقُلْتُ: إِنَّهُمْ لَمْ يَعْبُدُوهُمْ. فَقَالَ: « بلَى، إِنَّهُمْ حَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلَالَ، وَأَحَلُّوا لَهُمُ الْحَرَامَ، **فَاتَّبَعُوهُمْ، فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ**»"[٢].

ولفظ المتابعة يَرِدُ على الموافقة في الظاهر دون الباطن، وليس هو المتابعة على الاعتقاد كما يفسره به الأشاعرة، بل فهم السلف للمتابعة إنما هو على الموافقة في الظاهر كما قَالَ قَتَادَةُ: أَخَذَ بَنُو الْمُغِيرَةِ عَمَّارًا وَغَطُّوهُ فِي بِئْرِ مَيْمُونٍ، وَقَالُوا لَهُ: اكْفُرْ بِمُحَمَّدٍ **فَتَابَعَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَقَلْبُهُ كَارِهٌ**، فَأُخْبِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَنَّ عَمَّارًا كَفَرَ فَقَالَ: ﴿كَلَّا إِنَّ عمارا ملىء إِيمَانًا مِنْ قَرْنِهِ إِلَى قَدَمِهِ، وَاخْتَلَطَ الْإِيمَانُ بِلَحْمِهِ وَدَمِهِ» فَأَتَى عَمَّارٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَبْكِي، فَقَالَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «مَا وَرَاءَكَ» ؟ قَالَ: شَرٌّ يا رسول الله إني نلت منك وذكرت آلهتهم بخير، قَالَ: «كَيْفَ وَجَدْتَ قَلْبَكَ» قَالَ: مُطْمَئِنًّا بِالْإِيمَانِ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَمْسَحُ عَيْنَيْهِ وَقَالَ: إِنْ عَادُوا لَكَ فَعُدْ لَهُمْ بِمَا قُلْتَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ﴾[٣].

---

[١] معالم التنزيل في تفسير القرآن ٢١٣/٣

[٢] سنن الترمذي برقم ٣٠٩٥وتفسير الطبري ٢٠٩/١٤

[٣] تفسير البغوي ٩٨/٣

المطلب الثالث: الطاعة هي امتثال الأمر والدخول في العمل

إنَّ الطاعة هي اتِّبَاعُ الأمْر اختياراً وعدم المُخَالفة له، فإذا مَضى المكلَّف لأَمرِ المشرِّع ظاهراً فقد أَطاعَهُ أما إذا وافقه باطناً وظاهراً فقد طاوَعَهُ، وهي فعلٌ متعلقٌ بأمرٍ[1]، فلا تكون الطاعة إلا بعد ورود الأمر من المشرِّع وامتثال التكليف من المكلَّف، والإتيانُ بالعمل يسمى طاعة بقطع النظر عن المطاوعة ـ أي الموافقة بالباطن ـ، وورد ذلك في مواضع منها:

❁ قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾[التوبة ١١٥] قال البغوي:"مَعْنَاهُ: ما كان الله ليحكم عليكم بالضلالة **بترك الأوامر** وباستغفاركم للمشركين، ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾، يُرِيدُ **حَتَّى يَتَقَدَّمَ إِلَيْكُمْ بِالنَّهْيِ، فإذا بيّن وَلَمْ تَأْخُذُوا بِهِ فَعِنْدَ ذَلِكَ تستحقّون الضلال**، وقال مُجَاهِدٌ: «بَيَانُ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي تَرْكِ الِاسْتِغْفَارِ لِلْمُشْرِكِينَ خَاصَّةً **وَبَيَانُهُ لَهُمْ فِي مَعْصِيَتِهِ وَطَاعَتِهِ عَامَّةً، فافعلوا وذروا**»[2]، وفي الآية دلالة على أنَّ الطاعة هي فعلٌ متعلق بأمر أو نهي ولا تكون إلا بعد وروده.

❁ وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٤٧ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٌ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ۞ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[النور٤٨]، عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ قَوْلُ اللَّهِ ﴿ وَأَطَعۡنَا﴾قَالَ أَقَرُّوا لِلَّهِ أَنْ يُطِيعُوهُ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ."[3]، وقوله تعالى: ﴿ مُذۡعِنِينَ ﴾ مسرعين في طلب الطاعة **طلبًا لحقهم لا رضا بحكم رسولهم، قال الزجاج الإذعان: الإسراع مع الطاعة**"[4].

❁ وقوله تعالى: ﴿ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٌ مَّعۡرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾[النور٥٣] قال مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ في قوله ﴿ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّ ﴾: وَذَلِكَ فِي شَأْنِ الْجِهَادِ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ

---

[1] قال أبو العباس: **وَلَا تَكُونُ الطَّاعَةُ إلَّا عَنْ أَمْرٍ كَمَا أَنَّ الْجَوَابَ لَا يَكُونُ إلَّا عَنْ قَوْلٍ** يُقَالُ أَمَرَهُ فَأَطَاعَ وَقَالَ ابْنُ فَارِسٍ إذَا مَضَى لِأَمْرِهِ فَقَدْ أَطَاعَهُ إطَاعَةً وَإِذَا وَافَقَهُ فَقَدْ طَاوَعَهُ" المصباح المنير في غريب الشرح الكبير٢/٣٨٠

[2] تفسير البغوي ٢/٣٩٦

[3] رواه ابن أبي حاتم برقم ١٤٧٣٣

[4] مدارك التنزيل وحقائق التأويل.٢/٥١٣

بِـالْخُرُوجِ مَعَـكَ إِلَى الْجِهَـادِ لَيَخْـرُجُنَّ مَعَـكَ، وَفِي قَوْلِـهِ: ﴿لَّا تُقْسِمُواْ﴾، قَـالَ: يَـأْمُرُهُمْ أَنْ لَا يَحْلِفُـوا عَلَـى شَـيْءٍ وَفِي قَوْلِـهِ: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾، قَـالَ:« **أَمَـرَهُمْ أَنْ تَكُـونَ مِـنْهُمْ طاعـة مَعْرُوفَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ** مِنْ غَيْرِ أَنْ يُقْسِمُوا» [1].

وقـال يحـي بـن سـلام: قَـالَ اللَّـهُ: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُواْ﴾ أَيْ: لا تَحْلِفُـوا، ثُـمَّ اسْـتَأْنَفَ الْكَـلامَ فَقَـالَ: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾، خَيْـرٌ، وَهَـذَا إِضْـمَارٌ، أَيْ: خَيْـرٌ مِمَّـا تُضْـمِرُونَ مِـنَ النِّفَـاق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النـور: ٥٤] **يَعْنِي الْمُنَافِقِينَ**"[2].

❁ وقـال تعـالى: ﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ۝ طَاعَةٌ وَقَوۡلٌ مَّعۡرُوفٌ﴾[محمـد٢١]، وعـن مجاهـد ﴿طَاعَةٌ وَقَوۡلٌ مَّعۡرُوفٌ﴾قال:« أمر الله بذلك المنافقين»[3].

وفي مجمـوع الآيـات أنَّ الطاعـة وإنْ وقعـت مـن المنـافقين فهي امتثـال الأمـر وإيجـاد العمـل ـ الـذي هـو التحـاكم في الآيـة الثانيـة والجهـاد كمـا في الآيتـين الثالثـة والرابعـة ـ مـن غيـر تصـديق، وسـماها اللـه طاعـة، فـدل علـى أن الطاعـة تُطلـق علـى مجـرد الامتثـال أي إيجـاد الأمـر سـواء كـان مـع التصـديق أو مـن غيـر تصـديق، أمـا مـا يترتـب عليـه الجـزاء والثـواب فهـو مـا تـواطئ عليـه البـاطن والظـاهر جميعـاً، أي: أن يكـون العمـل خالصـا صواباً.

❁ وقـال تعـالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانًا مُّبِينًا﴾[النسـاء ١١]

قـال الواحـدي:" يريـد مـن يُطعـه فيمـا يـدعو إليـه مـن الضـلال، فكـل مـن أطاعـه فهـو وليُّ لـه وإن لـم يقصـد أن يتـولاه، **كمـا يكـون مطيعًـا لـه وإن لـم يقصـد أن يطيعـه، بمو افقتـه لإرادتـه، وإجابتـه إلـى مـا دعـاه إليـه**، فهـو يعمـل عمـلًا يُعينـه عليـه الشـيطان، وكـان الشيطان له وليًا ناصرًا معينًا"[4].

❁ ومـن السـنة: مـا رواه عَبْـدِ اللَّـهِ رَضِـيَ اللَّـهُ عَنْـهُ، عَـنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَـالَ: «السَّـمْعُ وَالطَّاعَـةُ عَلَى المَـرْءِ المُسْـلِمِ فِيمَـا أَحَـبَّ وَكَـرِهَ، مَـا لَـمْ يُـؤْمَرْ بِمَعْصِـيَةٍ، فَـإِذَا أُمِـرَ بِمَعْصِـيَةٍ فَـلاَ سَـمْعَ

---

[1] رواه ابن ابي حاتم في تفسيره برقم ١٤٧٥١

[2] تفسير بن سلام ١/ ٤٥٨

[3] تفسير الطبري ٢٢/١٧٦

[4] التفسير البسيط للواحدي ١٠٥/٧

وَلاَ طَاعَـةَ»[١] فتكـون الطاعـة مـع عـدم المطاوعـة علـى الفعـل، أي: الطاعـة هـي الامتثـال المجـرد ولـو مـع كراهيـة العمـل، وعليـه يكـون شـرك الطاعـة في العمـل ولـيس في الاعتقـاد، قـال أبـو الحسـين الملطي:" وَمـن المرجئـة صـنف زَعَمُـوا أَن الْإِيمَـان معرفَـة بِالْقَلْـبِ لَا فعـل بِاللِّسَـانِ وَلَا عمـل بِالْبـدنِ وَمـن عـرف اللـه بِقَلْبِـه أَنـه لَا شَـيْء كمثلـه فَهُـوَ مُـؤمن وَإِن صـلى نَحْـو الْمشـرق أَو الْمغـرب وربـط فِي وسـطه زنـارا وَقَـالُوا لَـو أَوجَبْنَـا عَلَيْـهِ الْإِقْـرَار بِاللِّسَـانِ أَوْجَبنَـا عَلَيْـهِ عمـل الْبـدن حَتَّى قَـالَ بَعضـهم الصَّـلَاة مـن ضـعف الْإِيمَـان مـن صـلى فقـد ضعف إيمَانه.

نقُـول كَيـفَ تجـوز لَـهُ الصَّـلَاة نَحْـو الْمشـرق وَقـد قَـالَ اللـه عـز وَجـل: ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ وكَيـف يجـوز ربـط الزنار فِي وَسطه وَقد قَالَ عَلَيْهِ السَّلَام ﴿من تشبه بِقوم فَهُوَ مِنْهُم﴾.

وَكَيـف تجـوز الْمعرفَـة بِالْقَلْـبِ دون القَـوْل وَاللـه عـز وَجـل يَقُـول ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ **وَلَا تكـون هَـذِه الطَّاعَـة إِلَّا بـالْقَوْل وَالْعَمَـل** قـد قَـالَ الْأَوْزَاعِيّ رَحمَـه اللـه أدْركْت النَّـاس وهـم يَقُولُـونَ الْإِيمَـان قَـول وَعمـل وَقـد ذكرنَـا هَـذَا فِي آخـر الْكتـاب مُجَـردا إِن شَاءَ الله تَعَالَى"[٢].

المطلب الرابع: طاعة أولياء أمور المسلمين

لقـد أمـر اللـه وأذن في طاعـة أوليـاء أمـور المسـلمين في غيـر معصـية اللـه، وأَجْمَـعَ الْمُسْـلِمونَ عَلَـى أَنَّـهُ لَا طَاعَـةَ لِأولِيـاء الأمـور وَلَا غَيْرِهِم فِي مَعْصِـيَةِ اللَّـهِ تَعـالَى. وَقَـدْ جَـاءَتْ بِـذَلِكَ الْأَحَادِيـثُ الصَّحِيحَةُ الصَّـرِيحَةُ الَّتِي لَا لَـبْسَ فِيهَـا وَلَا مَطْعَـنَ كَحَـدِيثِ ابْـنِ عُمَـرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُـولَ اللَّـهِ ﷺ قَـالَ: ﴿السَّـمْعُ وَالطَّاعَـةُ عَلَـى الْمَـرْءِ الْمُسْـلِمِ فِيمَـا أَحَـبَّ وَكَـرِهَ، مَـا لَـمْ يُـؤْمَرْ بِمَعْصِـيَةٍ، فَـإِنْ أُمِـرَ بِمَعْصِـيَةٍ فَـلَا سَـمْعَ وَلَا طَاعَـةَ﴾[٣]، "وَقَـالَ خُضَـيْرٌ السُّـلَمِيُّ لِعُبَـادَةَ بْـنِ الصَّـامِتِ وَقَـدْ حَدَّثَـهُ بِهَـذَا الْحَـدِيثِ أَرَأَيْـتَ إِنْ أَطَعْـتُ أَمِيـرِي فِي كُـلِّ مَـا يَـأْمُرُنِي بِـهِ قَـالَ يُؤْخَـذُ بِقَوَائِمِـكَ فَتُلْقَـى فِي النَّـارِ وَلْيَجِئْ هَـذَا فَيُنْقِـذُكَ"[٤]، وقـال في التمهيـد:" وَأَجْمَـعَ الْعُلَمَـاءُ عَلَـى أَنَّ مَـنْ أَمَـرَ بِمُنْكَـرٍ لَا تَلْـزَمُ طَاعَتُـهُ قَـالَ اللَّـهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا

[١] رواه البخاري برقم ٧١٤٤ ورواه مسلم برقم ١٨٣٩

[٢] التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ١٤٩/١

[٣] رواه البخاري برقم ٧١٤٤ ومسلم برقم ١٨٣٩

[٤] الاستذكار ١٥/٥

تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ ﴾ [المائدة ٢][1]، وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِي السَّرِيَّةِ الَّذِينَ أَمَرَهُمْ أَمِيرُهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا فِي النَّارِ: ﴿لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا **أَبَدًا** ؛ إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ﴾[2]، "قال محمد بن جرير: في حديث علي وحديث ابن عمر البيان الواضح عن نهي الله على لسان رسوله عباده عن طاعة مخلوق في معصية خالقه، سلطانًا كان الآمر بذلك أو سوقة أو والدًا أو كائنًا من كان، فغير جائز لأحد أن يطيع أحدًا من الناس في أمر قد صح عنده نهي الله عنه، فإن ظن ظان أن في قوله ﷺ في حديث أنس: ﴿اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي﴾ وفى قوله في حديث ابن عباس : ﴿من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر﴾ حجة لمن أقدم على معصية الله بأمر سلطان أو غيره، وقال: قد وردت الأخبار بالسمع والطاعة لولاة الأمر فقد ظن خطئًا، وذلك أن أخبار رسول الله ﷺ لا يجوز أن تتضاد، ونهيه وأمره لا يجوز أن يتناقض أو يتعارض، وإنما الأخبار الواردة بالسمع والطاعة لهم ما لم يكن خلافًا لأمر الله وأمر رسوله، فإذا كان خلافًا لذلك فغير جائز لأحد أن يطيع أحدًا في معصية الله ومعصية رسوله، **وبنحو ذلك قال عامة السلف**"[3].

وفي روايةٍ لحديث عباد بن الصامت مرفوعاً: ﴿وَأَنْ لَا تُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ **إِلا أَنْ يَأْمُرُوكَ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ بَوَاحًا**، فَمَا أُمِرْتَ بِهِ مِنْ شَيْءٍ يُخَالِفُ كِتَابَ اللَّهِ **فَاتَّبِعْ كِتَابَ اللَّهِ**﴾[4]. وهذه الرواية مفسرة لحديث جُنَادَةَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ، قَالَ: دَخَلْنَا عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ وَهُوَ مَرِيضٌ، فَقُلْنَا: حَدِّثْنَا أَصْلَحَكَ اللهُ، بِحَدِيثٍ يَنْفَعُ اللهُ بِهِ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: دَعَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ، فَكَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا: «أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ»، قَالَ: «**إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا** عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»[5]، فجاء تفسير الكفر البواح بطاعة المشرعين في معصية الله.

وَقال تعالى: ﴿وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ﴾[الممتحنة ١٢] ، قال ابن زيد في قوله: ﴿وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ﴾:« إن رسول الله ﷺ نبيّه وخيرته من خلقه، ثم لم يستحلّ له أمر إلا

[1] التمهيد ٢٧٧/٢٣

[2] رواه البخاري برقم ٧١٤٥ ومسلم برقم ١٨٤٠

[3] شرح صحيح البخاري لابن بطال ٢١٥/٨

[4] رواه ابن أبي حاتم في تفسيره برقم ١٤٧٤٥ ورواه الالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة برقم ٢٣٠٣

[5] رواه البخاري برقم ٧٠٥٦ ورواه مسلم برقم ٤٢

بشرط، لم يقل لا يَعْصِينَكَ ويترك. حتى قال: فِي مَعْرُوفٍ فكيف ينبغي لأحد أن يُطاع في غير معروف وقد اشترط الله هذا على نبيه»[1].

المطلب الخامس: ضابط الفرق بين طاعة المشرِّعين في معصية الله وطاعة الشيطان.

إنَّ امتثال التكليف ـ المتضمن لتحليل الحرام أو تحريم الحلال أو إسقاط الواجب أو تغيير أحكام الوضع ـ إنما يقع ممن يصدُرُ عن مثله التكليف، أي ممن له سلطان على المكلف، وأما من لا سلطان له على المكلف فلا تكليف في أمره ويسمى طلبه التماساً أو دعاءً، لأن الأمر يكون من أعلى إلى أدنى لا من مساوي أو ممن هو أدنى[2]، قال الخطيب البغدادي:" الْأَمْرُ هُوَ: قَوْلٌ يَسْتَدْعِي بِهِ الْقَائِلُ الْفِعْلَ **مِمَّنْ هُوَ دُونَهُ** ـ إلى أن قال ـ وَمَا كَانَ مِنَ الْأَدْنَى لِلْأَعْلَى فَلَيْسَ بِأَمْرٍ كَقَوْلِنَا: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَإِنَّمَا هُوَ مَسْأَلَةٌ وَرَغْبَةٌ، ـ وروى بسنده ـ عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى قَالَ: كُنْتُ أُصَلِّي فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ أُجِبْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي قَالَ: " أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] **وَلِأَنَّ السَّيِّدَ لَوْ قَالَ لِعَبْدِهِ: اسْقِنِي مَاءً فَلَمْ يَسْقِهِ اسْتَحَقَّ الذَّمّ**، وَلَوْ لَمْ يَقْتَضِ أَمْرُ السَّيِّدِ الْوُجُوبَ لَمَا اسْتَحَقَّ الْعَبْدُ الذَّمَّ عَلَيْهِ وَإِذَا وَرَدَ الْأَمْرُ مُطْلَقًا بِفِعْلِ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ"[3].

والعمل بهذا التكليف الصادر من المشرعين يسمى طاعة وامتثالاً، أما الاستجابة لداعي الغواية سواءً كان من النفس الأمارة بالسوء أو الهوى أو الشيطان لا يسمى تكليفاً، كقوله تعالى:﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ﴾[يوسف ٥٣]، قال البغوي :﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ **يَعْنِي**: إن النفس كَثِيرَة الْأَمر بالسوء: السوء

---

[1] تفسير الطبري ٨٠/٢٨

[2] قال الفتوحي في تعريف الأمر:" وَأَمَّا حَدُّهُ أَيْ حَدُّ الأَمْرِ فِي الاصْطِلاحِ فَهُوَ "اقْتِضَاءُ مُسْتَعْلٍ مِمَّنْ دُونَهُ فِعْلاً بِقَوْلٍ. إلى أن قال. قَالَ فِي شَرْحِ التَّحْرِيرِ: وَاعْتَبَرَ أَكْثَرُ أَصْحَابِنَا، مِنْهُمْ الْقَاضِي وَابْنُ عَقِيلٍ وَابْنُ الْبَنَّاءِ وَالْفَخْرُ إسْمَاعِيلُ وَالْمَجْدُ بْنُ تَيْمِيَّةَ وَابْنُ حَمْدَانَ وَغَيْرُهُمْ، وَنَسَبَهُ ابْنُ عَقِيلٍ فِي الْوَاضِحِ إلَى الْمُحَقِّقِينَ ـ وذكر طائفة ـ **الْعُلُوَّ. فَأَمْرُ الْمُسَاوِي غَيْرِهِ يُسَمَّى عِنْدَهُمْ الْتِمَاسًا، وَالأَدْوَنِ سُؤَالاً.**"

وقال الفخر الرازي: **"الذي عليه المتكلمون: أنه لا يشترط علو ولا استعلاء"**، وما هو ما جزم به ابن السبكي، ورجحه العضد، ولم تشترط المعتزلة وغيرهم الاستعلاء" شرح الكوكب المنير ١٢/٣

[3] الفقيه والمتفقه ٢٢٠/١

هَاهُنَا هُوَ الْمعْصِيَةَ"[١]،وقال تعالى:﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾[الأعراف١٧]، وقال تعالى:﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[فاطر٦] عَنِ ابْنِ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ ﴾الآية، قال:« يدعوا حِزْبَهُ إِلَى مَعَاصِي اللَّهَ، وَأَصْحَابُ مَعَاصِي اللَّهِ أَصْحَابُ السَّعِيرِ وَهَؤُلاءِ حِزْبُهُ مِنَ الْإِنْسِ أَلا تَرَاهُ يَقُولُ: أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ قَالَ: وَالْحِزْبُ وِلايَةُ الَّذِينَ يَتَوَلَّاهُمْ وَيَتَوَلَّوْنَهُ»[٢]، فالشيطان حريص على إيقاع بني آدم معه في نار جهنم، فيُحسّن لهم الكفر والمعاصي، ويَعِد ويُمنّي كما قال تعالى:﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾[النساء١٢٠].

ولما نقول أنَّ الشيطان لا سلطان له على المكلف أي: سلطان القهر والإلزام والإكراه على العمل وهو السلطان الذي يتعلق به التكليف، وهو الذي ينفيه عن نفسه عندما يقوم خطيباً يوم القيامة كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم ٢٢] عَنِ الحَسَنِ رضي الله عنه قَالَ:« إِذَا كَانَ يَوْم الْقِيَامَة، قام إبليس خطيبًا عَلَى منبر مِنْ نار فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ ﴾ ... إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ﴾قَالَ: بناصري ﴿ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾، بطاعتكم إياي في الدُّنْيَا»[٣].

وقال الطبري: ومعناه: ولكن ﴿دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ﴾ يقول: **إلا أن دعوتكم إلى طاعتي ومعصية الله، فاستجبتم لدعائي** ﴿فَلَا تَلُومُونِى ﴾، على إجابتكم إياي ﴿وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ﴾، عليها"[٤]، " وَقَالَ الْبَصْرِيُّونَ: وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْيَوْمِ الْحَقِّ ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾أَيْ: تَسَلُّطٍ عَلَيْكُمْ بِإِظْهَارِ حُجَّةٍ عَلَى مَا وَعَدْتُكُمْ بِهِ وَزَيَّنْتُهُ لَكُمْ ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ

[١] تفسير البغوي ٣٩/٣

[٢] رواه ابن ابي حاتم في تفسيره برقم ١٧٩٣٠

[٣] رواه ابن أبي حاتم في تفسيره برقم ١٢٢٤٦

[٤] تفسير الطبري ٥٦١/١٦

فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ﴾أَيْ: **إِلَّا مُجَرَّدُ دُعَائِي لَكُمْ إِلَى الْغَوَايَةِ وَالضَّلَالِ بِلَا حُجَّةٍ وَلَا بُرْهَانٍ، وَدَعْوَتُهُ إِيَّاهُمْ لَيْسَتْ مِنْ جِنْسِ السُّلْطَانِ حَتَّى تُسْتَثْنَى مِنْهُ**، بَلِ الِاسْتِثْنَاءُ مُنْقَطِعٌ، أَيْ: لَكِنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي، أَيْ: فَسَارَعْتُمْ إِلَى إِجَابَتِي وَقِيلَ: **الْمُرَادُ بِالسُّلْطَانِ هُنَا الْقَهْرُ** أَيْ: **مَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ قَهْرٍ يَضْطَرُّكُمْ إِلَى إِجَابَتِي** وَقِيلَ: هَذَا الِاسْتِثْنَاءُ هُوَ مِنْ بَابِ: تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ، مُبَالَغَةً فِي نَفْيِهِ لِلسُّلْطَانِ عَنْ نَفْسِهِ كَأَنَّهُ قَالَ: إِنَّمَا يَكُونُ لِيَ عَلَيْكُمْ سُلْطَانٌ إِذَا كَانَ **مُجَرَّدُ الدُّعَاءِ** مِنَ السُّلْطَانِ، وَلَيْسَ مِنْهُ قَطْعًا فَلَا تَلُومُونِي بِمَا وَقَعْتُمْ فِيهِ بِسَبَبِ وَعْدِي لَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَإِخْلَافِي لِهَذَا الْمَوْعِدِ وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ بِاسْتِجَابَتِكُمْ لِي بِمُجَرَّدِ الدَّعْوَةِ الَّتِي لَا سُلْطَانَ عَلَيْهَا وَلَا حُجَّةَ"[1].

ولو كان الشيطان له سلطان على الناس بقهرهم على الضلالة ـ سوى الدعاء ـ لأضل جميع الخلق عن الهداية كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾[النساء: ١١٨] قال الواحدي:" يريد أهل النار، وقال: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ الآية، **ولو كان شيء من الضلالة إليه سوى الدعاء إليها** لأضل جميع الخلق عن الهدى"[2]، وقال ابن أبي زمنين:" ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾أَيْ: **يُطِيعُونَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَطِيعَ أَنْ يُكْرِهَهُمْ** ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ أَيْ: بِاللَّهِ مُشْرِكُونَ"[3].

وما أثبته الله ـ في مواضع من كتابه ـ من السلطان والأمر والطاعة للشيطان، فهو **حجته وتسليطه وولايته على أوليائه من المشركين دون الموحدين**، والقاعدة في الباب: أنَّ المثبت غير المنفي، ودل على ذلك آيات:

❁ كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾[الحجر٤٢]، **وقال تعالى**: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾[الاسراء٦٥] ، قال أبو جعفر :" يقول تعالى ذكره لإبليس: إن عبادي الذين أطاعوني، فاتبعوا أمري وعصوك يا إبليس، ليس لك عليهم حجة"[4].

[1] فتح القدير ١٣٤/٣

[2] التفسير البسيط للواحدي ١٠٤/٧

[3] تفسير ابن أبي زمنين ٤١٨/٢

[4] تفسير الطبري ٤٧٦/١٧

❁ ومـــن ذلـــك قولـــه تعـــالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل١٠٠] ، عَـــنْ مُجَاهِـــدٍ فِـــي قَوْلِـــهِ: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾قَـالَ:« **حجتـه** عَلَى الـذين يتولونـه وَالَّـذِينَ هُـمْ بِـهِ مُشْـرِكُونَ قَـالَ: يعدلونـه برب العالمين»[١].

❁ وعَــنِ ابْــنِ عَبَّــاسٍ رضي الله عنهما قَوْلَــهُ: ﴿سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾[النسـاء١٤٤] قَــالَ: «كُــلُّ سُــلْطَانٍ فِي الْقُــرْآنِ حُجَّــةٌ» وَرُوِيَ عَــنْ مُجَاهِــدٍ، وَسَــعِيدِ بْــنِ جُبَيْــرٍ، وَعِكْرِمَــةَ، وَمُحَمَّــدِ بْــنِ كَعْــبٍ وَالضَّــحَّاكِ وَالسُّدِّيِّ، وَالنَّضْرِ بْنِ عَرَبِيٍّ مِثْلُ ذَلِكَ"[٢].

❁ عَــنْ سُــفْيَانَ الثــوري فِي قَوْلِــهِ: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾قَــالَ:« لــيس لَــهُ سلطان عَلَى أن يحملهم عَلَى ذنب لا يغفر لَهُمْ»[٣].

❁ وقـــال الطبـــري: وأمـــا قولـــه: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾فإنــه يعني بــذلك: أن الشــيطان ليســت لــه حجــة علــى الــذين آمنــوا باللــه ورســوله، وعملــوا بمــا أمــر اللــه بــه وانتهــوا عمــا نهــاهم اللــه عنــه﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يقــول: وعلــى ربهــم يتوكلــون فيمــا نــابهم مــن مهمــات أمــورهم﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ يقــول: **إنمــا حجتــه علــى الــذين يعبدونــه**، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾، يقول: والذين هم بالله مشركون"[٤].

والشـيطان هـو رأس الطواغيـت وكـل عبـادة لغير اللـه في الأرض أو تشـريع مـن دون اللـه إنمـا وقعـت بتزيين الشـيطان لأوليائـه وطاعـة أمـره واتبـاع وحيـه، ولا يوجـد مـن النـاس غالبـاً[٥]مـن يقصـد عبـادة الشـيطان لذاتـه، بـل الكـل يفـرّ عـن عبادتـه ويتبرأ منهـا، وإنمـا يعبـدون

[١] أخرجه ابن ابي حاتم في تفسيره برقم ١٢٦٥٥

[٢] رواه ابن أي حاتم برقم ٦١٥١

[٣] أخرجه ابن ابي حاتم في تفسيره برقم ١٢٦٥٤

[٤] تفسير الطبري ٢٩٤/١٧

[٥] إلا ما ظهر في هذا الزمان طائفة من البشر تعبد ذات الشيطان والله المستعان.

مـن دون اللـه أوليـاء وزيـن لهـم الشـيطان أعمـالهم كمـا قـال تعـالى: ﴿ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[التوبة٣٧]، وقـال تعـالى: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾[النساء١١٧]، "أَيْ: هُـوَ الَّـذِي أَمَـرَهُمْ بِـذَلِكَ وَحَسَّـنَهُ لَهُـمْ وَزَيَّنَـهُ، **وَهُـمْ إِنَّمَـا يَعْبُـدُونَ إِبْلِـيسَ فِي نَفْـسِ الْأَمْـرِ**، كَمَـا قَـالَ تَعَـالَى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[يس٦٠] وَقَـالَ تَعَـالَى إِخْبَـارًا عَـنِ الْمَلَائِكَـةِ أَنَّهُـمْ يَقُولُـونَ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ عَـنِ الْمُشْـرِكِينَ الَّـذِينَ ادَّعَـوْا عِبَـادَتَهُمْ فِي الـدُّنْيَا: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾[سبأ: ٤١]"[١]، وقـال ابـن أبـي زمنـين:" ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾لأنهـم عبـدُوا الْأَوْثَـان بِمَـا وسـوس إِلَـيْهِم الشَّيْطَان؛ فَأَمرهمْ بعبادتهم فَإِنَّمَا عبدُوا الشَّيْطَان"[٢].

وطاعـة المشـركين للشـيطان هـي طاعـة عبـادة وهـي الـواردة في قولـه تعـالى:﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[ياسين: ٦٠]، أخـرج ابْـن الْمُنْـذر عَـن مَكْحُـول فِي قَوْلـه: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾ قَـالَ: إِنَّمَـا عِبَادَتـه طَاعَتـه"[٣]، ولـه علـيهم سـلطان وولايـة كمـا قـال تعـالى: ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل١٠٠]، ويـأمرهم ويخـوفهم كمـا قـال تعـالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[آل عمران١٧٥]، فالكـافر عبـدٌ للشـيطان يطيعـه ويتـولاه وينقـاد لأمـره ووحيـه، فعـن عَبْـدَ الْمَلِـكِ بْـنَ مَـرْوَانَ، كَتَـبَ إِلَى سَـعِيدِ بْـنِ جُبَيْرٍ يَسْـأَلُهُ عَـنْ هَـذِهِ الْمَسَـائِلِ، فَأَجَابَـهُ فِيهَـا:" تَسْـأَلُ عَـنِ الـدِّينِ: وَالـدِّينُ الْعِبَـادَةُ، فَإِنَّـكَ لَـنْ تَجِـدَ رَجُـلًا مِـنْ أَهْـلِ دِيـنٍ يَتْرُكَ عِبَـادَةَ أَهْـلِ دِينِـهِ، ثُـمَّ لَا يَـدْخُلُ فِي دِيـنٍ آخَـرَ إِلَّا صَـارَ لَا دِيـنَ لَـهُ، **وَتَسْـأَلُ عَـنِ الْعِبَـادَةِ: وَالْعِبَـادَةُ هِـيَ الطَّاعَـةُ**، وَذَلِـكَ أَنَّـهُ مَـنْ أَطَـاعَ اللَّـهَ فِيمَـا أَمَـرَهُ بِـهِ وَفِيمَـا نَهَـاهُ عَنْـهُ فَقَـدْ أَتَـمَّ عِبَـادَةَ اللَّـهِ، وَمَـنْ أَطَـاعَ الشَّـيْطَانَ فِي دِينِـهِ وَعَمَلِـهِ فَقَـدْ عَبَـدَ الشَّـيْطَانَ، أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ اللَّـهَ قَـالَ لِلَّـذِينَ فَرَّطُـوا: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ

---

[١] تفسير بن كثير ٤١٥/٢

[٢] تفسير ابن أبي زمنين ٥٠/٤

[٣] الدر المنثور ٦٧/٧

مُّبِينٌ ﴾ [ياسين: ٦٠] **وَإِنَّمَا كَانَتْ عِبَادَتُهُمُ الشَّيْطَانَ أَنَّهُمْ أَطَاعُوهُ فِي دِينِهِمْ**، فَمِنْهُمْ مَنْ أَمَرَهُمْ فَاتَّخَذُوا أَوْثَانًا أَوْ شَمْسًا أَوْ قَمَرًا أَوْ بَشَرًا أَوْ مَلَكًا يَسْجُدُونَ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، **وَلَمْ يَظْهَرِ الشَّيْطَانُ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ**، فَيَتَعَبَّدْ لَهُ، أَوْ يَسْجُدْ لَهُ، وَلَكِنَّهُمْ أَطَاعُوهُ فَاتَّخَذُوهَا آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَلَمَّا جُمِعُوا جَمِيعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي النَّارِ قَالَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ: ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ [إبراهيم: ٢٢] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾[الأنبياء: ٩٨] فَعُبِدَ عِيسَى وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَلَمْ يَجْعَلْهُمُ اللَّهُ فِي النَّارِ، فَلَيْسَ لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ذَنْبٌ، وَذَلِكَ يَصِيرُ إِلَى طَاعَةِ الشَّيْطَانِ، فَيَجْعَلُهُمْ مَعَهُمْ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ حِينَ تَقَرَّبُوا مِنْهُمْ: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الشعراء: ٩٨] وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ حِينَ سَأَلَهُمُ اللَّهُ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾[سبأ: ٤٠] قَالَ: أَفَلَا تَرَى إِلَى عِبَادَتِهِمُ الْجِنَّ إِنَّمَا هِيَ أَنَّهُمْ أَطَاعُوهُ فِي عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ، **فَيَصِيرُ الْعِبَادَةُ إِلَى أَنَّهَا طَاعَةٌ** "[١]، ومن صور عبادة الشيطان ما روي عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾[الجن: ٦] كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا أُنْزِلُوا مَنْزِلًا قَالُوا: نَعُوذُ بِأَعَزِّ هَذَا الْمَكَانِ ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ قال يَقُولُ: «خَطِيئَةً وَإِثْمًا»"[٢]

أما المؤمنون فلا سلطان للشيطان عليهم ولا حجَّة ولا ولاية، وقد يستزلُّهم ويغويهم في حالة غفلة أو ضعف أو شهوة، وهذا غاية ما يظفر به منهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾[آل عمران ١٥٥] وأرشد الله إلى طريق النجاة منه وأوضح حال المؤمن معه: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[الأعراف٢٠١]، وبين النبي ﷺ هذا المعنى جلياً كما ورد عَنْ جَابِرٍ ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ»[٣]، **يعني أن الشيطان لما أيس من الموحدين الشرك الذي هو في الطاعة والعبادة رضي منهم بالتحريش أي ما**

[١] رواه المروزي في تعظيم قدر الصلاة برقم ٣٤٥

[٢] تفسير عبد الرزاق برقم ٣٣٤٨

[٣] رواه مسلم برقم ٦٥

دون ذلك، فالذي يقع من المسلمين من المعاصي بسبب استزلال الشيطان كالتحريش وغيره لا يسمى شركاً في العبادة ولا شركاً في الطاعة، وإنما يسمى استجابة لمعصية وهو جنس المعاصي عموماً.

فاستجابة الموحد لداعي الغواية من النفس أو الهوى أو شياطين الإنس والجن يكون بحسب العمل، فمن أجاب إلى كفر فقد كفر ودخل في عبادة الشيطان، ومن أجاب إلى معصية ففعله معصية وهذا لا يدخل في شرك الطاعة الذي يُصرف للمشرعين من دون الله كما سبق بيانه، فارتكاب المعصية من المسلم لا يكون إلا استجابة لغواية أو وسوسة على مقتضى الهوى أو الاسترسال الطبيعي مع خواطر النفس والشيطان ثم العزم على الفعل، إلا إذا وصل إلى مرتبة استحلال المعصية فيكون قد اتخذ إلهه هواه إذا أحلَّ بتحليله وحرَّم بتحريمه فمن هنا فقط يكون الكفر، كما قال تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ [الفرقان ٤٣].

أما شرك الطاعة فهو مجرد امتثال التكليف الصادر من المشرعين في التحليل أو التحريم والدخول في العمل، ولا يشترط فيه الاستحلال لأن الاستحلال كفر مجرد لا يلزم أن تُصاحبه الطاعة، أي من استحل الحرام أو حرم الحلال كفر ولو لم يعمل أو يمتثل، أما طاعة المشرعين في المعصية فهي كفر عملي مجرد لا يشترط فيه اعتقاد الحل أو الحرمة، وهذا الذي يتخرج على معتقد أهل السنة والجماعة في باب الإيمان خلافاً لمن علق الكفر بالاستحلال فأصبحت الطاعة لغواً لا يضر دخولها أو خروجها كمناط للكفر، وهذا التأصيل فيه إلغاء لأحد أنواع الشرك بالله الذي هو شرك الطاعة.

المطلب السادس: الدخول في مؤسسات الطاغوت

وهنا بحث دقيق: إذ لا يكفي في الكفر بأنظمة الطواغيت في هذا الزمان اعتقاد بطلانها، بل يجب مفاصلتها واجتنابها، إذ الانقياد لهذا النظام بالدخول في مؤسساته والعمل في منظومته يُصادم الإسلام من كل وجه، إذ لا يخلو ذلك من طاعة المشرعين في معصية الله والاتباع لشريعة غير الله، وهي معنى العبادة لهم كما سبق بيانه، فإن الانقياد والخضوع لنظام وضعي بالدخول في مؤسساته وطاعة قوانينه والانقياد لها خروج من دين الله إلى دين طواغيت الأرض ... فإما الانقياد لأمر الله تعالى وترك الانقياد لغيره من الأنظمة الوضعية فهو الإسلام، أو الانقياد للطواغيت ونظام مُلكهم والدخول في مؤسساتهم فهو دين الجاهلية، ولا ينفع معه اعتقاد البطلان فإن الإسلام قول وعمل ونية ولا يجزئ أحدها عن الآخر كما سبق تقريره في أول الباب، ولا يَسلم للمرء دينه في

هـذا الزمـان إلا بـاعتزال الأنظمـة الجاهليـة وعـدم المشـايعة لهـا بالعمـل كمـا قـال تعـالى عـن خليلـــــه إبـــــراهيم: ﴿ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴾ [مريم ٤٨]، فـإن الخـروج مـن الجاهليـة باعتقـاد بطـلان أوضـاعها والبراءة مـن أهلهـا وتـرك المتابعـة والانقيـاد لنظامهـا هـو صحيح الإسـلام الـذي ينجـوا بـه المـرء مـن ظلمـات الجاهليـة وحمـأة الكفـر، وهـو الـذي تتحقـق بـه العبوديـة للـه عـز وجـل وحـده دونمـا سـواه بـالخروج جُملـةً مـن العبوديـة للبشـر، أمـا إنْ كـان في حياتـه منقـاداً لنظـام الطواغيـت الـذي استمداده من أهواء البشر فهو عبد للبشر لا لله تعالى.

واعلـم أن أنظمـة الطواغيـت قائمـة في الأرض على المحـادة للـه عـز وجـل والمحاربـة لدينـه وتعبيـد النـاس لغير اللـه، وغمسـهم في الشـرك والكفـر وزجهـم في الوثنيـة وردهـم إلى الجاهليـة، وتنشـئة الأجيـال على ديـن الديمقراطيـة وسـلخهم مـن ديـن الفطـرة، وسـجن وقتـل أهـل الصـلاح والإصـلاح وفتـنهم عـن ديـنهم وصـدهم عـن الـدعوة إلى الحـق، فهـذا النظـام لا يقـوم في الأرض إلا بقـوة تحميـه وجيـوش وشُـرَطٍ تَـذُودُ عنـه وتُقـيم أركانـه وتـدفع عنـه صـولة أهـل الحـق، وإن كـان حمايـة عـروش الطواغيـت يكـون بالحديـد والسـلاح، فهـو كـذلك بإضـفاء الشـرعية على مُلكهـم وتَصحيحِ مـذهبهم وأمـرِ العامـة بطـاعتهم وهـؤلاء هـم حَميرُ العلـم التـابعين للمؤسسـات الدينيـة المواليـة للنظـام، فـلا فـرق بـين الجنـدي في الثكنـات والجبهـات والإمـام الـذي يرتقـي المنبر ويـدعوا للطـاغوت بطـول العمـر والبركـات، فهـذا الأخير أشـدُ كفـرا وأكبر جُرْمـاً وإثمـاً وهـو في أسـفل الـدركات، وإن كـان النبي ﷺ نهى عـن العمـل تحـت إمـارة مـن يـؤخرون الصـلاة عـن وقتهـا ويقربـون شـرار النـاس فكيـف بأهـل الملـل المبـدلين لشـريعة اللـه، فعَـنْ أَبِـي سَـعِيدٍ، وَأَبِـي هُرَيْـرَةَ، قَـالَا: قَـالَ رَسُـولُ اللَّـهِ ﷺ: «لَيَـأْتِيَنَّ عَلَـيْكُمْ أُمَـرَاءُ يُقَرِّبُـونَ شِـرَارَ النَّـاسِ، وَيُـؤَخِّرُونَ الصَّـلَاةَ عَـنْ مَوَاقِيتِهَـا، فَمَـنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَلَا يَكُونَنَّ عَرِيفًا، وَلَا شُرْطِيًا، وَلَا جَابِيًا، وَلَا خَازِنًا»"[١].

وإنَّ هــذا النظــام الوضــعي يقــوم علــى المــال الــذي هــو عَصَــبُ السُــلطان، ولــذلك فالمؤسسـات الاقتصـادية التي يقـوم عليهـا اقتصـاد الـدول بالإضـافة إلى أنهـا قائمـة على نظـام الرِّبـا وفسـاد المعـاملات، فـإن العوائـد الماليـة تعـود نفقاتهـا على مـا يقـوم عليـه ديـن الطـاغوت في الأرض[٢]، فـإن ميزانيـة الجيـوش والسـجون والمـدارس والإعـلام وغيرهـا كبيرة

---

[١] رواه ابن حبان في صحيحه برقم ٤٥٨٦

[٢] قـال ابـن حـزم:" وَكَـذَلِكَ: مَـنْ سَـكَنَ بِـأَرْضِ الْهِنْـدِ، وَالسِّـنْدِ، وَالصِّـينِ، وَالتُّـرْكِ، وَالسُّـودَانِ وَالـرُّومِ، مِـنْ الْمُسْـلِمِينَ، فَـإِنْ كَانَ لَا يَقْـدِرُ عَلَـى الْخُـرُوجِ مِـنْ هُنَالِـكَ لِثِقَـلِ ظَهْـرٍ، أَوْ لِقِلَّـةِ مَـالٍ، أَوْ لِضَـعْفِ جِسْـمٍ، أَوْ لِامْتِنَـاعِ طَرِيـقٍ، فَهُـوَ مَعْـذُورٌ. فَـإِنْ كَانَ هُنَاكَ مُحَارِبًا لِلْمُسْلِمِينَ **مُعِينًا لِلْكُفَّارِ بِخِدْمَةٍ، أَوْ كِتَابَةٍ**: فَهُوَ كَافِرٌ" المحلى ١٢٦/١٢

جـداً قـد لا يتحمَّلها اقتصـاد تلـك البلـدان إلا بالاسـتدانة مـن صـناديق الغـرب ... وكـذا المؤسسـات التربويـة والتعليميـة قائمـة علـى تنشـئة الأجيـال كفـار أصـليين علـى ديـن الديمقراطيـة، والمؤسسـات الخدميـة التي تخـدم جيـوش الطواغيـت ومؤسسـاته وهلـم جـرا، فعامـة هـؤلاء العـاملين في هـذه المؤسسـات العلمانيـة طـائعين منقـادين لها تجـري علـيهم أحكامها اختيـاراً، وهـم يعلمـون سـلفاً أن لهـذه المؤسسـات شـرائع وأنظمـة ولـوائح وضـعية تخاطـب كافـة العـاملين فـي هـذه المؤسسـات، ويُلزمـون بها ويخضـعون لهـا، ويعلمـون كـذلك أن مـن سَـنَّ هـذه التشـريعات وقـرر هـذه اللـوائح طائفـة مـن البشـر لـم يهتـدوا بهـدي اللـه، ولـم يـردوا أمـرهم إلى شـريعة اللـه، وإنمـا مـردهم إلى الأهـواء والمصـالح التي قـد تتفـق أحيانـاً مـع شـريعة اللـه، وكثيرا مـا تضـاد أحكـام اللـه وتـأمر بمعصـية اللـه، فهـم بـدخولهم في هـذه المؤسسـات قـد عقـدوا معهـا عقـوداً فيها دلالـة ظـاهرة على قبـولهم للتكليـف ومتـابعتهم لنظـام كفـري وطـاعتهم للطواغيـت المشـرعين فـي أمـرهم ونهـيهم، فهـؤلاء ليسـوا محـل نـزاع ولا يشـك في كفـرهم إلا مـن طمـس اللـه بصـيرته وأعمـاه عـن نـور الوحي مثلهم.



البَابُ الرَّابِعُ

البراءة من الشرك والأقوام المشركة

الفَصْلُ الأَوَّلُ

بيان التلازم بين البراءة من الشرك[1] والبراءة من المشركين

قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[الأنعام:٧٩]، بهذه الكلمات واجه إبراهيم الحنيف قومه بالدعوة إلى التوحيد: فأعلن فيهم البراءة من الشرك بقوله: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾ ، وجهر بالحنيفية وإفراد الله بالعبودية والتوجه للذي فطر السماوات والأرض بقوله: ﴿ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ ﴾ وصدع فيهم بالبراءة منهم بقوله: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾" أي: لست ممن يدين دينكم، ويتّبع ملّتكم أيُّها المشركون"[2]، لست منكم ولا أنتم مني، لكم دينكم وليَّ دين، أنتم على الشرك وأنا على الحنيفية، أنتم المشركون وأنا ومن اتبعنيَّ المسلمون.

إن القضية عند أصحاب الفطر السليمة جد واضحة بقدر صفاء الفطرة وانتفاء الغبش ... إذ لا يتم الدخول في دين الإسلام حتى تُتْرَكَ مِلَةُ الشرك بمفاصلة الآلهة الباطلة وعابديها والبراءة منهم ومما يعبدون من دون الله، والبراءة من الشرك لا تنفك عن البراءة من المشركين، لأن الله عز وجل جعل الميثاق والفطرة حجة على الإشراك به كما قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ

---

[1] **الشرك:** قد عرفه النبي ﷺ بتعريف جامع: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ :" أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: ﴿**أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**﴾ رواه البخاري برقم ٤٤٧٧ ، وعَنْ أَبِي مِجْلَزٍ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ سَأَلَهُ رَجُلٌ، عَنِ الشِّرْكِ؟ فَقَالَ: أَنْ تَجْعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ". رواه ابن أبي حاتم برقم ١٥٤٠٠، وقال السمعاني :"الْإِشْرَاك: هُوَ الْجمع بَين الشَّيْئَيْنِ فِي معنى، فالإشراك بِاللَّه: هُوَ أَن يجمع مَعَ الله غير الله فِيمَا لَا يجوز إِلَّا لله" تفسير السمعاني ١٢١/٢

[2] تفسير الطبري ٤٨٨/١١

أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف ١٨٢]،

قال ابن أبي زمنين: "﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾وجدناهم على ملةٍ فاتبعناهم"[١].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا: لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لَا تُشْرِكَ ـ أَحْسِبُهُ قَالَ: وَلَا أُدْخِلَكَ النَّارَ ـ فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ»[٢].

وقال ابن زيد في قوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ **قال:« الإسلام مُذ خلقهم الله من آدم جميعا، يقرّون بذلك، وقرأ:**﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ قال: فهذا قول الله: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾**بعد**»[٣]، وعن مجاهد ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ﴾ قال:« الإسلام»[٤].

ولا يُعذر المشرك بحال[٥] لأن الحجة قائمةٌ عليه في كل حال، أي لا يقع في الشرع وُجود شرك اختياراً دون مشرك، وليس في دين الله مشرك مسلم إلا في عقول أحفاد

---

[١] تفسير ابن أبي زمنين ٢/١٥٢.

[٢] رواه مسلم برقم (٢٨٠٥)

[٣] رواه الطبري ٩٧/٢٠

[٤] نفس المصدر

[٥] **سرد الأدلة من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ على عدم العذر بالجهل في الشرك بالله تعالى و أنه لا فرق بين المعاند والجاهل ما يلي:**

من كتاب الله:

❁ **قال تعالى:** ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾[الأعراف ٣٠]، قال الزجاج:" يدل على أن **قوماً ينتحلون الإسلامَ ويزعمونَ أن من كان كافراً وهو لا يعلم إنَّه كافر فليس بكافرٍ مُبْطِلُون لأمر نِحْلتِهِمْ**، لأن الله جل ثناؤُه قد أعلمنا أنهم يَحْسَبون أنهمْ مهتدون، **ولا اختلاف بين أهل اللغة في أن الحُسْبَانَ ليس تأْويله غيرَ مَا يُعْلم من معنى حسب**" معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢/ ٣٣١

وقال أبو جعفر: "يقول تعالى ذكره: إن الفريق الذي حق عليهم الضلالة، إنما ضلوا عن سبيل الله وجارُوا عن قصد المحجة، باتخاذهم الشياطين نُصراء من دون الله، وظُهراء **جهلا منهم بخطأ ما هم عليه من ذلك، بل فعلوا ذلك وهم يظنون أنهم على هدى وحق**، وأن الصواب ما أتوه وركبوا، **وهذا من أبين الدلالة** على خطأ قول من زعمَ أن الله لا يعذّب أحدًا على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها، إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها، فيركبها عنادًا منه لربه فيها. **لأن ذلك لو كان كذلك، لم يكن بين**

فريق الضلالة الذي ضلّ وهو يحسَبُ أنه هادٍ. وفريق الهدى، فَرْقٌ وقد فرّق الله بين أسمائهما وأحكامهما في هذه الآية" تفسير الطبري ١٢/٣٨٨

❁ **وقـــــال تعـــــالى:** ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ﴾[التوبة: ٦]، قال الطبري: يقول -تعالى ذكره- لنبيه وإن استأمنك يا محمد من المشركين الذين أمرتك بقتالهم وقتلهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم أحد ليسمع كلام الله منك وهو القرآن الذي أنزله الله عليه ﴿فَأَجِرۡهُ﴾يقول: فأمّنه حتى يسمع كلام الله وتتلوه عليه ﴿ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥ﴾، يقول: ثم رده بعد سماع كلام الله إن هو أبى أن يسلم ولم يتعظ بما تلوته عليه من كلام الله فيؤمن إلى مأمنه .... ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ﴾، يقول: تفعل ذلك بهم من إعطائك إياهم الأمان ليسمعوا القرآن وردك اياهم إذا أبوا الإسلام إلى مأمنهم من أجل أنهم: قوم جهلة لا يفقهون عن الله حجة، ولا يعلمون ما لهم بالإيمان بالله لو آمنوا، وما عليهم من الوزر والإثم لتركهم الإيمان بالله " تفسير الطبري ١٤/١٣٨

وقال البغوي: ﴿حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ﴾ فيما له وعليه من الثواب والعقاب ... ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ﴾أي: لا يعلمون دين الله وتوحيده فهم محتاجون إلى سماع كلام الله. قال الحسن: هذه الآية محكمة إلى قيام الساعة" تفسير البغوي٢/٣١٩.

❁ **وقوله تعالى:** ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾[البينة: ١].

قال البغوي:" ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، وهم اليهود النصارى، وَالْمُشْرِكِينَ، وَهُمْ عَبَدَةُ الْأَوْثَانِ، ﴿مُنفَكِّينَ﴾مُنْتَهِينَ عَنْ كُفْرِهِمْ وَشِرْكِهِمْ وَقَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ زَائِلِينَ مُنْفَصِلِينَ، يُقَالُ: فَكَكْتُ الشَّيْءَ فَانْفَكَّ أَيِ انْفَصَلَ، ﴿مُنفَكِّينَ﴾ لَفْظُهُ مُسْتَقْبَلٌ وَمَعْنَاهُ الْمَاضِي أَيْ حَتَّى أَتَتْهُمُ الحجة الواضحة، يعني مُحَمَّدٍ ﷺ أتاهم بالقرآن فبيّن لهم ضلالتهم وجهالتهم ودعاهم إلى الإسلام والإيمان، فَهَذِهِ الْآيَةُ فِيمَنْ آمَنَ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ، **أَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَمْ يَنْتَهُوا عَنِ الْكُفْرِ حَتَّى أَتَاهُمُ الرَّسُولُ فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ فَآمَنُوا فَأَنْقَذَهُمُ اللَّهُ مِنَ الْجَهْلِ وَالضَّلَالَةِ**" تفسير البغوي ٥/٢٩٠.

❁ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾[الأعراف١٧٩]، قال مجاهد:« ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا﴾**قال: لا يفقهون بها شيئًا من أمر الآخرة** ﴿وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا﴾، **الهدى** ﴿وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآ﴾**الحقَّ، ثم جعلهم كالأنعام سواءً، ثم جعلهم شرًّا من الأنعام، فقال:** ﴿بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ﴾، **ثم أخبر أنهم هم الغافلون**» رواه الطبري برقم ١٥٤٤٨ ، فعطل الله عنهم وسائل الإدراك وجعلهم بمنزلة الأنعام بل هم أضل، وجعلهم من أهل الغفلة ومن أهل النار.

❁ **وقال تعالى:**﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾[الحج٩]، فجعل الله مصير الجاهل الذي يُضل الناس بغير علم نار جهنم، قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ومن الناس من يخاصم في توحيد الله وإفراده بالألوهة بغير علم منه بما يخاصم به ﴿وَلَا هُدٗى﴾يقول: وبغير بيان معه لما يقول ولا برهان" تفسير الطبري ١٨/٥٧٣

❁ **قوله تعالى**: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[المؤمنون١١٧]، قال يحي بن سلام ﴿ لا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾: لا حجة له به" تفسير يحي بن سلام ٢٩٠/١ ، أي سماهم الله كافرين لعبادتهم غير الله بغير حجة ولا علم أي بجهل.

❁ **وقال تعالى**:﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾[الروم٢٩]، قال الطبري:" **اتبعوا أهواءهم، جهلا منهم لحقّ الله عليهم**، فأشركوا الآلهة والأوثان في عبادته، ﴿ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ﴾يقول: فمن يسدّد للصواب من الطرق، يعني بذلك من يوفق للإسلام مَن أضلّ الله عن الاستقامة والرشاد" الطبري ٩٧/٢٠ ، وفي الآية دلالة أن الشرك قرين الجهل.

❁ **وقال تعالى**:﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾[الحج ٧١]، قال أبو حفص سراج الدين الدمشقي:" ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ حجة ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ **عن جهل وليس لهم به دليل عقلي فهو تقليد وجهل**، والقول الذي هذا شأنه يكون باطلاً﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾، أي وما للمشركين من نصير مانع يمنعهم من عذاب الله" اللباب في علوم الكتاب ١٤٦/١٤، وفي الآية دلالة أن الشرك قرين الجهل.

❁ **وقال تعالى**:﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[العنكوت٨] قال السمعاني: " وَقَوله: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾إِنَّمَا قَالَ هَذَا؛ **لِأَن الشّرك كُله عَن جهل**، فَإِن الْعَالم لَا يُشْرك بِاللَّه" تفسير السمعاني ١٦٨/٤

❁ **وقال تعالى**: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾[الزمر٦٤] ،قال حرب الكرماني في مسائله «قُلْتُ لِإِسْحَاقَ: الرَّجُلُ يَقُولُ لِلْمُشْرِكِ إِنَّهُ رَجُلٌ عَاقِلٌ؟ قَالَ: لَا يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ لَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَيْسَتْ لَهُمْ عُقُولٌ» مسائل حرب ٨٨١/٢.

❁ **وقال تعالى**: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[البقرة ١١٨] عَنِ الرَّبِيعِ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ قَوْلُهُ: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ﴾**قَالَ**:« **هُوَ قَوْلُ كُفَّارِ الْعَرَبِ وَرُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ نَحْوُ ذَلِكَ**» رواه ابن أبي حاتم ١١٤١، وقال السمرقندي :" قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُون ﴾ أي: **لا يعلمون توحيد الله تعالى، ومعناه: وقال الجهال من الناس- وهم الكفار**-" تفسير السمرقندي ٨١/١

❁ **وقال تعالى**: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾[الكهف١٠٥].

قال الطبري:" **وهذا من أدَلّ الدلائل على خطأ قول من زعم أنه لا يكفر بالله أحد إلا من حيث يقصد إلى الكفر بعد العلم بوحدانيته**، وذلك أن الله تعالى ذكره أخبر عن هؤلاء الذين وصف صفتهم في هذه الآية، أن سعيهم الذي سعوا في الدنيا ذهب ضلالا وقد كانوا يحسبون أنهم محسنون في صنعهم ذلك، وأخبر عنهم أنهم هم الذين كفروا بآيات ربهم. ولو كان القول كما قال الذين زعموا أنه لا يكفر بالله أحد إلا من حيث يعلم، لوجب أن يكون هؤلاء القوم في عملهم الذي أخبر الله عنهم أنهم كانوا يحسبون فيه أنهم يحسنون صنعه، كانوا مثابين مأجورين عليها، ولكن القول بخلاف ما قالوا، فأخبر جل ثناؤه عنهم أنهم بالله كفرة، وأن أعمالهم حابطة" تفسير الطبري ١٢٨/١٨

وعن أبي الطفيل، قال: قام ابن الكوّاء إلى عليّ، فقال: من الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، قال: ويْلُك أهل حَروراء منهم" رواه ابن أبي حاتم ١٢٧/١٨.

وقال ابن منده: **ذِكْرُ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ الْمُجْتَهِدَ الْمُخْطِئَ فِي مَعْرِفَةِ اللَّهِ ، عَزَّ وَجَلَّ وَوَحْدَانِيَّتِهِ كَالْمُعَانِدِ** قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ ضَلَالَتِهِمْ وَمُعَانَدَتِهِمْ: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ

أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه لَمَّا سُئِلَ عَنِ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا فَقَالَ: كَفَرَةُ أَهْلُ الْكِتَابِ كَانَ أَوَائِلُهُمْ عَلَى حَقٍّ، فَأَشْرَكُوا بِرَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ وَابْتَدَعُوا فِي دِينِهِمْ، وَأَحْدَثُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، فَهُمْ يَجْتَمِعُونَ فِي الضَّلَالَةِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى هُدًى، وَيَجْتَهِدُونَ فِي الْبَاطِلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ، ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا. وَقَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه مِنْهُمْ أَهْلُ حَرُورَاءَ" التوحيد لابن منده ٣١٤/١

والاجتهاد في الأصــول غير مقبول، والمخطئ في ذلك غير معذور بالإجماع، قال أبو محمد ابن أبي زيد القيرواني:" ومن قول أهل السـنة: أنه لا يعذر من أداه اجتهاده إلى بدعة، لأن الخوارج اجتهدوا في التأويل فلم يعذروا إذ خرجوا بتأويلهم عن الصحابة فسـماهم عليه الصلاة والسلام مارقين من الدين، وجعل المجتهد في الأحكام مأجورا وإن أخطأ" الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ ص،١٢١ وهذا إجماع على أنه لا يعذر من أداه اجتهاده إلى بدعة، فكيف بمن أداه اجتهاده إلى الشرك!!، قال اللالكائي «**أجمع أهل السنة و الجماعة على أنّه لا اجتهاد في مسائل الاعتقاد**، و أنه لا مجال للرأي وإعمال العقل فيها، و أنّه لا يسمع مسلم فيها إلا التسليم و الإتباع لعقيدة السلف الصالح، وأنّه من لم يسعه ما وسعهم فلا وسّع الله عليه» شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٣١٥

✿ وقولـه تعـالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم٧]، قَـالَ ابْـنُ عَبَّـاسٍ يَعْنِـي:« الْكُفَّـارُ، يَعْرِفُونَ عُمْرَانَ الدُّنْيَا، وَهُمْ فِي أَمْرِ الدِّينِ جُهَّالٌ» تفسير بن كثير ٣٠٥/٦.

ومن السنة والأثر

✿ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: ﴿ مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ﴾ رواه مسلم ٢٦، وفيه دلالة أن من جهل التوحيد ومعنى لا إله إلا الله دخل النار، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى:﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[الزخرف٨٦] قال السـمعاني :" وَقَوله: ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾مَعْنَاهُ على القَوْل الأول: إِلَّا لمن شـهد بِالْحَقِّ، وَهُوَ من شهد بِلَا إِلَه إِلَّا الله وَقَوله: ﴿ وَهُم يَعْلَمُونَ ﴾ظَاهر الْمَعْنى، **وَمَعْنَاهُ: يشْهدُونَ عَن علم**" تفسير السمعاني ١٢٠/٥.

✿ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، «صَـارَتِ الأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي العَرَبِ بَعْدُ، أَمَّا وَدٌّ كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الجَنْدَلِ، وَأَمَّا سُـوَاعٌ كَانَتْ لِهُذَيْلٍ، وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ، ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجَوْفِ، عِنْدَ سَـبَإٍ، وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا نَسْـرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الكَلاَعِ، أَسْـمَاءُ رِجَالٍ صَـالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّـيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ، أَنِ انْصِـبُوا إِلَى مَجَالِسِـهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُـونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، **حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ العِلْمُ عُبِدَتْ**» رواه البخاري برقم ٤٩٢٠ ومعناه أن عبادة الأصنام كانت بعد ذهاب العلم وحلول الجهل فالشـرك قرين الجهل ، وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ" يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فِي خَفْقَةٍ مِنَ الدِّينِ، **وَإِدْبَارٍ مِنَ الْعِلْمِ**" وراه أحمد ١٤٩٥٤

✿ وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا عذر لأحد في ضـلالة ركبها حسـبها هدى، ولا في هدى تركه حسـبه ضـلالة، فقد بينت الأمور، وثبتت الحجة، وانقطع العذر». شرح السنة للبربهاري ٣٦/١

✿وعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ :﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾[الانفطار٦]فَقَالَ: «غَرَّهُ وَاللَّهِ جَهْلُهُ» رواه ابن أبي حاتم برقم ١٩١٧٤

✿ وَعَـنِ ابْـنِ مَسْـعُودٍ رضي الله عنه: «أَلَا لَا يقلـدنَّ أَحَـدُكُمْ دِينَـهُ رَجُـلًا، إنْ آمَـنَ آمَـنَ، وَإِنْ كَفَـرَ كَفَـرَ، فَإِنَّـهُ لَا أُسْـوَةَ فِي الشـر» أخرجـه الطبراني في المعجـم الكبير (٩ /١٦٦) بـرقم (٨٧٦٤، ٨٧٦٧)، وقـال الهيثمي في المجمـع (١ /١٨٠): رجالـه رجـال الصحيح. فتأمـل قولـه وإن كفـر كفر فجعل التقليد والمتابعة على الكفر كفر ولم يعذره بذلك.

الجهم، لأن الحنيف غير المشرك قال تعالى:﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ ﴾ [الحج ٣١]، قال أبو بكر الصديق: «كان الناس يحجون وهم مشركون فكانوا يسمونهم حنفاء الحجاج، فنزلت﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ ﴾»[١].

وكل من تلبس بالشرك مختاراً يُسمى مشركاً في كل أحواله عالماً كان أو جاهلاً، مُعانداً كان أو مُعرضاً، متأولاً كان أو مُلَبَّساً عليه يحسب أنه من المهتدين، كان قبل الرسالة أو بعدها، حديثُ عهدٍ بإسلام أو يعيش في نائية، إذْ الحجة قائمة عليه بالفطرة والميثاق وهي لا تنفك عنه في جميع هذه الأحول، قال تعالى: ﴿ وَنَفۡسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[الشمس] قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: فبين لها ما ينبغي لها أن تأتي أو تذر من خير أو شرّ أو طاعة أو معصية"[٢]، وعن ابن عباس، قوله: ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴾يقول: بيَّن الخيرَ والشرَّ " وقال :" علَّمها الطاعة والمعصية"[٣]، وقال ابن منده :" ذِكْرُ اسْتِدْلَالِ مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعْوَةُ وَلَمْ يَأْتِهِ رَسُولٌ **قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِيمَانِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِاللَّهِ عَزَّ**

✿ عن الْمُؤَمَّلُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، قَالَ: سَمِعْتُ عُمَارَةَ بْنَ زَاذَانَ يَقُولُ: « بَلَغَنِي أَنَّ الْقَدَرِيَّةَ يُحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ، فَيَقُولُونَ: وَاللَّهِ مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ، **فَيُقَالُ لَهُمْ: إِنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ مِنْ حَيْثُ لَا تَعْلَمُونَ**، قَالَ: وَبَلَغَنِي أَنَّهُ يُقَالُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَنْتُمْ خُصَمَاءُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ » رواه عبد الله في السنة برقم ٨٥٣.

✿ وأخرج عبد بن حميد وَابْن جرير عَن قَتَادَة فِي قَوْله:﴿ ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ ﴾قَالَ: من بعد مَا أَرَاهُم الله من إحْيَاء الْمَوْتَى وَمن بعد مَا أَرَاهُم من أَمر الْقَتِيل ﴿ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةً ﴾**ثمَّ عذر الله الْحِجَارَة وَلم يعْذر شقي ابْن آدم** فَقَالَ ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ ﴾" الدر المنثور ١٩٧/١.

ومن أقوال العلماء

✿ قال المروزي:" وَالْجَهْلُ بِاللَّهِ فِي كُلِّ حَالٍ كُفْرٌ قَبْلَ الْخَبَرِ وَبَعْدَ الْخَبَرِ" تعظيم قدر الصلاة صـ ٥٢٠.

✿ وقَالَ الشَّافِعِيُّ:" لَوْ عُذِرَ الْجَاهِلُ، لِأَجْلِ جَهْلِهِ لَكَانَ الْجَهْلُ خَيْرًا مِنَ الْعِلْمِ إِذْ كَانَ يَحُطُّ عَنْ الْعَبْدِ أَعْبَاءَ التَّكْلِيفِ وَيُرِيحُ قَلْبَهُ مِنْ ضُرُوبِ التَّعْنِيفِ، فَلَا حُجَّةَ لِلْعَبْدِ فِي جَهْلِهِ بِالْحُكْمِ بَعْدَ التَّبْلِيغِ وَالتَّمْكِينِ، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ ﴾" المنثور من القواعد ١٧/٢.

✿ وحكى أبو الحسين الملطي الإجماع على أن الجهل مناط مكفر فقال: "وَمعنى ذَلِك أَن معتزلة بَغْدَاد وَالْبَصْرَة وَجَمِيع أهل الْقبْلَة لَا اخْتِلَاف بَينهم أَن من شكّ فِي كَافِر فَهُوَ كَافِر لِأَن الشاك فِي الْكفْر لَا إِيمَان لَهُ **لِأَنَّهُ لَا يعرف كفرا من إِيمَان** فَلَيْسَ بَين الْأمة كلهَا الْمُعْتَزلَة وَمن دونهم خلاف أَن الشاك فِي الْكَافِر كَافِر" التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ٤٠/١

[١] أخرجه ابن ابي حاتم في تفسيره برقم ١٣٩١٦

[٢] تفسير الطبري ٤٥٤/٢٤

[٣] نفس المصدر

وجَـــلَّ قَبْـــلَ الرّسَــالَةِ: ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[1].

وعليه فالبراءة من الشرك تقتضي حتماً البراءة من المشركين حيث لا يُتصوَّر شرعا وجود شرك دون مشرك، والأدلة الواردة في الأولى دالة على الثانية كقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف ٢٨]، فهي في البراءة من العابدين ومما يعبدون وجاء تفصيلها في قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾[الممتحنة ٤]، فَقدَّم البراءة من العابدين لأنها تتضمن البراءة مما يعبدون، فهي براءة من العامل وعمله ومن العابد وعبادته... إذاً فمفاصلةُ الشرك كله لا تتم إلا بالبراءة من أهله واعتقاد أنهم على دين باطل، فمن حقَّق هذه المفاصلة تحقق بقوله: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ .

وصاحبُ الفطرة السليمة لا يستطيع أن يَتصوّر أن يكون المرءُ على الحق وهو يرى الباطل حقاً، قال تعالى: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾[يونس ٣٢]، وكيف يكون المرء مُسلما وهو يرى المشركين على دينه؟ فهذا قطعاً لا يعرف الإسلام من الشرك ... وكيف لرجلٍ يجهلُ ابتداءً حقيقة الإسلام يكون معتنقاً له، وكيف يُعَدُّ من أهله وهو لا يعرف مدلوله ابتداءً، فالاعتقاد فرع عن المعرفة فإذا جهل حقيقة عقيدةٍ ما كيف يكون من المعتنقين لها ويُعَدُّ من أهلها؟ ... إنها واضحة عند أصحاب الفطر السليمة، وبهذا الوضوح كذلك تقررت في كتاب الله: إن الإسلام لا ينعقد إلا بالبراءة من المشركين كما سيأتي بيانه ـ بحول الله وقوته ـ.

وفي تقرير ذلك نقول أن النَّبي ﷺ بُعِثَ في قوم مشركين جاهليين أهلُ فترة وغفلة، فلما دعاهم إلى التوحيد قالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾[ص٥]،

[1] كتاب التوحيد ٣٠٦/١

وقـــال فـــيهم تعـــالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾[الصـافات٣٦] ، فالـدعوة إلى التوحيـد التي سـبق تفصـيلها في فصـل ـ الاستسـلام للـه بالتوحيـد ـ قُوبِلَـت بـالكفر والصَّـدِ والعِنـاد، قـال تعـالى: ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾[الأنعـام٦٦]، وفـي المقابـل اصـطفى اللـه أهـل الهدايـة مـن السـابقين الأولـين فأجـابوا داعيَّ الإسـلام ... ولا شـك أن الخـارج مـن الجاهليـة إلى الإسـلام يـرى قومـه على ضـلالة وأنهـم على ديـن باطـل وليسـوا على شـيء مـن الحـق، وهـذا المعنى أدركـه عَمْـرُو بْـنُ عَبَسَـةَ السُّـلَمِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بفطرتـه حيـث قَـالَ: «كُنْـتُ وَأَنَـا فِي الْجَاهِلِيَّـةِ أَظُـنُّ أَنَّ **النَّـاسَ** عَلَى ضَـلَالَةٍ، وَأَنَّهُـمْ لَيْسُـوا عَلَى شَـيْءٍ وَهُـمْ يَعْبُـدُونَ الْأَوْثَـانَ»[١]، وأدركـه زيـد بـن عمـر بـن نفيـل كـذلك، فعَـنْ أَسْـمَاءَ بِنْـتِ أَبِي بَكْـرٍ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُمَـا، قَالَـتْ: «رَأَيْـتُ زَيْـدَ بْـنَ عَمْـرِو بْنِ نُفَيْـلٍ قَائِمًـا مُسْـنِدًا ظَهْـرَهُ إِلَى الكَعْبَـةِ يَقُـولُ: يَـا مَعَاشِـرَ قُـرَيْشٍ، **وَاللَّـهِ مَـا مِـنْكُمْ** عَلَى دِيـنِ إِبْـرَاهِيمَ غَيْـرِي»[٢]، وأدركهـا غيـرهم كمـا روى عَـنْ زَيْـدِ بْـنِ أَسْـلَمَ فِي قَوْلِـهِ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾ [الزمـر ١٧]،قَـالَ:« نَزَلَـتْ هَاتَـانِ الْآيَتَـانِ فِي ثَلَاثَـةِ نَفَـرٍ كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّـةِ يَقُولُـونَ: لَا إِلَـهَ إِلا اللَّـهُ. فِي زَيْـدِ بْـنِ عَمْـرِو بْـنِ نُفَيْـلٍ، وَأَبِـي ذَرٍّ الغفـاري، وَسَـلْمَانَ الْفَارِسِـيِّ.[٣]، وعـن أَبِـي الطُّفَيْـلِ، حَـدَّثَنِي سَـلْمَانُ الْفَارِسِـيُّ قَـالَ: «كُنْـتُ رَجُـلًا مِـنْ أَهْـلِ جَـيٍّ، وَكَـانَ أَهْـلُ قَرْيَتِي يَعْبُـدُونَ الْخَيْـلَ الْبُلْـقَ، **وَكُنْـتُ أَعْـرِفُ أَنَّهُـمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ**» الحديث[٤].

لـذلك قررنـا أن البـراءة مـن المشـركين تُـدرَك بـالفطرة ومـن لـم يحقـق البـراءة مـن المشـركين فهـو في مرتبـة المشـرك الـذي لـم يحقـق البـراءة مـن الشـرك للـتلازم بـين البـراءتين، فالمُوحـد ابتـداءً مُفَـارِقٌ لملـة الشـرك إلى ديـن الإسـلام، وهـذا يقتضـي منـه

[١] رواه مسلم برقم ٢٩٤

[٢] رواه البخـاري بـرقم ٣٨٢٨، قـال محمـد بـن إسـحاق:" قَـالَ ابْـنُ إِسْـحَاقَ: وَأَمَّـا زَيْـدُ بْـنُ عَمْـرِو بْـنِ نُفَيْـلٍ فَوَقَـفَ فَلَـمْ يَـدْخُلْ فِي يَهُودِيَّـةٍ وَلَا نَصْـرَانِيَّةٍ، **وَفَـارَقَ دِيـنَ قَوْمِـهِ، فَـاعْتَزَلَ الْأَوْثَـانَ** وَالْمَيْتَـةَ وَالـدَّمَ وَالـذَّبَائِحَ الَّتِي تُذْبَـحُ عَلَى الْأَوْثَـانِ وَنَهَى عَـنْ قَتْـلِ الْمَوْءُودَةِ ، وَقَالَ: أَعْبُدُ رَبَّ إبْرَاهِيمَ، وَبَادَى قَوْمَهُ بِعَيْبِ مَا هُمْ عَلَيْهِ. سيرة ابن هشام ٢٢٥

[٣] رواه ابن ابي حاتم برقم ١٨٣٨٠

[٤] رواه الطبري في المعجم الكبير برقم ٦٠٧٣

اعتقاد بُطلان ما كان عليه والبراءة من قومه واعتقاد أنهم على دين باطل، وأنه قد فارق دينهم إلى الدين الحق وهذا القدر يدركه الموحد بفطرته.

ولقد كان مشركي قريش يعلمون أن هذه الدعوة المحمَّدية تقتضي ترك عبادة الآلهة وتكفير الآباء وتسفيه عقول العابدين كما روى ابن إسحاق في السيرة قال:" ثم إن أبا بكر لقي رسول الله ﷺ فقال: **أحق ما تقول قريش يا محمد من تركك آلهتنا، وتسفيهك عقولنا وتكفيرك آباءنا؟** فقال رسول الله ﷺ:﴿ يا أبا بكر إنّي رسول الله ونبيه، بعثني لأبلغ رسالته وأدعوك إلى الله بالحق، فو الله إنه للحق أدعوك، إلى الله يا أبا بكر، وحده لا شريك له، ولا يعبد غيره، والموالاة على طاعته وأهل طاعته، وقرأ عليه القرآن، فلم يفر، ولم ينكر، فأسلم وكفر بالأصنام، وخلع الأنداد، وأقرَّ بحق الإسلام، ورجع أبو بكر وهو مؤمن مصدِّق﴾[١]

وهذا المعنى جاء واضحاً في كتاب الله في غير ما موضع ومنه سورة الكافرون التي سماها النَّبي ﷺ: البراءة من الشرك، فعَنْ فَرْوَةَ بْنِ نَوْفَلٍ، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «فَمَجِيءُ مَا جَاءَ بِكَ؟» قَالَ: قُلْتُ: جِئْتُ يَا رَسُولَ اللهِ لِتُعَلِّمَنِي شَيْئًا أَقُولُهُ عِنْدَ مَنَامِي، قَالَ: " إِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ فَاقْرَأْ ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[الكافرون: ١] ثُمَّ نَمْ عَلَى خَاتِمَتِهَا، فَإِنَّهَا بَرَاءَةٌ مِنَ الشِّرْكِ »[٢]. ووجه الدلالة أن سورة الكافرون مُفتَتَحَةٌ ومُختَتَمَةٌ بالبراءة من الكافرين ومن دينهم فسمَّاها النَّبي ﷺ براءة من الشرك، قَالَ الْقُتَيْبِيُّ:" وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا: إِنْ سَرَّكَ أَنْ نَدْخُلَ فِي دِينِكَ عَامًا فَادْخُلْ فِي دِينِنَا عَامًا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ: لَكُمْ دِينُكُمْ الشِّرْكُ، وَلِيَ دِينِ الْإِسْلَامُ"[٣]، وعَنْ عَمْرِو بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: كَانَ أَبُو الْجَوْزَاءِ يَقُولُ: «أَكْثِرُوا قِرَاءَةَ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ وَ **ابْرَؤُوا مِنْهُمْ**»[٤].

والبراءة من الشرك هي: ترك الشرك واعتقاد عدم أحقية الآلهة الباطلة للعبادة، وينقضها التلبُس بالشرك.

وأما البراءة من المشركين فهي: مُفارقة المشركين في الدين واعتقاد أنهم على دين باطل، وينقضُها أسلمة المشركين واعتقاد أنهم معذورون بالجهل أو التأويل.

---

[١] سيرة بن اسحاق ١٣٩/١

[٢] رواه النسائي برقم ١٠٥٦٩

[٣] تفسير البغوي ٣١٨/٥

[٤] فضائل القرآن وما أنزل من القرآن بمكة وما أنزل بالمدينة ١٠٨/١

والتلازم بينهما: يقتضي أنه لا يصح ترك الشرك إلا باعتقاد أن أهله على دين باطل وعلى غير ملَّة إبراهيم، ومن سمَّى المشرك مسلماً فقد سمَّى الشرك إسلاماً وهو لا يعرف الكفر من الإسلام، وحكى أبو الحسين الملطي الإجماع على أن الجهل مناط مكفر فقال: "وَمعنى ذَلِك أَن معتزلة بَغْدَاد وَالْبَصْرَة وَجَمِيع أهل الْقبْلَة لَا اخْتِلَاف بَينهم أَن من شكّ فِي كَافِر فَهُوَ كَافِر لِأَن الشَّاك فِي الْكفْر لَا إِيمَان لَهُ **لِأَنَّهُ لَا يعرف كفرا من إِيمَان** فَلَيْسَ بَين الْأمة كلهَا الْمُعْتَزلَة وَمن دونهم خلاف أَن الشَّاك فِي الْكَافِر كَافِر"[١]، لا كما يدعيه الجهمية أن الجهل عذر مُبرّر بل هو مناطٌ مُكفّر، قَالَ أَبُو سُلَيْمَان: سألت أبا سَلَمَة بن شبيب عَنْ علم الحلواني، قَالَ: يرمى في الحش. ثم قَالَ أَبُو سَلَمَة: من لم يشهد بكفر الكافر فهو كافر"[٢].

المطلب الأول: الأدلة الواردة في البراءة من الشرك

والآيات الواردة في البراءة من الشرك جاء في سياق تفسير كلمة التوحيد: لا إله إلا الله، وبيان حقيقة ملَّة إبراهيم ودعوة الرُّسل أقوامهم إلى الإسلام، وهي كثيرة منها:

❁ قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾[الزخرف ٢٨]، عن السديّ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي ﴾ قال:« خلقني. وقوله: ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ ﴾ يقول تعالى ذكره: وجعل قوله: ﴿ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي ﴾ وهو قول: لا إله إلا الله، كلمة باقية في عقبه، وهم ذريّته، فلم يزل في ذريّته من يقول ذلك من بعده»[٣].

فالكلمة الباقية هي لا إله إلا الله كما قال مجاهد وقتادة وغيرهم[٤] وفُسرت بالبراءة من الشرك وإفراد الله بالعبودية، ومثله قوله تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا ﴾[النساء ٣٦]، وقوله: ﴿ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا ﴾[الأنعام ١٥١].

---

[١] التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ١/٤٠

[٢] تاريخ بغداد ٣٧٧/٧

[٣] تفسير الطبري ٢١/ ٥٨٩

[٤] نفس المصدر

❁ وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[الأنعام ١٩]، وقال تعالى: في سياق قصة عاد من قول هود: ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾[هود٥٥]، قال الطبري:" وهذا خبر من الله تعالى ذكره، عن قول قوم هود: أنّهم قالوا له إذ نصح لهم ودعاهم إلى توحيد الله وتصديقه وخلع الأوثان والبراءة منها: لا نترك عبادة آلهتنا، وما نقول إلا أن الذي حملك على ذمّها والنّهي عن عبادتها، أنه أصابك منها خبَلٌ من جنونٌ"[١].

❁ وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[الأنبياء٥٣]، عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ قَالَ: «عابدون. وفي قوله: ﴿ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾ أي عَلَى دين، وإنَّا متَّبِعوهم عَلَى ذَلِكَ»[٢]، وفيه دلالة على أن الشرك ملّة ودين ولا يصحُّ الإسلام إلا بالبراءة منه ومن أهله المعتنقين له، إذْ البراءة من الدين تقتضي البراءة من أهله وإلا لكانت لغواً.

❁ وآية الممتحنة: جمعت ما افترق في غيرها وبيَّنت صريح الملة الحنيفية وفسرت الكلمة الباقية ونصت على الأسوة الحسنة التي أُمرت هذه الأمة باتّباعها، قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾[الممتحنة ٤] ،قال أبو جعفر وقوله: ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ يقول: حين قالوا لقومهم الذين كفروا بالله وعبدوا الطّاغوت: أيها القوم إنا برآء منكم، ومن الذين تعبدون من دون الله من الآلهة والأنداد، وقوله: ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا ﴾ يقول جلّ ثناؤه مخبرا عن قيل أنبيائه لقومهم الكفرة: كفرنا بكم، أنكرنا ما كنتم عليه من الكفر بالله وجحدنا عبادتكم ما تعبدون من دون

---

[١] تفسير الطبري ٣٦١/١٥

[٢] رواه ابن أبي حاتم في تفسيره برقم ١٣٦٦٩

اللـه أن تكـون حقًّـا، وظهـر بيننـا وبيـنكم العـداوة والبغضـاء أبـدًا **علـى كفـركم باللـه**، وعبـادتكم مـا سـواه، ولا صـلح بيننـا ولا هـوادة، ﴿ حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾، يقـول: حتى تُصـدّقوا باللـه وحـده، فتوحِّـدوه، وتفـرِّدوه بالعبـادة"[1]، وقـال البغـوي: "يَـأْمُرُ حَاطِبًـا وَالْمُـؤْمِنِينَ بِالِاقْتِـدَاءِ بِـإِبْرَاهِيمَ عَلَيْـهِ الصَّلَاةُ وَالسَّـلَامُ، وَالَّـذِينَ مَعَـهُ مِـنَ الْمُـؤْمِنِينَ فِي التَّبَرُّؤِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ"[2].

وجاء في السنة

❁ عَـنْ أَبِي مَالِـكٍ، عَـنْ أَبِيـهِ، قَـالَ: سَـمِعْتُ رَسُـولَ اللـهِ ﷺ، يَقُـولُ ﴿مَـنْ قَـالَ: لَا إِلَـهَ إِلَّا اللـهُ، وَكَفَـرَ بِمَـا يُعْبَـدُ مَـنْ دُونِ اللـهِ، حَـرُمَ مَالُـهُ، وَدَمُـهُ، وَحِسَـابُهُ عَلَى اللـهِ﴾[3]، قـال عبـد الـرحمن بـن حسـن: "وأمـا قولـه ﷺ في الحـديث الصـحيح: ﴿وكفـر بمـا يعبـد مـن دون اللـه﴾، فهـذا شـرط عظـيم لا يصـح قـول: لا إلـه إلاَّ اللـه إلاَّ بوجـوده، وإن لـم يوجـد لـم يكـن مـن قـال: لا إلـه إلاَّ اللـه معصـوم الـدم والمـال، ولأن هـذا هـو معنى: لا إلـه إلاَّ اللـه، فلـم ينفعـه القـول بـدون الإتيـان بـالمعنى الـذي دلَّ عليـه، مـن: **تـرك الشـرك والبراءة منـه وممـن فعلـه**، فـإذا أنكـر عبـادة كـل مـا يعبـد مـن دون اللـه وتبرأ منـه وعـادى مـن فعـل ذلـك، صـار مسـلمًا معصـوم الـدم والمـال، وهـذا معنى قـول اللـه تعـالى: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة ٢٥٦] "[4].

❁ عَـنْ أَبِي هُرَيْـرَةَ، قَـالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بَـارِزًا يَوْمًـا لِلنَّـاسِ، فَأَتَـاهُ جِبْرِيـلُ فَقَـالَ: مَـا الإِيمَـانُ؟ قَـالَ: ﴿الإِيمَـانُ أَنْ تُـؤْمِنَ بِاللَّـهِ وَمَلاَئِكَتِـهِ، وَكُتُبِـهِ، وَبِلِقَائِـهِ، وَرُسُـلِهِ وَتُـؤْمِنَ بِالْبَعْـثِ». قَـالَ: مَـا الإِسْـلاَمُ؟ قَـالَ: **" الإِسْـلاَمُ: أَنْ تَعْبُـدَ اللَّـهَ، وَلاَ تُشْـرِكَ بِـهِ شَـيْئًا**، وَتُقِـيمَ الصَّـلاَةَ، وَتُـؤَدِّيَ الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ﴾[5].

❁ وعَـنْ إِسْـمَاعِيلَ بْـنِ سَـعِيدٍ، قَـالَ: سَـأَلْتُ أَحْمَـدَ عَـنِ الْإِسْـلَامِ، وَالْإِيمَـانِ؟ فَقَـالَ: «الْإِيمَـانُ قَـوْلٌ وَعَمَـلٌ، وَالْإِسْـلَامُ الْإِقْـرَارُ» قَـالَ: وَسَـأَلْتُ أَحْمَـدَ عَـنْ مَـنْ قَـالَ فِي الَّـذِي قَـالَ جِبْرِيـلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، إِذْ سَـأَلَهُ عَـنِ الْإِسْـلَامِ، فَقَـالَ لَـهُ: فَـإِذَا فَعَلْـتُ ذَلِـكَ فَأَنَـا مُسْـلِمٌ؟ فَقَـالَ نَعَـمْ، فَقَـالَ قَـائِلٌ:

---

[1] تفسير الطبري ٣١٧/٢٣

[2] تفسير البغوي ٧١/٥

[3] رواه مسلم برقم ٣٧

[4] «مجموعة الرسائل والمسائل النجدية» (٢/ ٢٧، ٢٨).

[5] رواه البخاري برقم ٥٠

فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا الَّذِي قَالَ جِبْرِيلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَإِنَّهُمْ مُسْلِمُونَ أَيْضًا فَقَالَ: «**هَذَا مُعَانِدٌ لِلْحَدِيثِ**»[1] ومما جاء في حديث جبريل **" الإِسْلاَمُ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ، وَلاَ تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا".**

❁ وعَنْ جَرِيرٍ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، اشْتَرِطْ عَلَيَّ فَأَنْتَ أَعْلَمُ بِالشَّرْطِ، قَالَ: ﴿ أُبَايِعُكَ عَلَى أَنْ تَعْبُدَ اللهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَنْصَحَ الْمُسْلِمَ، وَتَبْرَأَ مِنَ الْمُشْرِكِ﴾[2].

وقال البربهاري:" ولا نخرج أحدا من أهل القبلة من الإسلام حتى يرد آية من كتاب الله، أو يرد شيئا من آثار رسول الله ﷺ، أو يذبح لغير الله، أو يصلي لغير الله، **فإذا فعل شيئا من ذلك فقد وجب عليك أن تخرجه من الإسلام**"[3].

المطلب الثاني: الأدلة الواردة في البراءة من المشركين

وبمثل هذا الوضوح والتنصيص في الدلالة كذلك جاءت الأدلة الواردة في البراءة من المشركين ومنها:

❁ **قال تعالى**: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[الأنعام١٤] **وقال تعالى**: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[الأنعام:٧٩]، **وقوله تعالى**: ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[الممتحنة ٤] الآية، فهذه براءة الأنبياء من المشركين، ، فالبراءة من الشرك تقتضي البراءة من المشركين والبراءة من الأوثان تقتضي البراءة من عابديها كما سبق بيانه في آية الممتحنة، ومثل ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾[مريم ٤٨]،فقدَّم اعتزالهم على اعتزال معبوداتهم وكقوله تعالى: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾[الكهف ١٦]. فأشار إلى اعتزالهم واعتزال ما يعبدون من دون الله، وقال

[1] رواه الخلال في السنة برقم ١٠٩٦

[2] رواه أحمد برقم ١٩٢٣٣

[3] شرح السنة للبربهاري ٦٤

تعـــالى: ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[يـــونس١٠٥]، قـــال أبـــو جعفـــر: ويعنـــي بقولـــه: ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾، أقـــم نفســـك علـــى ديـــن الإســـلام، ﴿ حَنِيفًا ﴾ مسـتقيمًا عليـه، غيـر معـوَجّ عنـه إلى يهوديـةٍ ولا نصـرانيةٍ، ولا عبـادة وثـن ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ يقـول: ولا تكـوننَّ ممـن يشـرك في عبـادة ربِّـه الآلهـةَ والأنـدادَ، فتكون من الهالكين"[١].

❁ **وقال تعالى**: ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾[الشـورى١٥]، قـال البغـوي:" أَيْ: نَحْـنُ بُـرَآءُ مِـــنْكُمْ"[٢]، وقـــال تعـــالى:﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[يـــونس٤١]، قـــال الســـمعاني :" قَوْلـــه: ﴿أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾هَـــذَا مثـــل قَوْلـــه: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ومثـــل قَوْلـــه تَعَـــالَى: ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾"[٣].

فتقـرَّر بـذلك أنَّـه لا يصـحُّ إسـلام المـرء حتى يحقِّـق البراءة مـن الشـرك والمشـركين بدلالـة النُّصـوص المفسـرة لكلمـة التوحيـد، وبإجمـاع جميـع أهـل السـنة والجماعـة مـن الصحابة والتـابعين ومـن بعـدهم، كمـا حكى الإجمـاع عبـد الـرحمن بـن حسـن حيـث قـال: "أجمـع العلمـاء سـلفًا وخلفًـا مـن الصـحابة والتـابعين والأئمـة، وجميـع أهـل السـنة: أن المـرء لا يكـون مسـلمًا إلاَّ بـالتجرد مـن الشـرك الأكبر، **والبراءة منـه وممـن فعلـه**، وبغضـهم ومعاداتهم بحسب الطاقة والقدرة، وإخلاص الأعمال كلها لله"[٤].

وإذا تحقَّـق الـتلازم بـين الشـرك والمشـرك تحقَّـق الـتلازم بـين البراءة مـن الشـرك والبراءة مـن المشـرك، فـلا إلـه إلا اللـه ركنهـا البراءة مـن الشـرك والمشـركين ومـن لـم يـأت بهـا لا يصح إسـلامه ولـيس مـن أهـل لا إلـه إلا اللـه، وهي نفسـها البراءة مـن الأديـان المتضـمنة البراءة مـن الـدين الباطـل وعُبَّـادِه المشـركين كمـا قـال إسـحاق بـن منصـور الكوسـج: قُلْـتُ

---

[١] تفسير الطبري ٢١٢/١٥

[٢] تفسير الطبري١٩٦/٧

[٣] تفسير السمعاني ٣٨٥/٢

[٤] الدرر السنية: (١١/ ٥٤٥).

لإسحاقَ: إذا جَاء رجلٌ من أهلِ الذِّمَّةِ فَقال: اعرضْ عليَّ الإسلامَ؟ قَال: فإنَّ السنةَ في ذَلِكَ أَنْ يعرض عليه أن يقولَ: أشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأشهد أنَّ محمَّدًا رسولُ اللَّهِ، وأقرَّرتُ بكلِّ ما جاء مِن عندِ اللَّهِ **وبرئتُ من كلِّ دينٍ سوى دينِ الإسلامِ**، فهذا العرض التام الذي اجتمع العلماءُ على قبول ذَلِكَ، وصيروه دخولًا في الإسلام **وبراءة من الشركِ**، فإنِ اقتصرَ العارضُ على المشركِ الإسلام على شهادةِ أن لا إله إلا اللَّه، وأنَّ محمدًا رسولُ اللَّهِ [فهذا] دخول في الإسلام، **إذا كان ذَلِكَ على معنى الدخول في الإسلام** كما قَالَ النبيُّ ﷺ حيث دخل مدراس اليهود فعرض على اليهوديِّ الإسلام قدر هذا، فلما قَالَ ومات اليهودي، قَالَ النبيُّ ﷺ: "صَلُّوا على أخيكم". فإنَّما احتطنا أَنْ يكونَ الذي يعرض على الذميِّ الإسلامَ، يعرضُ عليه الخصال الأربع، كي لا يكون اختلافًا من العلماءِ"[١].

وعَنْ سُلَيْمٍ أَبِي عَامِرٍ: «أَنَّ وَفْدَ الْحَمْرَاءِ أَتَوْا عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ يُبَايِعُونَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ وَعَلَى مَنْ وَرَاءَهُمْ، فَبَايَعَهُمْ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَأَنْ يُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، وَيَصُومُوا، **وَيَدَعُوا عِيدَ الْمَجُوسِ**، فَلَمَّا قَالُوا: نَعَمْ، بَايَعَهُمْ »[٢].



[١] مسائل الكوسج" ٣٣٧٠

[٢] السنة للخلال برقم ١١٠٢

الفَصْلُ الثَّانِي

أنواع الأدلة الواردة في تكفير المشركين

قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام ١٢٢] قال ابن عباس: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾، يعني:« من كان كافرًا فهديناه ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾، يعني بالنور: القرآنَ، من صدَّق به وعمل به﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، يعني: بالظلمات، الكفرَ والضلالة»[1].

إنَّ التوحيد يُنشئُ في القلبِ حياةً بعد موت، وفي البصيرةِ نوراً بعد ظُلمة، نورٌ يبدو تحت أشعته كلُ شيء على حقيقتهِ في ميزان العقيدة الصحيحة، التي تُصنِّفُ الناس بين مؤمن وكافر... إنها رؤية جديدة لم تكن قَبْلَ هذِه الحياة لذلك القلب الذي نوَّرَهُ اللهُ بِنُور الإيمان، فَيكْشِفُ له ظاهرَ الناس ومَعالمَ الطريق وسواءَ السبيل ... إن هذا القلب الذي نوَّرَهُ اللهُ بِنورِ التوحيد لا يجد حرجاً في تكفير من كفرهم الله عزَّ وجل ولو كانت الأرض كلها، إذا كان يسير بهذا النور وقلبه ينبض بهذه الحياة، فهو متبعٌ لكتاب ربه على بينةٍ من أمره فلا يترك اليقين إلى وساوس الشياطين، ولا يميل عن ملة إبراهيم إلى أهواء المخلوقين، وله في أبيه إبراهيم الأُسوة الحسنة لما قال: «يَا سَارَةُ: لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرَكِ»"[2] وعن ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[النحل ١٢٠] قَالَ:« كَانَ عَلَى الإسلام ولم يكن في زمانه مِنْ قَوْمِهِ أحد عَلَى الإسلام غيره، فلذلك قَالَ الله: ﴿كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾»[3]، وعَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾: «كَانَ مؤمنًا وحده والناس كفار كلهم»[4].

---

[1] تفسير الطبري برقم ١٣٨٤٢

[2] رواه البخاري برقم ٣٣٥٨

[3] رواه ابن أبي حاتم برقم ١٢٦٨١

[4] رواه ابن أبي حاتم في تفيره برقم ١٢٦٨٢

وفي هذا الفصل سوف نُقيم أنواع الأدلة على كفر المشركين بين العين والجنس والقرى والأقوام فنقول:

المطلب الأول: تكفير المعين

وهو تكفير المشركين بأعيانهم، والله عز وجل في كتابه الكريم كفَّر أعياناً بأسمائهم كأبي لهب وامرأته كما في قوله: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴾، وكفَّر فرعون وهامان وجنودهما كما في قوله: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴾[القصص٨]، وكفَّر أعيانا بأوصافهم كالوليد بن المغيرة، كما روي عَنْ مُجَاهِدٍ في قوله: ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾[القلم١٠]، قَالَ:« نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ ..»[1]، والأخنس بن شريق كما قال السُّدِّيّ في قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾[البقرة٢٠٤]: «نَزَلَتْ فِي الأَخْنَسِ بْنِ شَرِيقٍ الثَّقَفِيِّ، وَهُوَ حَلِيفٌ لِبَنِي زُهْرَةَ»[2].

وكفَّر اللهُ عيناً مشاعةً تلبَّست بوصف الشرك كقوله: ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴾[الزمر٨]، قال السمعاني: "قَالَ أهل التَّفْسِير: نزلت هَذِه الْآيَة فِي أبي حُذَيْفَة بن الْمُغيرَة بن عبد الله المَخْزُومِي، وَقيل: فِي كل كَافِر"[3]، وقوله: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾[المؤمنون١١٧]،قال البغوي:" ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾، أَيْ: لَا حُجَّةَ ولا بيّنة له به لِأَنَّهُ لَا حُجَّةَ فِي دَعْوَى الشِّرْكِ"[4].

والله عز وجل أطلق تكفير المعين ممن أشرك بالله تعالى، ولم يقيده بالتعريف والبيان فضلاً عن إقامة الحجة وفهمها وإزالة الشبهة وكشفها، ومن قيده ـ كالجراجسة

[1] رواه ابن أبي حاتم برقم ١٩٠٣١

[2] رواه ابن أبي حاتم برقم ١٩٠٣١

[3] تفسير القرآن للسمعاني ٤/٤٦٠

[4] تفسير البغوي ٣/٣٧٨

والمداخلة- بذلك يحتاج إلى دليل ولا دليل إلا التحكُّم والتجهُّم، بل منهج القرآن: تكفير من أشرك بالله مطلقا سواءً أكانت عيناً أو جنساً أو قوماً وليس في النصوص شروط وموانع في هذا الباب - الشرك بالله -، بل من وقع في الشرك وقع الشرك عليه وكان مشركاً بالله تعالى، ويلزم من قال بالتعريف للمشركين أن يقول بالتعريف لليهود والنصارى والمجوس ولا يكفرهم إلا بعد التعريف لأنَّ الكل فاقدٌ للإسلام وهذا ظاهر جداً بالاعتبار إذ كلها ملل غير الإسلام، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾[الحج١٧]، قال قَتَادَة: «الصابئون قوم يعبدون الملائكة ويصلون القبلة ويقرؤون الزبور وَالْمَجُوسَ عبدة الشمس والقمر والنيران، وأما الَّذِينَ أَشْرَكُوا فهم عبدة الأوثان ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾قَالَ: الأديان ستة: فخمسة للشيطان، ودين لله عز وجل»[1]، فما الفرق بين ملة وملة إلا التحكُّم والهوى، قال تعالى: ﴿ أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ ﴾[القمر٤٣]،قال الربيع بن أنس في قوله: ﴿ أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ ﴾: «كفار هذه الأمة»[2].

أما الانتساب إلى الإسلام مع البقاء على ملَّة الشرك واستدامته وعدم اجتناب الطَّاغوت وطاعته ولا البراءة من المشركين وتكفيرهم، لا يصير به المرء مسلماً فتكون بذلك دعوى لا تُصحح إسلامهم ولا يترتب عليها أحكامٌ في دين الله عزو جل، وهو انتسابٌ لا اعتبار له في الشرع، وأهله هم من أهل الشرك وملَّة الكفر سواءً بسواء، قال تعالى: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾[التوبة١١] عَنِ الرَّبِيعِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ يَقُولُ: «تَوْبَتُهُمْ خَلْعُ الأَوْثَانِ وَعِبَادَتِهَا »، وعَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ قَوْلُهُ: «فَإِنْ تَابُوا مِنَ الشِّرْكِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَمْ تَقْتُلْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ»، وَرُوِيَ عَنِ الضَّحَّاكِ: «فَإِنْ تَابُوا مِنَ الشِّرْكِ»[3].

[1] رواه ابن ابي حاتم برقم ١٣٨٠٧

[2] تفسير الطبري ٦٠١/٢٢

[3] رواه ابن أبي حاتم في تفسيره ٩٢٧٢ و٩٢٧٣

وقـال تعـالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴾[طـه:٨٢] ، قـال شَـمِرِ بْـنِ عَطِيَّـةَ: «لِمَـنْ تَـابَ مِـنَ الشِّـرْكِ، وَآمَـنَ بِمُحَمَّـدٍ ﷺ وَأَدَّى الْفَـرَائِضَ ﴿ ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴾قَـالَ: «لِلسُّنَّةِ»[1].

وقـال تعـالى: ﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[آل عمـران٦٧] عـن عـامر، قـال: «قالـت اليهـود: إبـراهيم علـى ديننـا وقالـت النصـارى: هـو علـى ديننـا. فـأنزل اللـه عـز وجـل: ﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا ﴾الآيـة، فأكـذبهم اللـه، وأدحـض حجـتهم يعني: اليهـودَ الـذين ادّعـوا أن إبـراهيم مـاتَ يهوديًـا». وعـن الربيع مثله"[2].

فنسـبة اليهـود والنصـارى وعُبَّـاد الأوثـان أنفسـهم إلى ملَّـة إبـراهيم لـم يصحّح ديـنهم، ولا اعتبـار لـه في الأسـماء ولا في الأحكـام، ويـدل عليـه قولـه تعـالى: ﴿ أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴾[آل عمـران٨٣]، قـال البغـوي:" قَوْلُـهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: : ﴿ أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ ﴾، وَذَلِـكَ أَنَّ أَهْـلَ الْكِتَـابِ اخْتَلَفُـوا **فَـادَّعَى كُـلُّ وَاحِـدٍ أَنَّـهُ عَلَـى دِيـنِ إِبْـرَاهِيمَ عَلَيْـهِ السَّـلَامُ** وَاخْتَصَـمُوا إِلَى رَسُـولِ اللَّـهِ ﷺ، فَقَضَى النَّبِيُّ ﷺ بينهم أن: «كِلَا الْفَـرِيقَيْنِ بَـرِيءٌ مِـنْ دِيـنِ إبـراهيم عليـه السـلام، وأن دينـه الإسـلام» ، فَغَضِـبُوا وَقَـالُوا: لَا نَرْضَى بِقَضَـائِكَ وَلَا نَأْخُـذُ بِـدِينِكَ، فَـأَنْزَلَ اللَّـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ ﴾، قـرأ أهـل الْبَصْـرَةِ وَحَفْـصٌ عَـنْ عَاصِـمٍ يَبْغُـونَ بِالْيَـاءِ لِقَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾، وَقَـرَأَ الْآخَـرُونَ بِالتَّـاءِ لِقَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم ﴾،﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ ﴾: **خَضَعَ وَ انْقَادَ**"[3].

وقولـه تعـالى:{ فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ [آل عمـران ٢٠] ، قـال البغـوي قَوْلُـهُ تَعَـالَى:﴿ فَإِنۡ حَآجُّوكَ ﴾، أَيْ: خَاصَـمُوكَ يَـا مُحَمَّـدُ فِي الـدِّينِ،

---

[1] رواه الالكائي في شرح أصول الاعتقاد برقم ٧٣

[2] رواه الطبري برقم ٧٢١١

[3] تفسير البغوي ٤٦٥/١

وَذَلِكَ أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى قَالوا: ألسنا عَلَى مَا سَمَّيْتَنَا بِهِ يَا محمد و إنما الْيَهُودِيَّةُ وَالنَّصْرَانِيَّةُ نَسَبٌ، وَالدِّينُ هُوَ الْإِسْلَامُ وَنَحْنُ عَلَيْهِ؟. فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى:﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾، أَيِ: انْقَدْتُ لِلَّهِ وَحْدَهُ بِقَلْبِي وَلِسَانِي وَجَمِيعِ جَوَارِحِي، وَإِنَّمَا خُصَّ الوجه لأنه أكرم الجوارح للإنسان، وَفِيهِ بَهَاؤُهُ فَإِذَا خَضَعَ وَجْهُهُ للشيء فقد خَضَعَ لَهُ جَمِيعُ جَوَارِحِهِ. وَقَالَ الْفَرَّاءُ: مَعْنَاهُ أَخْلَصْتُ عَمَلِي لِلَّهِ،﴿ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾ أَيْ: وَمَنِ اتَّبَعَنِي فأسلم كَمَا أَسْلَمْتُ ... وَقَوْلُهُ: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ﴾، يَعْنِي: الْعَرَبَ أَأَسْلَمْتُمْ، لَفْظُهُ اسْتِفْهَامٌ وَمَعْنَاهُ أَمْرٌ، أي: وأسلموا، كَمَا قَالَ:﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [الْمَائِدَة: ٩١] ، أَيِ: انْتَهُوا، ﴿ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ﴾، فَقَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ **فَقَالَ أَهْلُ الْكِتَابِ: أَسْلَمْنَا**، فقال لليهود: أتشهدون أن عزيزا عبده ورسوله؟ فَقَالُوا: مَعَاذَ اللَّهِ [أَنْ يَكُونَ عزيز عليه السلام عبدا] ، وَقَالَ لِلنَّصَارَى: أَتَشْهَدُونَ أَنَّ عِيسَى كَلِمَةُ اللَّهِ وَعَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؟ قَالُوا: مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ عِيسَى عَبْدًا، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ﴾، أَيْ: تَبْلِيغُ الرِّسَالَةِ، وَلَيْسَ عَلَيْكَ الْهِدَايَةُ، ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾، عَالِمٌ بِمَنْ يُؤْمِنُ وَبِمَنْ لَا يُؤْمِنُ"[1].

ومن السنة عَنْ بَهْزٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبِي، عَنْ جَدِّي قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَاللَّهِ مَا أَتَيْتُكَ حَتَّى حَلَفْتُ أَكْثَرَ مِنْ عَدَدِ أُولَاءِ، وَضَرَبَ إِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى أَنْ لَا آتِيَكَ، وَلَا آتِيَ دِينَكَ، وَإِنِّي قَدْ جِئْتُ امْرَأً لَا أَعْقِلُ شَيْئًا إِلَّا مَا عَلَّمَنِي اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَإِنِّي أَسْأَلُكَ بِوَجْهِ اللَّهِ بِمَ بَعَثَكَ رَبُّنَا إِلَيْنَا؟ قَالَ: «بِالْإِسْلَامِ» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا آيَةُ الْإِسْلَامِ؟ قَالَ: «أَنْ تَقُولَ **أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَتَخَلَّيْتُ**، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَكُلُّ مُسْلِمٍ عَلَى مُسْلِمٍ مُحَرَّمٌ أَخَوَانِ نَصِيرَانِ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ مُشْرِكٍ يُشْرِكُ بَعْدَمَا أَسْلَمَ عَمَلًا، أَوْ يُفَارِقُ الْمُشْرِكِينَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ » الحديث[2]، قال الطحاوي تعليقا على هذا الحديث :" **وَكَانَ التَّخَلِّي هُوَ تَرْكُ كُلِّ الْأَدْيَانِ إِلَى اللهِ ثَبَتَ بِذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مَنْ لَمْ يَتَخَلَّ مِمَّا سِوَى الْإِسْلَامِ ، لَمْ يَعْلَمْ بِذَلِكَ دُخُولَهُ فِي الْإِسْلَامِ**"[3].

---

[1] تفسير البغوي ٤٢٢/١)

[2] رواه أحمد برقم ٢٠٠٣٧

[3] شرح معاني الآثار ٣١٦/٣

المطلب الثاني: تكفير الجنس والنوع

وهم أفراد كثيرون متفقون في الحقيقة غير محصورين بعدد محدود يجمعهم وصف معين تحت حكم واحد، وهو من التكفير بالعموم كقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾[إبراهيم ٣٠] وقوله تعالى: ﴿ لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ﴾[البينة ١]، وقوله: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلًا ﴾[الكهف ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾[غافر ١٤] ، وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ۝٨٤ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾[غافر ٨٥]. وغيرها من الآيات التي فيها تكفير المشركين بالعموم بقوله﴿ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ وهو جمع محلى بأل، "والْجَمْعَ الْمُعَرَّفَ تَعْرِيفَ الْجِنْسِ يُفِيدُ الْعُمُومَ وحُكي اتفاقاً عند الأصوليين"[1].

وأكثر الأدلة الواردة في تكفير المشركين هي من هذا الصنف، أي تكفير لعموم من أشرك مطلقاً بلا حصر ولا قيد، وامتثال أمر الله في قوله: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾[الكافرون١]. يكون بتكفير من كفره الله من عموم المشركين وأعيانهم، فمن كفَّر وصفاً في الذهن وتوقف في تنزيل الكفر على المعين إلا بشروط ما أنزل الله بها من سلطان، أو كفَّر عينا أو وصفاً وتوقف في العموم، لم يحقِّق تكفير المشركين الذي أمر الله به.

المطلب الثالث: تكفير القرى والأقوام والديار

وهو تكفير قوم يسكنون في قريةٍ من القُرى أو دار من الدُور، وهو من التكفير بالعموم ولكنه محصور في أهل قرية بعينها، كعاد وثمود ومدين وغيرها، كما قال تعالى في ختام القَصص في سورة الأعراف: ﴿ تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ

[1] انظر البحر المحيط في أصول الفقه ٤/١٢٣

ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ﴾[الأعراف١٠٢]، وقال تعالى: ﴿ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾[يونس٩٨]، وقال تعالى: ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ﴾[الكهف٥٩]، قال أبو جعفر:" يقول تعالى ذكره: ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ ﴾ من عاد وثمود وأصحاب الأيكة أهلكنا أهلها لما ظلموا، فكفروا بالله وآياته،﴿ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ﴾ يعني ميقاتاً وأجلاً حين بلغوه جاءهم عذاب فأهلكناهم به"[١].

فالسياقات التي فيها إطلاق التكذيب والتكفير وردت بلفظ العموم لأهل القرى والمدن "والعرب تسمي كل مدينة قرية"[٢]، كقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾[الشعراء١٠٥]وقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾[الشعراء١٢٣] وقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾[الشعراء١٤١]، قال ابن عطية:" أسند كَذَّبَتْ إلى «القوم» وفيه علامة التأنيث من حيث القوم في **معنى الأمة والجماعة**"[٣]، وقال تعالى في قوم قريش ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾[الأنعام٦٦]، وقصَّ في الفتية قولهم ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴾[الكهف١٥]، وقوله تعالى: ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴾[النمل٢٤]، فهذا الهدهد كفَّر الملكة وقومها لما رأى مشهداً من مشاهد عبادة غير الله، فكان الهدهد أفقه من حمير العلم في زماننا، قال عبد الرحمن بن حسن :" فحدَّث الهدهد سليمان ـ عليه السلام ـ بما رآهم يفعلونه من السجود لغير الله، والسجود نوع من أنواع العبادة، فليت أكثر الناس عرفوا من الشرك

[١] تفسير الطبري ٥٤/١٨

[٢] تفسير الطبري ٥٤٣/٨

[٣] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٢٣٧/٤

ما عرفه الهدهد فأنكروه وعرفوا الإخلاص فالتزموه، وبالله التوفيق، فسبحان من غرس التوحيد في قلب من شاء من خلقه، وأضلَّ من شاء عنه بعلمه وحكمته وعدله!!."[١].

وتكفير القرى هو تكفير لعموم أهل القرية، إذ المقصود بالقرى أهلها كما في قوله: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾[يوسف٨٢]، قال البغوي:" أَيْ: أَهْلَ الْقَرْيَةِ وَهِيَ مِصْرُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هِيَ قَرْيَةٌ مِنْ قُرَى مِصْرَ كَانُوا ارْتَحَلُوا مِنْهَا إِلَى مِصْرَ"[٢]، فالسؤال موجه لأهلها كما أن الهلاك يتوجه لأهلها كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[الأحقاف٢٧]، قال الطبري: :﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ﴾ أيها القوم من القُرَى ما حول قريتكم، كحجر ثمود وأرض سدوم ومأرب ونحوها، فأنذرنا أهلها بالمَثُلات، وخرّبنا ديارها، فجعلناها خاوية على عروشها"[٣].

فالمقصود من الخطاب الشرعي هم أهل الدار وأصحاب القرى كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾[النساء٧٦] وقوله تعالى: ﴿ سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾[الأعراف١٤٥] وقوله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾[ياسن١٤]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴾[النمل٤٣]. وقال تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾[النساء٧٥] قال الأزهري :" ﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ أَي: «الْمُشرك أَهلهَا»[٤].

فالأسماء الشرعية كالفاسقين والظالمين والكافرين تتوجه لأهل القرى لا للشجر والحجر والبنيان، قال ابن رجب : " وَلَيْسَ الذَّمُّ رَاجِعًا إِلَى مَكَانِ الدُّنْيَا الَّذِي هُوَ الْأَرْضُ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ لِبَنِي آدَمَ مِهَادًا وَسَكَنًا، وَلَا إِلَى مَا أَوْدَعَ اللَّهُ فِيهَا مِنَ الْجِبَالِ وَالْبِحَارِ وَالْأَنْهَارِ وَالْمَعَادِنِ، وَلَا إِلَى مَا أَنْبَتَهُ فِيهَا مِنَ الشَّجَرِ وَالزَّرْعِ، وَلَا إِلَى مَا بَثَّ فِيهَا مِنَ

---

[١] رسائل وفتاوى عبد الرحمان بن حسن ٣١/١

[٢] تفسير البغوي ٥٠٨/٢

[٣] تفسير الطبري ١٣٢/٢٢

[٤] تفسير السمعاني ٤٤٧/١

الْحَيَوَانَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ بِمَا لَهُمْ فِيهِ مِنَ الْمَنَافِعِ، وَلَهُمْ بِهِ مِنَ الِاعْتِبَارِ وَالِاسْتِدْلَالِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ صَانِعِهِ وَقُدْرَتِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَإِنَّمَا الذَّمُّ رَاجِعٌ إِلَى أَفْعَالِ بَنِي آدَمَ الْوَاقِعَةِ فِي الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ غَالِبَهَا وَاقِعٌ عَلَى غَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي تُحْمَدُ عَاقِبَتُهُ، بَلْ يَقَعُ عَلَى مَا تَضُرُّ عَاقِبَتُهُ، أَوْ لَا تَنْفَعُ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: {﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾ [الحديد: ٢٠]"[١].

وفي هذه الآيات دلالة ظاهرة على صحة إطلاق الكفر على عموم أهل قرى وديار الكفر، وهذا الإطلاق باعتبار الظاهر الذي تجري عليه الأحكام في الدنيا، وهذا الإطلاق هو منطوق القرآن كما في قوله: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَـٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴾[العنكبوت٣٢]. قال أبو جعفر:" يقول تعالى ذكره: قال إبراهيم للرسل من الملائكة إذ قالوا له: ﴿ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَـٰلِمِينَ ﴾ **فلم يستثنوا منهم أحدا إذ وصفوهم بالظلم:** ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ﴾، وليس من الظالمين، بل هو من رسل الله وأهل الإيمان به والطاعة له، فقالت الرسل له: ﴿ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ﴾ من الظالمين الكافرين بالله منك، وإن لوطا ليس منهم، بل هو كما قلت من أولياء الله"[٢].

فإطلاق الكفر على عموم القرى الكافرة وإن كان فيها خصوص الموحدين هو إطلاق صحيح بنص القرآن كما في آية العنكبوت، وفي قولة تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَـٰلِمِينَ ﴾[الأعراف١٤٨]. وليس كلهم اتخذوا العجل فقد قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾[طه٩١] ، قال ابن عباس: لما قال القوم﴿ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ أقام هارون فيمن تبعه من المسلمين ممن لم يُفتتن، وأقام من يعبد العجل على عبادة العجل، وتخوّف هارون إن سار بمن معه من

---

[١] جامع العلوم والحكم ١٨٧/٢

[٢] تفسير الطبري ٣٢/٢٠

المسلمين أن يقول له موسى ﴿ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾[طه٩٤] وكان له هائبا مطيعا"[1].

وإطلاق الكفر على عموم القرى والديار لا يتناول القلة المُستعلِنة بدينها[2] المخالفة لما عليه القوم من كفر وشرك، لظهور أمرها كالرُسل وأتباعهم الذين فاصلوا أقوامهم في الدين، فالقلة الظاهرة ناجية كما في قوله تعالى: ﴿ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾[العنكبوت٣٢]، وغيرها من الآيات، فهي ظاهرةٌ ناجيةٌ لا تجري عليها أحكام الكفار، **وإن كان إطلاق الكفر يشمل ظاهراً القلة المستخفية بدينها في دور الكفر**، فهذه يتناولها الأحكام في الدنيا، ومنها العذاب الدنيوي الذي قد يجري على الكثرة الكافرة، أي: تجري عليها أحكام الكثرة حُكماً ويحاسبون في الآخرة على نيَّاتهم، وقد بيَّنت السنة هذا غاية البيان ونصَّت على أن عموم العذاب لمن كفر وعصى ولمن سكت وأظهر الموافقة ولم يُظهر المخالفة، فهو شامل للبر والفاجر والكافر والمؤمن بلا استثناء، ومن ذلك حديث عائشةَ رضي الله عنها، قالت: قالَ رسول الله ﷺ: ﴿يغْزُو جَيْشٌ الْكَعْبَةَ فإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الأَرضِ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وآخِرِهِمْ» قَالَتْ: قلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ يُخْسَفُ بأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ وَفِيهِمْ أَسْوَاقُهُمْ وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ؟! قَالَ: «يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ ثُمَّ يُبْعَثُونَ عَلَى نِيّاتِهم﴾ [3]، وفي رواية مسلم «فقلنا: إن الطريق قد يجمع الناس، قال: نعم فيهم المستبصر والمجبور وابن السبيل» وقوله: «ومن ليس منهم» أي في الكفر والقصد بتخريب الكعبة عطفٌ على أسواقهم، قال الطيبي: أي من لا يقصد تخريب الكعبة بل هم الضعفاء والأسارى، وقَوْله: «يبعثون على نياتهم»، يَعْنِي: من كَانَ

[1] تفسير الطبري ٣٥٩/١٨

[2] الفرق بين القلة المستعلنة بدينها والقلة المستخفية بدينها

ونقول أنَّ بينهما فروق في الأسماء والأحكام باعتبار الظاهر:

❁ فالقلة الظاهرة بدينها في ديار الكفر: هي طائفة مسلمة ظاهراً لا تجري عليها أحكام الكفار في الدنيا للتمييز بينها وبين المشركين وهي في الآخرة ناجية من العذاب السرمدي.

❁ أما القلة المستخفية في ديار الكفر: هي طائفة تجري عليها أحكام الكفار وتلحق بالكثرة الكافرة في الأسماء والأحكام في الدنيا باعتبار الظاهر لعدم التمييز بينها وبين عموم المشركين وهي في الآخرة ناجية من العذاب السرمدي.

❁ ويجتمعان في النجاة في الآخرة باعتبار حقيقة الأمر، ويفترقان في الدنيا في الأسماء والأحكام باعتبار الظاهر.

[3]رواه الْبُخَارِيّ برقم ٢١١٨ ورواه مسلم برقم ٢٨٨٤

مِنْهُم مُخْتَارًا تقع الْمُؤَاخَذَة عَلَيْهِ، وَمن كَانَ مكْرها ينجو. وفي رواية مسلم «يهلكون مهلكًا واحدًا ويصدرون مصادر شتى»[1].

فيكون العذاب في الدنيا عاماً على ظاهرهم، ويكون الحساب في الآخرة على الباطن والنيات وحقيقة أمرهم.

وعن ابْنَ عُمَرَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :﴿ إِذَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِقَوْمٍ عَذَابًا أَصَابَ الْعَذَابُ مَنْ كَانَ فِيهِمْ ثُمَّ بُعِثُوا عَلَى أَعْمَالِهِمْ﴾[2]، "ومَن مِن صيغ العموم، فالمعنى أن العذاب يُصيب حتى الصالحين منهم، وعند الإسماعيلي من طريق أبي النعمان عن ابن المبارك: «أصاب به من بين أظهرهم» فلا يلزم من الاشتراك في الموت الاشتراك في الثواب أو العقاب بل يجازى كل أحد بعمله على حسب نيته وهذا من الحكم العدل لأن أعمالهم الصالحة إنما يجازون بها في الآخرة وأما في الدنيا فمهما أصابهم من بلاء كان تكفيرًا لما قدموه من عمل سيئ كترك الأمر بالمعروف ... وجنح بن أَبِي جَمْرَةَ إِلَى أَنَّ الَّذِينَ يَقَعُ لَهُمْ ذَلِكَ إِنَّمَا يَقَعُ بِسَبَبِ سُكُوتِهِمْ عَنِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ **وَأَمَّا مَنْ أَمَرَوَنَهَى فَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَا يُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ بَلْ يَدْفَعُ بِهِمُ الْعَذَابَ وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾[القصص٥٩]وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[الأنفال٣٣]،وَيَدُلُّ عَلَى تَعْمِيمِ الْعَذَابِ لِمَنْ لَمْ يَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَإِنْ لَمْ يَتَعَاطَاهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ﴾[النساء١٤٠] "[3]

قال ابن قتيبة: "فَأَمَّا عِقَابُ اللَّهِ تَعَالَى إِذَا هُوَ أَتَى، فَيَعُمُّ وَيَنَالُ الْمُسِيءَ وَالْمُحْسِنَ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾[الأنفال٢٥] يُرِيدُ: أَنَّهَا تَعُمُّ، فَتُصِيبُ الظَّالِمَ وَغَيْرَهُ، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[الروم٤١]، وَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَهْلَكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ فقَالَ: "نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ" وَقَدْ تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى غَرَّقَ أُمَّةَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ كُلَّهَا، وَفِيهِمُ الْأَطْفَالُ والبهائم، بذنوب الْبَالِغين ...... ثم قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ: وَقَدْ رَأَيْنَا بِعُيُونِنَا، مَا أَغْنَى عَنِ الْأَخْبَارِ، فَكَمْ مِنْ بَلَدٍ فِيهِ الصَّالِحُونَ وَالْأَبْرَارُ

---

[1] مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٤٨٥/٩

[2] رواه البخاري برقم ٧١٠٨ ومسلم برقم ٢٨٧٩

[3] فتح الباري ٦٣/١٣

وَالْأَطْفَالُ وَالصِّغَارُ، أَصَابَتْهُ الرَّجْفَةُ، فَهَلَكَ بِهِ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، وَالْمُسِيءُ وَالْمُحْسِنُ، وَالطِّفْلُ وَالْكَبِيرُ كَـ "قومس" و "مهرجان "و "قذق" و "الرّيّ"، وَمُدُنٍ كَثِيرَةٍ مِنْ مُدُنِ الشَّامِ وَالْيَمَنِ؛ وَهَذَا شَيْءٌ يَعْرِفُهُ، كُلُّ مَنْ عَرَفَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، مِنْ أَهْلِ الدِّيَانَاتِ، وَإِنِ اخْتَلَفُوا"[1].

وقد رد في السنة كذلك إطلاق الكفر بالعموم على دور الكفر ومنها حديث ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، قَالَ: مَرَّ بِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِالأَبْوَاءِ، أَوْ بِوَدَّانَ، وَسُئِلَ عَنْ أَهْلِ الدَّارِ يُبَيَّتُونَ مِنَ المُشْرِكِينَ، فَيُصَابُ مِنْ نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ قَالَ: «هُمْ مِنْهُمْ»[2]، وقال الأحنف بن قيس:« إنما كان السبي والغنيمة على الكفار الذين دارهم دار كفر **والكفر لهم جامع ولذراريهم**»[3].

وقال إسحاق: "فلو ترك النبيّ ﷺ الناس ولم يبين لهم حكم الأطفال لم يعرفوا المؤمنين منهم من الكافرين، لأنهم لا يدرون ما جبل كل واحد منهم عليه حين أخرج من ظهر آدم، فبين النبي ﷺ حكم الطفل في الدنيا بأن "فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ ويُنَصِّرَانِهِ ويُمَجِّسَانِهِ" يقول: أنتم لا تعرفون ما طبع عليه في الفطرة الأولى، ولكن حكم الطفل في الدنيا حكم أبويه، فاعرفوا ذلك بالأبوين، فمن كان صغيرًا بين أبوين كافرين ألحق بحكمهما، ومن كان صغيرًا بين أبوين مسلمين ألحق بحكمهما، وأما إيمان ذلك وكفره مما يصير إليه فعلم ذلك إلى اللَّه، وبعلم ذلك فُضِّل الخضر على موسى، إذْ أطلعه اللَّه عليه في ذلك الغلام وخصه بذلك العلم.

قال: ولقد سئل ابن عباس عن ولدان المسلمين والمشركين فقال: حسبك ما اختصم فيه موسى والخضر، واحتج إسحاق أيضًا بحديث عائشة ـ حين مات صبي من الأنصار بين أبوين مسلمين ـ فقالت عائشة: طوبى له، عصفور من عصافير الجنة فرد عليها النبي ﷺ فقال: "مَهْ يَا عَائِشَةُ! وما يُدرِيكِ؟ إنَّ اللَّهَ خَلَقَ الجَنَّةَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا، وَخَلَقَ النَّارَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا"[4]، قال إسحاق: هذا الأصل الذي يعتمد عليه أهل العلم"[5].

وقال ابن قتيبة قَالُوا: حَدِيثَانِ مُخْتَلِفَانِ "فِي ذَرَارِيِّ الْمُشْرِكِينَ"، قَالُوا: رُوِّيتُمْ أَنَّ الصَّعْبَ بْنَ جَثَّامَةَ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَرَارِيُّ الْمُشْرِكِينَ تَطَؤُهُمْ خَيْلُنَا فِي ظُلَمِ اللَّيْلِ عِنْدَ الْغَارَةِ،

---

[1] تأويل مختلف الحديث ٣٦٣/١

[2] رواه البخاري برقم ٣٠١٢

[3] تاريخ دمشق ٣١٩/٢٤

[4] رواه الإمام أحمد ٦/ ٤١، ومسلم (٢٦٦٢).

[5] "التمهيد" ١٨/ ٨٤ - ٨٨.

قَـالَ: "هُـمْ مِـنْ آبَـائِهِمْ"؛ قَـالُوا: ثُـمَّ رُوِّيـتُمْ أَنَّـهُ بَعَـثَ سَـرِيَّةً فَقَتَلُـوا النِّسَـاءَ وَالصِّـبْيَانَ، فَـأَنْكَرَ ذَلِكَ رَسُـولِ اللَّـهِ ﷺ إِنْكَـارًا شَـدِيدًا؛ فَقَـالُوا: يَـا رَسُـولَ اللَّـهِ، إِنَّهُـمْ ذَرَارِيُّ الْمُشْـرِكِينَ؛ قَـالَ: "أَو لَـيْسَ خيـاركم، ذَرَارِي الْمُشْـركين؟" قَـالَ أَبُـو مُحَمَّـدٍ: وَنَحْـنُ نَقُـولُ: إِنَّـهُ لَـيْسَ بَـيْنَ الْحَـدِيثَيْنِ اخْـتِلَافٌ؛ لِأَنَّ الصَّـعْبَ بْـنَ جَثَّامَـةَ، أَعْلَمَـهُ أَنَّ خَيْـلَ الْمُسْـلِمِينَ تَطَـؤُهُمْ فِي ظُلَـمِ اللَّيْـلِ عِنْـدَ الْغَارَةِ، فَقَالَ: "هُمْ مِنْ آبَائِهِمْ".

يُرِيـدُ: أَنَّ حُكْمَهُـمْ فِـي الـدُّنْيَا، حُكْـمُ آبَـائِهِمْ، فَـإِذَا كَـانَ اللَّيْـلُ، وَكَانَـتِ الْغَـارَةُ، وَوَقَعَـتِ الْفُرْصَـةُ فِي الْمُشْـرِكِينَ، فَلَا تَكُفُّـوا مِـنْ أَجْـلِ الْأَطْفَـالِ؛ لِأَنَّ حُكْمَهُـمْ حُكْـمُ آبَـائِهِمْ مِـنْ غَيْـرِ أَنْ تَتَعَمَّدُوا قَتْلَهُمْ.

ثُـمَّ أَنْكَـرَ فِي الْحَـدِيثِ الثَّـانِي عَلَـى السَّـرِيَّةِ، قَـتْلَهُمُ النِّسَـاءَ وَالصِّـبْيَانَ، لِأَنَّهُـمْ تَعَمَّـدُوا ذَلِـكَ لِشِـرْكِ آبَـائِهِمْ، فَقَـالَ: "أَوَلَـيْسَ خِيَـارُكُم ذَرَارِيَّ الْمُشْـرِكِينَ"؛ يُرِيـدُ: فَلَعَـلَّ فِـيهِمْ مَـنْ يُسْـلِمُ إِذَا بَلَغَ وَيحسن إِسْلَامه"[1].

وبهـذا التقريـر تبـيَّن أن اللـه كفَّـر أعيـان المشـركين وأجناسـهم وأقـوامهم وقُـراهم فخـصَّ وقيَّـد وأطلـق وعـمَّ وكُلها واردة في القـرآن، وإطـلاق الكفـر على عمـوم ديـار الكفـر مـع العلـم بوجـود أعيـان مسـلمة مسـتخفية لا تخلـوا منهم الـديار إطـلاق صحيح بـنص القـرآن خلافـا لأصحاب الـورع البـارد الـذين يؤسـلمون ديـار الكفـر بحجـة الـورع عـن لحـوق اسـم الكفـر بالقلة الموحدة المستخفية لعدم التمييز.

وبهـذا يتبـيَّن أن المسـلم يحقـق البـراءة مـن المشـركين بتكفيـرهم وعـداوتهم وبغضـهم، ويتحقَّـق امتثـال أمـر اللـه عـزَّ وجـلَّ بتكفيـر مـن كفـرهم اللـه مـن أعيـان الكفـار وأجناسـهم وأقـوامهم سـواء، فـإن توقـف في تكفيـر أحـد هـذه المُتعلَّقـات مـع وجودهـا في الخـارج تخلَّـف هـذا الأصـل العظـيم وكـان الخلـل في التوحيـد، فمـن أسـلم أعيـان المشـركين أو أقـوامهم أو صحح دينهم أو توقف فيهم فهذا لم يحقق البراءة منهم.



[1] تأويل مختلف الحديث ٣٨٤/١

الفَصْلُ الثَّالِث

بيان الأصل في الدور

لـم يُنْقَـل خـلافٌ بـين السـلف أن الـدار داران: دار كفـر وإسـلام، وضـابط الفـرق بينهمـا هـو علـو الأحكـام، فـإن كـان السـلطان للـه فالـدار دار اسـلام وإن كـان السـلطان للطّواغيـت فالـدار دار كفـر، ولا خـلاف بـين الفقهـاء في ماهيـة دار الكفـر، قـال الإمـام مالـك: «كانـت مكـة دار كفـر لأن أحكـام الجاهليـة ظـاهرة يومئـذ»[١]، وعنـد الحنابلـة هـي: "الـدَّارُ التـي تَغلـبُ فيهـا أحكـامُ الكفـر"[٢]. "وكَـانَ يَقُـول أحمـد: الـدَّار إذا ظهـر فِيهَـا القَـوْل بِخلـق الْقُـرْآن وَالْقـدر وَمَـا يجْـرِي مجْـرى ذَلِـك فَهِـيَ دَار كفـر"[٣]، وقـال عبـد اللـه أبـو بطـين: "قـال الأصـحاب: الـدار داران، دار إسـلام ودار كفـر، فـدار الإسـلام: هـي التـي تجـري أحكـام الإسلام فيها، وإن لم يكن أهلها مسلمين، وغيرها دار كفر" [٤].

وقـال المـاوردي الشـافعي في دار الكفـر هـي: "الـدار التي لا يثبـت للمسـلمين عليهـا يـد"[٥]، وقـال الكاسـاني الحنفـي: "تصـير الـدار دار كفـر بظهـور أحكـام الكفـر فيهـا"[٦]، وقـال عبـد القـاهر البغـدادي:" كـل دار ظهـرت فيـه دعـوة الإسـلام مـن أهلـه بـلا خفـير ولا مجـير ولا بـذل جزيـة ونفـذ فيهـا حكـم المسـلمين على أهـل الذمَّـة إن كـان فـيهم ذمِّي ولـم يقهـر أهـل البدعـة فيهـا أهـل السـنة فهـي دار الإسـلام ـ إلى أن قـال ـ وإذا كـان الأمـر على ضـد مـا ذكرنـاه في الـدار فهي دار الكفر"[٧].

والمطَّـرد في كتـاب اللـه وسـنة رسـوله ﷺ وواقـع الـديار في القـرون الثلاثـة ومـن بعـدهم أن دار الكفـر أهلهـا كفـار سـواء أكـانوا مُحـاربين أو مُعاهـدين، قـال ابْـنِ عَبَّـاس: « كَـانَ المُشْـرِكُونَ عَلَـى مَنْـزِلَتَيْنِ مِـنَ النَّبِـيِّ ﷺ وَالمُـؤْمِنِينَ: كَـانُوا مُشْـرِكِي أَهْـلِ حَـرْبٍ، يُقَـاتِلُهُمْ

[١] المدونة الكبرى ٣/٢٣

[٢] المبدع ٣/٣١٣، والانصاف ٤/١٢١

[٣] العقيدة رواية أبي بكر الخلال ١/١٣٤

[٤] مجموعة الرسائل والمسائل النجدية»، القسم الثالث من الجزء الأول: (ص ٦٥٥).

[٥] الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٩١.

[٦] بدائع الصنائع ٧/١٣٠.

[٧] أصول الدين لأبي منصور عبد القاهر بن طاهر التميمي البغدادي ص ٢٧٠

وَيُقَاتِلُونَهُ، وَمُشْرِكِي أَهْلِ عَهْدٍ، لاَ يُقَاتِلُهُمْ وَلاَ يُقَاتِلُونَهُ»[١]، وقال ابن قدامة:" فَأَمَّا دَارُ الْحَرْبِ، فَلَا نَحْكُمُ بِإِسْلَامِ وَلَدِ الْكَافِرَيْنِ فِيهَا بِمَوْتِهِمَا، وَلَا مَوْتِ أَحَدِهِمَا؛ **لِأَنَّ الدَّارَ لَا يُحْكَمُ بِإِسْلَامِ أَهْلِهَا**، وَكَذَلِكَ لَمْ نَحْكُمْ بِإِسْلَامِ لَقِيطِهَا"[٢]، وفي المقابل دار الإسلام أهلها مسلمين قال ابن رجب:" إذْ الْأَصْلُ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ الْإِسْلَامُ"[٣].

ودار الممتنعين عن شريعة من الشرائع هي دار حرب بإجماع الفقهاء قال في شرح "الإقناع": أجمع العلماء على أن كل طائفة ممتنعة عن شريعة من شرائع الإسلام، فإنه يجب قتالها حتى يكون الدين كله لله، **كالمحاربين وأولى**"[٤].

وتكون الدار دار كفر ولو كان فيها طائفةٌ من المسلمين مستخفين بالإسلام وهذا باتفاق الفقهاء قال ابن سحمان:" بل الَّذِي اتّفق عَلَيْهِ الْعلمَاء أَنَّهَا ـ مكة ـ بِلَاد كفر وَحرب وَلَو كَانَ فِيهَا أنَاس مُسلمُونَ مستخفون أَو ظَالِمُونَ لأَنْفُسِهِمْ بِالْإِقَامَةِ فِي دَار الْكفْر غير مظهرين لدينهم كَمَا هُوَ مَعْرُوف مَشْهُور"[٥].

وقال: أبو إسحاق الصفَّار البخاري:" وكل دار كانت الغلبة فيها لأهل الاعتزال كعسكر مكرم، أو بقعة غلب عليها الخوارج كجبال عمان ورساتيق سجستان، أو غلب عليها مذهب القرامطة مثل هجر والقاهرة في باب مصر؛ فإن كان أهل السنة فيها مستضعفين لا يمكنهم المقام فيها إلا بإخفاء مذهبهم أو على ذمة أو جزية فتلك الدار دار كفر ويجب قتال أهلها، **وكل من يوجد في تلك الدار فهو كافر إلا من ظهر الإسلام منه بيقين**"[٦].

المطلب الأول: الأدلة على أن دار الكفر أهلها كفار

ومن النصوص التي ورد فيها الإشارة إلى أن الأصل في دار الحرب كُفر أهلها إلا من أظهر من الإيمان ظاهراً معتبراً، وتحقق بصفته ما يلي:

❁ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾[النساء٩٤]،

---

[١] صحيح البخاري برقم ٥٢٨٦

[٢] المغني ٩/١٩

[٣] القواعد لابن رجب ١/٣٤٥

[٤] الدرر السنية في الأجوبة النجدية ١٠/٣٠٩

[٥] كشف الأوهام والالتباس عن تشبيه بعض الأغبياء من الناس١ /٩٤

[٦] تلخيص الأدلة لقواعد التوحيد ج ٢ ص ٧٣٥ و ٧٣٦

قال ابن عَبَّاسٍ:« لَقِيَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلا مَعَهُ غَنِيمَةٌ لَهُ، فَقَالَ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ، فقتلوه وأخذوا غنيمة، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾»[1].

فالآية نزلت في الصحابة الذين خرجوا في سرية وقتلوا الرجل الذي ألقى عليهم الإسلام وساقوا غنمه لغلبة الظن أنه قال كلمة يتقي بها سيوف المسلمين فعاتبهم الله على العمل بالأصل ـ في أن دار الكفر هي دار إباحة للدم والمال ـ وترك العمل بالظاهر ـ إلقاء السلام الذي هو ظاهر معتبر في هذه الدار ـ الذي يرفع هذا الأصل، وأمرهم بالتبيُّن حين ظهور علامة الإسلام، وفي هذه الصورة تعارض الأصل والظاهر فيُقدَّم الظاهر لقوله تعالى:﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ أي لست مؤمنا لإلحاقه بدار الحرب واستصحاب الأصل في كفر أهلها وعدم اعتبار الظاهر.

❁ **وقال تعالى**: ﴿ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾[النساء٩٢]، وهذا النص يُقرر أن الأصل لا ديَّة ولا كفَّارة إذا كان القتل من قوم عدو لكم أي: في دار حرب، ولذلك استثنى المؤمن بقوله:﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ ليختصَّ بالكفَّارة دون غيره من قومه، وفي هذه دلالة واضحة على أن دار الحرب وهي في قوله ﴿ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ ﴾ كفارٌ تباح دماؤهم وأموالهم لا ديَّة ولا كفَّارة في قتيلهم إلا من ثبتت له صفة الإيمان، وكما يقول أهل الأصول: الاستثناء معيار العموم.

قال سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ في قَوْلَهُ: ﴿ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ يَعْنِي مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ يَعْنِي الْمَقْتُولَ قَالَ: نَزَلَتْ فِي مِرْدَاسِ بْنِ عَمْرٍو وَكَانَ أَسْلَمَ، وَقَوْمُهُ كُفَّارٌ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ فَقَتَلَهُ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ خَطَأً، فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَلا دِيَةَ لَهُمْ، لأَنَّهُمْ أَهْلُ الْحَرْبِ، وَرُوِيَ عَنِ إِبْرَاهِيمَ، وَعِكْرِمَةَ، وَالشَّعْبِيِّ، وَقَتَادَةَ، وَالسُّدِّيِّ، وَابْنِ عَبَّاسٍ نَحْوُ ذَلِكَ"[2]، " وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَالَ قَتَادَةُ: **هُوَ الْمُسْلِمُ يَكُونُ فِي الْمُشْرِكِينَ فَيَقْتُلُهُ الْمُؤْمِنُ وَلَا يَدْرِي** فَفِيهِ عِتْقُ رَقَبَةٍ وَلَيْسَ فِيهِ دِيَةٌ وَهَذَا على أنه يُقْتَلَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ ـ إلى أن قال ـ وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ: مَنْ أَقَامَ فِي أَرْضِ الْعَدُوِّ وَإِنْ انْتَحَلَ الْإِسْلَامَ وَهُوَ يَقْدِرُ على التحويل إِلَى الْمُسْلِمِينَ **فَأَحْكَامُهُ أَحْكَامُ الْمُشْرِكِينَ**"[3].

[1] تفسير ابن أبي حاتم برقم ٥٨٢٥

[2] رواه ابن ابي حاتم في تفسيره برقم ٥٧٩٨

[3] أحكام القرآن للجصاص ٢١٧/٣

❁ وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ ﴾[غافر٢٨]، فقيَّدَهُ بصفة الإيمان لأنه لو نُسب إلى قوم آل فرعون بلا قيد لكان منهم كقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾[غافر٤٦].

❁وقال تعالى: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[الفتح٢٥]، والشاهد في الآية أنه تعالى قيَّد الرجال والنساء بصفة الإيمان ليخرجوا من عموم قوله ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ ثم قال ﴿ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾،" لاختلاطهم بالمشركين وهم يكتمون الإيمان فيجرى عليهم حكم الكفار من القتل ﴿ أَن تَطَـُٔوهُمْ ﴾ تبعا لقومهم، وروى الطبري بسنده عن ابن إسحاق:" ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ فتخرجوا ديَّته، **فأما إثم فلم يحسبه عليهم**، والصواب أنها الكفَّارة واختاره الطبري فقال: "وإنما المعنى: فتصيبكم من قبلهم معرّة تُعرّون بها، يلزمكم من أجلها كفَّارة قتل الخطأ"[1].

وقوله: ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ينفي علم المكلَّف بالإيمان الباطن الذي يدرأ القتل لظاهر الكفر كما سبق في آية النساء، ومن رحمة الله بهؤلاء المؤمنين أن كفَّ الله عنهم القتال وقال: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾فكفَّ القتال لعدم التمييز بين الكفار والمسلمين ﴿ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أي لو تميَّزوا لسلطنَّاكم عليهم فقتلتموهم قتلا ذريعاً.

وفي هذه الآية أعظم دلالة على أن المؤمن الذي يكتم إيمانه بين القوم الكافرين يجري عليه حكم القوم في علم المكلف، لأنه لا يستطيع أن يميز بينه وبين قومه المشركين لكونه يستخفي بإيمانه، فهو تبعٌ لقومه في علم المكلف وهو الذي يتعلق به التكليف إذ لم يؤمر بالتنقيب عن البواطن.

ويؤيد هذا ما رواه مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ حِينَ انْتُهِيَ بِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ:« يَا عَبَّاسُ افْدِ نَفْسَكَ وَابْنَ أَخِيكَ عَقِيلَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَنَوْفَلَ بْنَ الْحَارِثِ وَحَلِيفَكَ عُتْبَةَ بْنَ عَمْرِو بْنِ جَحْدَمٍ أَخَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ فِهْرٍ فَإِنَّكَ ذُو مَالٍ.

[1] تفسير الطبري ٢٢/٢٣٩

قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ مُسْلِمًا وَلَكِنَّ الْقَوْمَ اسْتَكْرَهُونِي. قَالَ: اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِسْلامِكَ. إِنْ يَكُ مَا تَذْكُرُ حَقًّا فَاللَّهُ يُجْزِيكَ بِهِ. فَأَمَّا ظَاهِرُ أَمْرِكَ فَقَدْ كَانَ عَلَيْنَا. فَافْدِ نَفْسَكَ»[1]

وهنا استصحب فيه النبي ﷺ الأصل وهو حكم قومه الذين خرج معهم، ولم يعتبر قوله: "إني كنت مسلماً" ودعواه للاستكراه، إذْ هو ظاهرٌ غير معتبر في هذه الصورة.

❁ وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۖ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾[الممتحنة:١٠]، قال الطبري وقوله: ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ﴾ يقول: الله أعلم بإيمان من جاء من النساء مهاجرات إليكم، وقوله: ﴿ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ ﴾ يقول: فإن أقررن عند المحنة بما يصحّ به عقد الإيمان لهنّ، والدخول في الإسلام، فلا تردوهنّ عند ذلك إلى الكفار"[2].

وقال السمعاني:" فَإِن قَالَ قَائِل: كَيفَ التَّوْفِيق بَين قَوْله: ﴿ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ ﴾ وَبَين قَوْله: ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ﴾ ؟ وَالْجَوَاب عَنهُ: أَن معنى قَوْله: ﴿ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ ﴾ أَي: إِيمَان الْإِقْرَار والامتحان، كأنهن أقررن بِالْإِيمَان، وحلفن عِنْد الامتحان"[3].

فالأمر بالامتحان للتحقق من الإيمان الظاهر لقدومهن من دار الكفر والانتقال من الأصل في الدار القادمين منها إلى الظاهر المُناط به الحكم: ﴿ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ ﴾ أي ما يتعلق به علم المكلف، بإظهارها مخالفة القوم الكافرين، أما الباطن فأمره إلى الله كما في قوله: ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ﴾ ولا يتعلق به التكليف، وعليه فالنص فيه استصحاب لحكم القوم لمن خرج منهم يريد الإسلام إلى دار الإسلام، وفيه أن الظاهر المعتبر في هذه الصورة هو ما يحصل به الامتحان، وهو إظهار المخالفة للقوم

---

[1] الطبقات الكبرى ١٠/٤

[2] تفسير الطبري ٣٢٨/٢٣

[3] تفسير السمعاني ٤١٨/٥

الكافرين، قال ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾أَنَّهُ سُئِلَ بِمَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَمْتَحِنُ النِّسَاءَ؟ قَالَ:« كَانَتِ الْمَرْأَةُ إِذَا جَاءَتِ النَّبِيَّ ﷺ حَلَّفَهَا عُمَرُ رضي الله عنه بِاللَّهِ مَا خَرَجَتْ رَغْبَةً بِأَرْضٍ عَنْ أَرْضٍ، وَبِاللَّهِ مَا خَرَجَتْ مِنْ بُغْضِ زَوْجٍ، وَبِاللَّهِ مَا خَرَجَتِ الْتِمَاسَ دُنْيَا، وَبِاللَّهِ مَا خَرَجَتْ إِلا حُبًّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ»[١].

وفي هذه الأدلة كفاية لمن أنار الله قلبه بنور الوحي، أما من ألقى السمع لطواغيت العلم في هذا الزمان أظلَمَ قَلْبُهُ فصار مستودعاً للشبهات والاعتذارات فضَّلَ ضلالا مبيناً، وأما الدار المركبة التي ابتدعها المتأخرون فهي محدثة وليست قسيمة للدارين ولم يعرفها السلف بل استقرَّ وفاقهم على الدارين، وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ»[٢].

ونقول أنَّ دار الإسلام إذا ظهر عليها الكفار فإما مآلها إلى الكفر بسكون أهلها وعدم المناجزة والدفع واستحبابهم الحياة الدنيا وإيثارهم المسكن والمتاع والخلود إلى الأرض، وبالتالي يدخلون في طاعة الطواغيت واتباع شرائع الكافرين فتجري عليهم أحكام الكفَرة ظاهراً، وإما يُقاتِلون الكُفار حتى يفتح الله بينهم وبين عدوّهم بالحق فإن ظهروا أعادوا السلطان لله وإن دُحِروا خرجوا وانحازوا إلى المسلمين، قال ابْنَ عُيَيْنَةَ: «أَتَدْرُونَ مَا مَثَلُ الْعِلْمِ؟ مَثَلُ الْعِلْمِ مِثْلُ دَارِ الْكُفْرِ، وَدَارِ الْإِسْلَامِ، فَإِنْ تَرَكَ أَهْلُ الْإِسْلَامِ الْجِهَادَ جَاءَ أَهْلُ الْكُفْرِ فَأَخَذُوا الْإِسْلَامَ، وَإِنْ تَرَكَ النَّاسُ الْعِلْمَ صَارَ النَّاسُ جُهَّالًا»[٣]، وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ:" مَنْ أَقَامَ فِي أَرْضِ الْعَدُوِّ وَإِنْ انْتَحَلَ الْإِسْلَامَ وَهُوَ يَقْدِرُ على التحويل إِلَى الْمُسْلِمِينَ فَأَحْكَامُهُ أَحْكَامُ الْمُشْرِكِينَ وَإِذَا أَسْلَمَ الْحَرْبِيُّ فَأَقَامَ بِبِلَادِهِمْ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى الْخُرُوجِ فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ يُحْكَمُ فِيهِ بِمَا يُحْكَمُ عَلَى أَهْلِ الْحَرْبِ فِي مَالِهِ وَنَفْسِهِ"[٤].

وقال ابن حزم:" وَلَوْ أَنَّ كَافِرًا مُجَاهِدًا غَلَبَ عَلَى دَارٍ مِنْ دُورِ الْإِسْلَامِ، وَأَقَرَّ الْمُسْلِمِينَ بِهَا عَلَى حَالِهِمْ، إِلَّا أَنَّهُ هُوَ الْمَالِكُ لَهَا، الْمُنْفَرِدُ بِنَفْسِهِ فِي ضَبْطِهَا، وَهُوَ مُعْلِنٌ بِدِينٍ غَيْرِ

---

[١] تفسير ابن أبي حاتم برقم ١٨٨٦٧

[٢] رواه البخاري برقم ٢٦٩٧ ومسلم ١٧١٨

[٣] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٢٨١/٧

[٤] أحكام القرآن للجصاص ٢١٦/٣

الْإِسْلَامِ لَكَفَرَ بِالْبَقَاءِ مَعَهُ كُلُّ مَنْ عَاوَنَهُ، وَ أَقَامَ مَعَهُ - وَإِنْ ادَّعَى أَنَّهُ مُسْلِمٌ - لِمَا ذَكَرْنَا"[١].

والديار اليوم قد مرَّ عليها عقود متوالية منذ أن غزاها الكفار وعلاها قانون الغرب، والجيل الذي حصل فيه التركيب كما زعم جماعة الترقيع والتركيب قد اندثر من غابر الزمان، فمتى تنتهي صلاحية التركيب وتنقضي مدة "الكفر الطارئ" عندهم؟، قال ابن قدامة:" وَأَمَّا مَنْ حَدَثَ بَعْدَ الرِّدَّةِ، فَهُوَ مَحْكُومٌ بِكُفْرِهِ، لِأَنَّهُ وُلِدَ بَيْنَ أَبَوَيْنِ كَافِرَيْنِ، وَيَجُوزُ اسْتِرْقَاقُهُ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِمُرْتَدٍّ. نَصَّ عَلَيْهِ أَحْمَدُ"[٢].

فالناس اليوم في انسلاخ من الدين وانصهار في الكفر المبين، حتى أنك لا تفرق بين شوارع سوسة وباريس، وشوارع الرباط ومدريد، ولا يزال طواغيت العلم يُصححون إسلام هذه الأقوام ويسمونهم المسلمين فحسبنا الله ونعم الوكيل.



[١] المحلى ١٢٦/١٢

[٢] المغني ١٧/٩

الفصل الرابع

الظاهر المعتبر في الدور

بعد تأصيل الإسلام في دار الإسلام والكفر في دار الكفر بالأدلة، وتقرير أن هذا الأصل لا يُرفَعُ إلا بظاهرٍ مُعتبرٍ يُصار إليه، فالأصلُ يُستصحب في الدور والظاهر المعتبر يَرفعُ هذا الأصل عند التعارض، لأنه أقوى منه في الدلالة في هذا الباب، والمراد بالأصل هو القاعدة المستمرة والاستصحاب، وهنا هو حكم الدار إسلاماً وكفراً، قال ابن قدامة:" **لِأَنَّ الْأَصْلَ أَنَّ مَنْ كَانَ فِي دَارٍ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِهَا**، يَثْبُتُ لَهُ حُكْمُهُمْ مَا لَمْ يَقُمْ عَلَى خِلَافِهِ دَلِيلٌ"[1]، وأما **الظاهر** فهو ما يحصل بالمشاهدة أو السماع، وقد تكلم الفقهاء في تعارض الأصل والظاهر في مسائل عدة في الفروع قال ابن رجب:" الْقَاعِدَةُ التَّاسِعَةُ وَالْخَمْسُونَ بَعْدَ الْمِائَةِ: إذَا تَعَارَضَ الْأَصْلُ وَالظَّاهِرُ فَإِنْ كَانَ الظَّاهِرُ حُجَّةً يَجِبُ قَبُولُهَا شَرْعًا كَالشَّهَادَةِ وَالرِّوَايَةِ وَالْإِخْبَارِ فَهُوَ مُقَدَّمٌ عَلَى الْأَصْلِ بِغَيْرِ خِلَافٍ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ بَلْ كَانَ مُسْتَنِدُهُ الْعُرْفُ أَوْ الْعَادَةُ الْغَالِبَةُ أَوْ الْقَرَائِنُ أَوْ غَلَبَةُ الظَّنِّ وَنَحْوُ ذَلِكَ، فَتَارَةً يُعْمَلُ بِالْأَصْلِ وَلَا يُلْتَفَتُ إلَى الظَّاهِرِ، وَتَارَةً يُعْمَلُ بِالظَّاهِرِ وَلَا يُلْتَفَتُ إلَى الْأَصْلِ، وَتَارَةً يُخَرَّجُ فِي الْمَسْأَلَةِ خِلَافٌ، فَهَذِهِ أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ"[2].

ثم ذكر فروعاً للقاعدة منها مجهول الحال فقال:" وَمِنْهَا: لَوْ وُجِدَ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ مَيِّتٌ مَجْهُولُ الدِّينِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ عَلَامَةُ السَّلَامِ وَلَا الْكُفْرِ أَوْ تَعَارَضَ فِيهِ عَلَامَةُ السَّلَامِ وَالْكُفْرِ صَلَّى عَلَيْهِ. نَصَّ عَلَيْهِ فَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ الْكُفْرُ خَاصَّةً فَمِنْ الْأَصْحَابِ مَنْ قَالَ يُصَلَّى عَلَيْهِ وَالْمَنْصُوصُ عَنْ أَحْمَدَ أَنَّهُ لَا يُصَلَّى عَلَيْهِ وَيُدْفَنُ وَهَذَا يَرْجِعُ إلَى تَعَارُضِ **الْأَصْلِ وَالظَّاهِرِ إذْ الْأَصْلُ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ الْإِسْلَامُ** وَالظَّاهِرُ فِي هَذَا الْكُفْرُ، وَلَوْ كَانَ الْمَيِّتُ فِي دَارِ الْكُفْرِ فَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ عَلَامَاتُ الْإِسْلَامِ صُلِّيَ عَلَيْهِ وَإِلَّا فَلَا نَصَّ عَلَيْهِ أَحْمَدُ فِي رِوَايَةِ عَلِيِّ بْنِ سَعِيدٍ **وَهَذَا تَرْجِيحٌ لِلظَّاهِرِ عَلَى الْأَصْلِ** هَاهُنَا كَمَا رَجَّحَهُ فِي الصُّورَةِ الْأُولَى وَلَمْ يُرَجِّحْ الْأَصْحَابُ هُنَا الْأَصْلَ كَمَا رَجَّحُوهُ ثُمَّ ؛ لِأَنَّ هَذَا الْأَصْلَ قَدْ عَارَضَهُ أَصْلٌ آخَرُ وَهُوَ أَنَّ الْأَصْلَ فِي كُلِّ مَوْلُودٍ أَنَّهُ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ"[3].

---

[1] المغني ٢/٤٠٠

[2] القواعد لابن رجب ١/٣٣٨

[3] القواعد لابن رجب ١/٣٤٥

والـذي نـروم تحقيقـه في هـذا الفصـل: مـا هـو حـدُّ الظـاهر المعتبر الـذي يصـار إليـه عنـد تعارض الأصل والظاهر:

إن مـن السَّـدَاد في هـذه المسـائل الدقيقـة لمـن تَعـنَّ بـالتحقيق فيهـا: أن يُـدقق النظـر في فقـه الواقـع الـذي نزلـت فيـه النصـوص، والعمـل الـذي كـان عليـه الصـحابة، فـإن قطـع النصـوص عـن واقعهـا لَهُـو مَـدعاةٌ إلى الحِيـدَةِ بهـا إلى غير تنزيلهـا، وهـو نظـرٌ في المسـألةِ كَكُـلٍ مـن زاويـةٍ ضـيقة ومـن نصـوص بعينهـا في وقـائع خاصـة مُجـردة عـن مـا ورد مـن النصـوص في البـاب عمومـاً، فيـؤدي حتمـاً إلى ضَـربِ النصـوص بعضـها بـبعض ممـن قَصُـرَ نَظَـرُهُ عـن الإحاطـة بجملـة الأدلـة وحُـرِمَ الفهـم الصـحيح فضـاق صـدره بمـا ضـاق بـه علمـه فخَـبطَ خبطـةً عشـواء ونسـبَ إلى الشـرع مـا لـيس منـه، فنسـأل اللـه الهدايـة والرشـاد والفقـه والسـداد، قـال الشـاطبي:" فَكَثِيرًا مَـا تَـرَى الْجُهَّـالَ يَحْتَجُّـونَ لأَنفسـهم بأَدلـة فَاسِـدَةٍ، وبأَدلـة صَحِيحَةٍ **اقْتِصَـارًا بِـالنَّظَرِ عَلَـى دَلِيـلٍ مَـا، واطِّراحـاً لِلنَّظَـرِ في غيرِهِ مـن الأدلـة الأُصـولية، أو الفروعيـة الْعَاضِـدَةِ لِنَظَـرِهِ، أو الْمُعَارِضَـةِ لَـهُ**، وَكَثِيرٌ مِمَّـنْ يـدَّعي الْعِلْـمَ يَتَّخِـذُ هَـذَا الطَّرِيـقَ مَسْـلَكًا، وَرُبَّمَـا أَفتى بِمُقْتَضَـاهُ، وَعَمِـلَ عَلَى وَفْقِـهِ **إذا كَـانَ لـه فيـه غرض**"[١].

لقـد كـان الصـحابة في مكـة قبـل الهجـرة قِلـةً بـين كثرةٍ مُشـركة، في دار كفـر يُفـتن فيهـا عـن دينـه مـن لا عُصـبة لـه ولا جِـوار... كـان الإسـلام غريبـاً وحاملـه طريـداً، وقـريشٌ قـد اسـتعلنت بعـدائها للإسـلام وأهلـه... وفي مثـل هـذه الـدار وبـين هـؤلاء القـوم لا يحكـم بإسـلام العـين إلا مـن تكلـم بالإسـلام وأظهـره وفـارق ديـن قومـه المشـركين، وهـذا الظـاهر يتميـز بـه المسـلمُ عـن المشـرك وتحصـل بـه المفاصـلة للجاهليـة، وهـو خـلافُ مـا أظهـره القـوم مـن الشـرك واتبـاع ديـن الآبـاء وإنكـار النبـوة، وهـو الظـاهر المعتبر الـذي يَرفـع الأصـل المتقـرر في مثـل هـذه الـدار ـ مكةـ ... فعـن هشـام بـن عـروة، عـن أبيـه: أن عبـد الملـك بـن مـروان كتـبَ إليـه يسـأله عـن أشـياء، فكتـب إليـه عـروة: «سـلام عليـك، فـإني أحمـد إليـك اللـه الـذي لا إلـه إلا هـو. أمـا بعـد، فإنـك كتبـت إليّ تسـألني عـن مخـرج رسـول اللـه ﷺ مـن مكـة، وسـأخبرك بـه، ولا حـول ولا قـوة إلا باللـه. كـان مـن شـأن خـروج رسـول اللـه ﷺ مـن مكـة، أن اللـه أعطـاه النبـوة، فـنعم النبيُّ! ونعـم السـيد! ونعـم العشـيرة! فجـزاه اللـه خيرًا، وعرّفنـا وجهـه في الجنـة، وأحيانَـا على ملتـه، وأماتنـا عليهـا، وبعثنـا عليهـا، وإنـه لمـا دعـا قومـه لمـا بعثـه اللـه لـه مـن الهـدى والنـور الـذي أنـزل عليـه، لـم يَبْعُـدوا منـه أوّلَ مـا دعـاهم إليـه، **وكـادوا يسـمعون لـه، حتى ذكـر طـواغيتهم**، وقـدم نـاس مـن الطـائف مـن قـريش لهـم أمـوال، أنكـر ذلـك نـاسٌ

[١] الاعتصام ٢/٨

واشتدّوا عليه، وكرهوا ما قال، وأغروا به من أطاعهم، فانصفق عنه عامة الناس فتركوه، إلا من حفظه الله منهم، وهم قليل. فمكث بذلك ما قدّر الله أن يمكث، ثم ائتمرت رؤوسهم بأن يفتنوا من اتبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم، فكانت فتنةً شديدة الزلزال، فافتتن من افتتن، وعصم الله من شاء منهم»[١].

ولقد كان العرب في ذلك الحين يعرفون معنى لا إله إلا الله ويعلمون مدلولها، وهو إفراد الله بخصائصه في الألوهية والربوبية والحاكمية والاتباع، وأنها تقتضي خلع الأرباب والأنداد ومفارقة دين الآباء والأجداد كما روى ابن إسحاق قال: "ثم إن أبا بكر لقي رسول الله ﷺ فقال: **أحقٌ ما تقول قريش يا محمد من تركك آلهتنا، وتسفيهك عقولنا وتكفيرك آباءنا؟** [٢].

إن هذه كلمة التوحيد بين هؤلاء القوم في تلك الدار كان قائلها يخرج من دينه ويفاصل قومه ويستسلم لله بالتوحيد والانقياد والطاعة والاتباع ... فكان المسلم يقولها معتقداً لمعناها الذي يعرفه من لغة العرب وواقع الحال فيصير بها مؤمناً، والمشرك يجحد لفظها لما يجحده من معناها الذي يعرفه من لغة العرب وواقع الحال فيصير به جاحداً مكذبا ... فتمايز الصفان وبانت السبيلان بكلمة التوحيد، فكان الظاهر المعتبر في التمييز بين المسلمين والمشركين ـ في دارِ كفرٍ أهلُها وثنيين لا يتكلمون بالإسلام ـ هو النطق بالشهادتين مع العلم بمعناها وما تتضمنه من البراءة من الشرك وأهله، قال البغوي في قول النبي ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إلا اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوا: لَا إِلَهَ إلا اللَّهُ، عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»[٣]، وَقَوْلُهُ: " حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إلا اللَّهُ "، **أَرَادَ بِهِ عَبَدَةَ الْأَوْثَانِ** دُونَ أَهْلِ الْكِتَابِ، لأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: لَا إِلَهَ إلا اللَّهُ، ثُمَّ لَا يُرْفَعُ عَنْهُمُ السَّيْفُ حَتَّى يُقِرُّوا بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، أَوْ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ"[٤].

أما الشعائر المشتركة فهي غير معتبرة في هذه الدار فقد كان المشركون يطوفون بالبيت ويحجُّون ويتصدَّقون ويصومون وينذرون ويعمرون المسجد الحرام ويفكون العاني وهي من بقايا ملَّة إبراهيم التي ينتسبون إليها، وهو ظاهرٌ غير معتبر لعدم اختصاصه بطائفةٍ مُعينة، فعن ابن عباس في قوله: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾، قال العباس بن عبد المطلب حين أُسر

---

[١] رواه ابن أبي حاتم ١٦٠٨٣

[٢] سيرة بن اسحاق ١٣٩/١

[٣] رواه البخاري برقم ٢٥ ورواه مسلم برقم ٢٢

[٤] شرح السنة للبغوي ٦٦/١ .

يـوم بـدر:« لـئن كنـتم سـبقتمونا بالإسـلام والهجـرة والجهـاد، لقـد كنـا نعمـر المسـجد الحـرام، ونسـقي الحـاج، ونفـك العـاني! قـال اللـه: ﴿ أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ ﴾، إلـى قولـه: ﴿ٱلظَّٰلِمِين ﴾، يعني أن ذلك كان في الشرك، ولا أقبل ما كان في الشرك»[١]. وهـذه الشـعائر التي تفاخر بها العباس غير معتبرة شرعاً مع ظهور الشرك بالله تعالى، وهي كذلك غير معتبرة في التمييز بين المؤمن والكافر لكونها مشتركة بينهما وبذلك تصير مفرَّغة عن الدلالة.

وعَـنْ قَـيْسِ بْـنِ أَبِي حَـازِمٍ، قَـالَ: دَخَـلَ أَبُـو بَكْـرٍ عَلَى امْـرَأَةٍ مِـنْ أَحْمَـسَ يُقَـالُ لَهَـا زَيْنَـبُ، فَرَآهَـا لاَ تَكَلَّـمُ، فَقَـالَ: «مَـا لَهَـا لاَ تَكَلَّـمُ؟» قَـالُوا: حَجَّـتْ مُصْـمِتَةً، قَـالَ لَهَـا: «تَكَلَّمِي، فَـإِنَّ هَـذَا لاَ يَحِـلُّ، **هَـذَا مِـنْ عَمَـلِ الجَاهِلِيَّـةِ**»[٢]. وعـن عَائِشَـةَ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهَـا، قَالَـتْ: «كَانَ يَـوْمُ عَاشُـورَاءَ **تَصُـومُهُ قُـرَيْشٌ فِي الجَاهِلِيَّـةِ**» " الحـديث[٣] وعَـنِ ابْـنِ عُمَـرَ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُمَـا، أَنَّ عُمَـرَ سَـأَلَ النَّبِيَّ ﷺ، قَـالَ: « كُنْـتُ نَـذَرْتُ فِي الجَاهِلِيَّـةِ أَنْ أَعْتَكِـفَ لَيْلَـةً فِي المَسْجِدِ الحَـرَامِ، قَـالَ: فَـأَوْفِ بِنَـذْرِكَ»[٤]وغير ذلك من الشعائر[٥]، وقال حمد بن عتيق: "فـإن يكـن قـد غـركم أنّهـم يصلّون أو يحجّون أو يصومون ويتصدّقون، فتأمّلوا الأمر من أوله، وهو أنّ التّوحيد قد تقرر في مكّة بدعوة إسماعيل بن إبراهيم الخليل - عليهما السّلام - ومكث أهل مكّة عليه مدّة من الزّمان، ثمّ إنّه فشا فيهم الشّرك بسبب عمرو بن لُحي، وصاروا مشركين، وصارت البلاد بلاد شرك، مع أنّه قد بقي معهم أشياء من الدّين، وكما كانوا يحجّون ويتصدّقون على الحاج وغير الحاج"[٦].

وكـذلك مـن كـان في دار قـوم أهـل كتـاب فالظـاهر المعتبر في الحكم على الأعيان بالإسلام هو النطق بالشهادتين وأن عيسى عبد الله ورسوله وأن محمد ﷺ بُعث للناس كافة، واعتقاد ما تضمنته الشهادة من إفراد الله بالطاعة والتشريع وعدم اتخاذ الأرباب في الحاكمية والاتباع كما يفعله أهل الكتاب بالأحبار والرهبان، وهذا المعنى يجب أن يَنطِقَ به لتتحقق المفاصلة لأنه ليس بعربي يفهم من الشهادة هذه المعاني التي يفهما أهل القرن الأول والتي لا تصح ولا تنعقد الشهادة إلا بها، قال الشافعي :" فعلى كل

---

[١] رواه الطبري في تفسيره برقم ١٦٥٥٨

[٢] رواه البخاري برقم ٣٨٣٤

[٣] رواه البخاري برقم ٢٠٠٢

[٤] رواه البخاري برقم ٢٠٣٢

[٥] وكانوا يذكرون الله وَقَالَ صَيْفِيُّ بْنُ عَامِرٍ، وَهُوَ أَبُو قَيْسِ بْنُ الْأَسْلَتِ الْخَزْرَجِيُّ - وَهُوَ جَاهِلِيٌّ - يَعْنِي قُرَيْشًا: قُومُوا فَصَلُّوا رَبَّكُمْ وَتَعَوَّذُوا ... بِأَرْكَانِ هَذَا الْبَيْتِ بَيْنَ الْأَخَاشِبِ " أخبار مكة للأزرقي ١٤٩/١

[٦] مجموعة الرسائل والمسائل النجدية ٧٤٤/١

مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده، حتى يَشْهَد به أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً عبده ورسوله، ويتلوَ به كتابَ الله، وينطق بالذكر فيما افتُرِض عليه من التكبير، وأُمر به من التسبيح، والتشهد، وغيرِ ذلك"[١].

وعَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ، فِي قِصَّةِ وُرُودِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ مِنْ جِهَةِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الْحِيرَةَ وَمُحَاوَرَةِ هَانِئِ بْنِ قَبِيصَةَ إِيَّاهُ فَقَالَ خَالِدٌ: **أَدْعُوكُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَإِلَى أَنْ تَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَتُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَتُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَتُقِرُّوا بِأَحْكَامِ الْمُسْلِمِينَ** عَلَى أَنَّ لَكُمْ مِثْلَ مَا لَهُمْ وَعَلَيْكُمْ مِثْلَ مَا عَلَيْهِمْ. فَقَالَ هَانِئٌ: وَإِنْ لَمْ أَشَأْ ذَلِكَ فَمَهْ؟ قَالَ: فَإِنْ أَبَيْتُمْ ذَلِكَ أَدَّيْتُمُ الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ. قَالَ: فَإِنْ أَبَيْنَا ذَلِكَ؟ قَالَ: فَإِنْ أَبَيْتُمْ ذَلِكَ وَطِئْتُكُمْ بِقَوْمٍ الْمَوْتُ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ إِلَيْكُمْ. فَقَالَ هَانِئٌ: أَجِّلْنَا لَيْلَتَنَا هَذِهِ فَنَنْظُرَ فِي أَمْرِنَا، قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ. فَلَمَّا أَصْبَحَ الْقَوْمُ غَدَا هَانِئٌ فَقَالَ: إِنَّهُ قَدْ أَجْمَعَ أَمْرُنَا عَلَى أَنْ نُؤَدِّيَ الْجِزْيَةَ فَهَلُمَّ فَلْأُصَالِحْكَ. فَقَالَ لَهُ خَالِدٌ: فَكَيْفَ وَأَنْتُمْ قَوْمٌ عَرَبٌ تَكُونُ الْجِزْيَةُ وَالذُّلُّ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ الْقِتَالِ وَالْعِزِّ؟ فَقَالَ: نَظَرْنَا فِيمَا يُقْتَلُ مِنَّا فَإِذَا هُمْ لَا يَرْجِعُونَ، وَنَظَرْنَا إِلَى مَا يُؤْخَذُ مِنَّا مِنَ الْمَالِ فَقَلَّمَا نَلْبَثُ حَتَّى يُخْلِفَهُ اللهُ لَنَا، قَالَ: فَصَالَحَهُمْ خَالِدٌ عَلَى تِسْعِينَ أَلْفًا"[٢].

وقال السرخسي:" ذَكَرَ عَنْ الْحَسَنِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿أُمِرْت أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ. فَإِذَا قَالُوهَا فَقَدْ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ﴾، قَالَ: فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُقَاتِلُ عَبَدَةَ الْأَوْثَانِ، وَهُمْ قَوْمٌ لَا يُوَحِّدُونَ اللَّهَ، فَمَنْ قَالَ مِنْهُمْ: لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، كَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى إسْلَامِهِ، وَالْحَاصِلُ أَنَّهُ يُحْكَمُ بِإِسْلَامِهِ إذَا أَقَرَّ بِخِلَافِ مَا كَانَ مَعْلُومًا مِنْ اعْتِقَادِهِ، لِأَنَّهُ لَا طَرِيقَ إلَى الْوُقُوفِ عَلَى حَقِيقَةِ الِاعْتِقَادِ لَنَا، فَنَسْتَدِلُّ بِمَا نَسْمَعُ مِنْ إقْرَارِهِ عَلَى اعْتِقَادِهِ. **فَإِذَا أَقَرَّ بِخِلَافِ مَا هُوَ مَعْلُومٌ مِنْ اعْتِقَادِهِ اسْتَدْلَلْنَا بِهِ عَلَى أَنَّهُ بَدَّلَ اعْتِقَادَهُ.** وَعَبَدَةُ الْأَوْثَانِ كَانُوا يُقِرُّونَ بِاَللَّهِ تَعَالَى. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾وَلَكِنْ كَانُوا لَا يُقِرُّونَ بِالْوَحْدَانِيَّةِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ وَقَالَ فِيمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾، مَنْ قَالَ مِنْهُمْ: لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، فَقَدْ أَقَرَّ بِمَا هُوَ مُخَالِفٌ

---

[١] الرسالة ٤٧/١

[٢] رواه البيهقي في السنن الكبرى برقم ١٨٦٤٧، قال ابن دقيق العيد :"فَإِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ أَهْلُ عِلْمٍ، وَمُخَاطَبَتُهُمْ لَا تَكُونُ كَمُخَاطَبَةِ جُهَّالِ الْمُشْرِكِينَ، وَعَبَدَةِ الْأَوْثَانِ فِي الْعِنَايَةِ بِهَا وَالْبُدَاءَةُ فِي الْمُطَالَبَةِ بِالشَّهَادَتَيْنِ: لِأَنَّ ذَلِكَ أَصْلُ الدِّينِ الَّذِي لَا يَصِحُّ شَيْءٌ مِنْ فُرُوعِهِ إلَّا بِهِ، فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُوَحِّدٍ عَلَى التَّحْقِيقِ ـ كَالنَّصَارَى ـ فَالْمُطَالَبَةُ مُتَوَجِّهَةٌ إلَيْهِ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ الشَّهَادَتَيْنِ عَيْنًا، وَمِنْ كَانَ مُوَحِّدًا ـ كَالْيَهُودِ ـ فَالْمُطَالَبَةُ لَهُ: بِالْجَمْعِ بَيْنَ مَا أَقَرَّ بِهِ مِنْ التَّوْحِيدِ، وَبَيْنَ الْإِقْرَارِ بِالرِّسَالَةِ. وَإِنْ كَانَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ ـ الَّذِينَ كَانُوا بِالْيَمَنِ ـ عِنْدَهُمْ مَا يَقْتَضِي الْإِشْرَاكَ، وَلَوْ بِاللُّزُومِ **يَكُونُ مُطَالَبَتُهُمْ بِالتَّوْحِيدِ لِنَفْيِ مَا يَلْزَمُ مِنْ عَقَائِدِهِمْ. وَقَدْ ذَكَرَ الْفُقَهَاءُ: أَنَّ مَنْ كَانَ كَافِرًا بِشَيْءٍ، مُؤْمِنًا بِغَيْرِهِ: لَمْ يَدْخُلْ فِي الْإِسْلَامِ إلَّا بِالْإِيمَانِ بِمَا كَفَرَ بِهِ**

لِاعْتِقَادِهِ **فَلِهَذَا جُعِلَ ذَلِكَ دَلِيلَ إيمَانِهِ** فَقَالَ: «أُمِرْت أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ» . .

وَعَلَى هَذَا الْمَانَوِيَّةُ وَكُلُّ مَنْ يَدَّعِي إلَهَيْنِ، إذَا قَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ: لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، فَذَلِكَ دَلِيلُ إسْلَامِهِ.

فَأَمَّا الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى هُمْ يَقُولُونَ: لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، فَلَا تَكُونُ هَذِهِ الْكَلِمَةُ دَلِيلَ إسْلَامِهِمْ. وَهُمْ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانُوا لَا يُقِرُّونَ بِرِسَالَتِهِ. فَكَانَ دَلِيلُ الْإِسْلَامِ فِي حَقِّهِمْ الْإِقْرَارَ بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ. عَلَى مَا رُوِيَ عَنْهُ «أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى جَارِهِ الْيَهُودِيّ يَعُودُهُ فَقَالَ: أَشْهَدْ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَنَظَرَ الرَّجُلُ إلَى أَبِيهِ فَقَالَ لَهُ: أَجِبْ أَبَا الْقَاسِمِ. فَشَهِدَ بِذَلِكَ وَمَاتَ، فَقَالَ ﷺ -: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعْتَقَ بِي نَسَمَةً مِنْ النَّارِ: ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: لُوا أَخَاكُمْ» .

قَالَ: فَأَمَّا الْيَوْمَ بِبِلَادِ الْعِرَاقِ فَإِنَّهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَلَكِنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ رَسُولٌ إلَى الْعَرَبِ، لَا إلَى بَنِي إسْرَائِيل وَيَتَمَسَّكُونَ بِظَاهِرِ قَوْلِه تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾ فَمَنْ يُقِرُّ مِنْهُمْ بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ لَا يَكُونُ مُسْلِمًا حَتَّى يَتَبَرَّأَ مِنْ دِينِهِ مَعَ ذَلِكَ، أَوْ يُقِرَّ بِأَنَّهُ دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ. حَتَّى **إذَا قَالَ الْيَهُودِيُّ أَوْ النَّصْرَانِيُّ: أَنَا مُسْلِمٌ أَوْ أَسْلَمْت لَا يُحْكَمُ** بِإِسْلَامِهِ. لِأَنَّهُمْ لَا يَدَّعُونَ ذَلِكَ. فَإِنَّ الْمُسْلِمَ هُوَ الْمُسْتَسْلِمُ لِلْحَقِّ الْمُنْقَادُ لَهُ، وَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْحَقَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ. فَلَا يَكُونُ مُطْلَقُ هَذَا اللَّفْظِ فِي حَقِّهِمْ دَلِيلَ الْإِسْلَامِ حَتَّى يَتَبَرَّأَ مِنْ دِينِهِ مَعَ ذَلِكَ.

كَذَلِكَ لَوْ قَالَ: بَرِئْت مِنْ الْيَهُودِيَّةِ وَلَمْ يَقُلْ مَعَ ذَلِكَ: دَخَلْت فِي الْإِسْلَامِ، فَإِنَّهُ لَا يُحْكَمُ بِإِسْلَامِهِ، لِأَنَّهُ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ تَبَرأَ مِنْ الْيَهُودِيَّةِ وَدَخَلَ فِي النَّصْرَانِيَّةِ. فَإِنْ قَالَ مَعَ ذَلِكَ: وَدَخَلْت فِي الْإِسْلَامِ فَحِينَئِذٍ يَزُولُ هَذَا الِاحْتِمَالُ. وَقَالَ بَعْضُ مَشَايِخِنَا: إذَا قَالَ: دَخَلْت فِي الْإِسْلَامِ، يُحْكَمُ بِإِسْلَامِهِ وَإِنْ لَمْ يَتَبَرَّأْ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ. لِأَنَّ فِي لَفْظِهِ مَا يَدُلُّ عَلَى دُخُولٍ حَادِثٍ مِنْهُ فِي السَّلَامِ، وَذَلِكَ غَيْرُ مَا كَانَ عَلَيْهِ. **فَتَضَمُّنُ هَذَا اللَّفْظُ التَّبَرِّي مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ.**

وَلَوْ قَالَ الْمَجُوسِيُّ: أَسْلَمْت، أَوْ أَنَا مُسْلِمٌ، يُحْكَمُ بِإِسْلَامِهِ. لِأَنَّهُمْ لَا يَدَّعُونَ هَذَا الْوَصْفَ لِأَنْفُسِهِمْ وَيَعُدُّونَهُ شَتِيمَةً بَيْنَهُمْ يَشْتُمُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ بِهِ وَلَدُهُ فَيَكُونُ ذَلِكَ دَلِيلَ الْإِسْلَامِ فِي حَقِّهِ"[1].

ننتقل إلى واقع آخر: وهو بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة وقيام دولة الإسلام التي آوى إليها المهاجرون المستضعفون، واستعلنت فيها شعائر الإسلام وقامت فيها شرائعه،

[1] شرح السير الكبير ١/١٥٢

فالأصل في هذه الدار الإسلام كما قال ابن رجب:" إِذْ الْأَصْلُ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ الْإِسْلَامُ"[1]، ولا يُنتَقَلُ عن هذا الأصل إلا بظهور الكفر بالله كقوله تعالى: ﴿ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ ﴾، ولقوله ﷺ: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»[2]، والحكم على الأعيان في دار الإسلام بالإسلام لأن دار الإسلام لا تُقِرُ مُرتداً على ردته، وأما شعائر المسلمين فقد كانت خاصة بهم في ذلك الحين فمن فعلها من وثني أو كتابي قد يُحكم عليه بالإسلام على قول بعض الفقهاء[3] واستدلوا بما ورد عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: كَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَهْلِ الْيَمَنِ:

---

[1] القواعد لابن رجب ٣٤٥/١

[2] رواه البخاري برقم ٦٩٢٢

[3]**<u>اعتبار الشعائر عند بعض الفقهاء بقيد الاختصاص:</u>**

اعتبر بعض الفقهاء كالحنابلة وغيرهم شعيرة الصلاة للحكم بالإسلام **بقيد الاختصاص دون الاشتراك بين طوائف الكفر**؛ قال السرخسي:" وَعَنْ سَلَمَةَ قَالَ: سَأَلْت الشَّعْبِيَّ عَنْ الصَّبِيِّ مَتَى يُصَلَّى عَلَيْهِ؟ قَالَ: إذَا صَلَّى فَصَلُّوا عَلَيْهِ. وَتَأْوِيلُ هَذَا فِيمَا إذَا لَمْ يُسْمَعْ مِنْهُ الْإِقْرَارُ بِالْإِسْلَامِ، وَلَكِنَّهُ صَلَّى مَعَ الْمُسْلِمِينَ بِالْجَمَاعَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُوجِبُ الْحُكْمُ بِإِسْلَامِهِ عِنْدَنَا، **لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَا يُصَلُّونَ بِالْجَمَاعَةِ عَلَى هَيْئَةِ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ. وَإِظْهَارِمَا يَخْتَصُّ بِهِ الْمُسْلِمُونَ فِعْلًا يَكُونُ بِمَنْزِلَةِ إظْهَارِمَا يَخْتَصُّ بِهِ الْمُسْلِمُونَ قَوْلًا، فَيَصِيرُبِهِ مُسْلِمًا**، حَتَّى إذَا رَجَعَ عَنْ الْإِسْلَامِ ضُرِبَتْ عُنُقُهُ إنْ كَانَ رَجُلًا. وَأَمَّا إذَا صَلَّى وَحْدَهُ لَمْ يُحْكَمْ بِإِسْلَامِهِ إلَّا فِي رِوَايَةٍ رَوَاهَا دَاوُد بْنُ رَشِيدٍ عَنْ مُحَمَّدٍ أَنَّهُ إذَا صَلَّى إلَى قِبْلَةِ الْمُسْلِمِينَ يُحْكَمُ بِإِسْلَامِهِ، لِقَوْلِهِ ﷺ: «مَنْ اسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا فَلَهُ مَا لَنَا وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْنَا».

فَأَمَّا إذَا صَامَ أَوْ أَدَّى الزَّكَاةَ أَوْ حَجَّ لَمْ يُحْكَمْ بِإِسْلَامِهِ فِي ظَاهِرِ الرِّوَايَةِ. وَفِي رِوَايَةِ دَاوُد بْنِ رَشِيدٍ عَنْ مُحَمَّدٍ قَالَ: إذَا حَجَّ الْبَيْتَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَفْعَلُهُ الْمُسْلِمُونَ يُحْكَمُ بِإِسْلَامِهِ؛ لِأَنَّهُ ظَهَرَ مِنْهُ فِعْلٌ مَا **يَخْتَصُّ بِهِ الْمُسْلِمُونَ**، فَيُجْعَلُ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى إسْلَامِهِ. وَاَللَّهُ أَعْلَمُ" شرح السير الكبير ١٥٥/١.

فترى أن تعليل الحكم بالإسلام لمن تلبس بالشعائر مداره على الاختصاص وبه حكم الحنابلة كذلك، قال ابن قدامة:" فَصْلٌ: وَإِذَا صَلَّى الْكَافِرُ، حُكِمَ بِإِسْلَامِهِ، سَوَاءٌ كَانَ فِي دَارِ الْحَرْبِ أَوْ دَارِ الْإِسْلَامِ أَوْ صَلَّى جَمَاعَةً أَوْ فُرَادَى، وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: إنْ صَلَّى فِي دَارِ الْحَرْبِ، حُكِمَ بِإِسْلَامِهِ، وَإِنْ صَلَّى فِي دَارِ الْإِسْلَامِ، لَمْ يُحْكَمْ بِإِسْلَامِهِ؛ لِأَنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنَّهُ صَلَّى رِيَاءً وَتَقِيَّةً. وَلَنَا أَنَّ مَا كَانَ إسْلَامًا فِي دَارِ الْحَرْبِ كَانَ إسْلَامًا فِي دَارِ الْإِسْلَامِ، كَالشَّهَادَتَيْنِ، وَلِأَنَّ الصَّلَاةَ رُكْنٌ يَخْتَصُّ بِهِ الْإِسْلَامُ، فَحُكِمَ بِإِسْلَامِهِ بِهِ كَالشَّهَادَتَيْنِ. وَاحْتِمَالُ التَّقِيَّةِ وَالرِّيَاءِ، يَبْطُلُ بِالشَّهَادَتَيْنِ. وَسَوَاءٌ كَانَ أَصْلِيًّا أَوْ مُرْتَدًّا. وَأَمَّا سَائِرُ الْأَرْكَانِ، مِنْ الزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْحَجِّ، فَلَا يُحْكَمُ بِإِسْلَامِهِ بِهِ، فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَحُجُّونَ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى مَنَعَهُمْ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «لَا يَحُجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ.» وَالزَّكَاةُ صَدَقَةٌ، وَهُمْ يَتَصَدَّقُونَ.

وَقَدْ فَرَضَ عَلَى نَصَارَى بَنِي تَغْلِبَ مِنْ الزَّكَاةِ مِثْلَيْ مَا يُؤْخَذُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَصِيرُوا بِذَلِكَ مُسْلِمِينَ، وَأَمَّا الصِّيَامُ فَلِكُلِّ أَهْلِ دِينٍ صِيَامٌ، وَلِأَنَّ الصِّيَامَ لَيْسَ بِفِعْلٍ، إنَّمَا هُوَ إمْسَاكٌ عَنْ أَفْعَالٍ مَخْصُوصَةٍ فِي وَقْتٍ مَخْصُوصٍ، وَقَدْ يَتَّفِقُ هَذَا مِنْ الْكَافِرِ، كَاتِّفَاقِهِ مِنْ الْمُسْلِمِ، وَلَا عِبْرَةَ بِنِيَّةِ الصِّيَامِ؛ لِأَنَّهَا أَمْرٌ بَاطِنٌ لَا عِلْمَ لَنَا بِهِ، **بِخِلَافِ الصَّلَاةِ، فَإِنَّهَا أَفْعَالٌ تَتَمَيَّزُ عَنْ أَفْعَالِ الْكُفَّارِ، وَيَخْتَصُّ بِهَا أَهْلُ الْإِسْلَامِ**، وَلَا يَثْبُتُ الْإِسْلَامُ حَتَّى يَأْتِيَ بِصَلَاةٍ يَتَمَيَّزُ بِهَا عَنْ صَلَاةِ الْكُفَّارِ، مِنْ اسْتِقْبَالِ قِبْلَتِنَا، وَالرُّكُوعِ، وَالسُّجُودِ، وَلَا يَحْصُلُ بِمُجَرَّدِ الْقِيَامِ؛ لِأَنَّهُمْ يَقُومُونَ فِي صَلَاتِهِمْ" المغني ٢٣/٩

فاعتبروا الصلاة في الحكم بالإسلام لكونها من خصائص المسلمين ولم يعتبروا الحج والصيام مع كونها من الشعائر لاشتراكها وعدم اختصاصها.

" **وخالف الْمَالِكِيَّةُ وَبَعْضُ الشَّافِعِيَّةِ** فقالو: لاَ يُحْكَمُ بِإِسْلاَمِ الْكَافِرِ بِمُجَرَّدِ صَلاَتِهِ، **لأِنَّ الصَّلاَةَ مِنْ فُرُوعِ الإْسْلاَمِ**، فَلَمْ يَصِرْ مُسْلِمًا بِفِعْلِهَا، كَالْحَجِّ وَالصِّيَامِ، وَلأِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَال: أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِل النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنِّي رَسُول اللَّهِ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّهَا" الدسوقي على الشرح الكبير ١ / ٣٢٥.

﴿مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا فَذَلِكُمُ الْمُسْلِمُ، لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَمَنْ أَبَى فَعَلَيْهِ الْجِزْيَةُ﴾[1]، وغيرها من الأحاديث في هذا الباب.

ومما يؤيد هذا الأصل ويستدل به في الباب: الشروط العمرية على أهل الذمة في دار الإسلام للتمييز بينهم وبين المسلمين لئلا تجري عليهم أحكام المسلمين، لأنهم إذا تُركوا اختلطوا بالمسلمين ووقع الاشتباه فألزموا بالغِيار، وجاء في الشروط :"وَأَنْ نُلْزِمَ زِيَّنَا حَيْثُمَا كُنَّا وَأَلَّا نَتَشَبَّهَ بِالْمُسْلِمِينَ فِي لُبْسِ قَلَنْسُوَةٍ وَلَا عِمَامَةٍ وَلَا فَرْقِ شَعْرٍ وَلَا فِي مَرَاكِبِهِمْ" قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبَرِيُّ فِي سِيَاقِ مَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ اسْتِعْمَالِ الْغِيَارِ لِأَهْلِ الْمِلَلِ الَّذِينَ خَالَفُوا شَرِيعَتَهُ صَغَارًا وَذُلًّا وَشُهْرَةً وَعَلَمًا عَلَيْهِمْ؛ لِيُعْرَفُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي زِيِّهِمْ وَلِبَاسِهِمْ وَلَا يَتَشَبَّهُوا بِهِمْ: " وَكَتَبَ عُمَرُ إِلَى الْأَمْصَارِ أَنْ تُجَزَّ نَوَاصِيَهُمْ، وَأَلَّا يَلْبَسُوا لُبْسَةَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يُعْرَفُوا "[2].

"وَقَدْ قَالَ مَالِكٌ فِي الْكَافِرِ يُوجَدُ عِنْدَ الدَّرْبِ فَيَقُولُ: جِئْتُ مُسْتَأْمِنًا أَطْلُبُ الْأَمَانَ: هَذِهِ أُمُورٌ مُشْكِلَةٌ، وَأَرَى أَنْ يُرَدَّ إِلَى مَأْمَنِهِ، وَلَا يُحْكَمُ لَهُ بِحُكْمِ الْإِسْلَامِ، لِأَنَّ الْكُفْرَ قَدْ ثَبَتَ لَهُ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَظْهَرَ مِنْهُ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الِاعْتِقَادَ الْفَاسِدَ الَّذِي كَانَ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ الْفَاسِدُ قَدْ تَبَدَّلَ بِاعْتِقَادٍ صَحِيحٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ الصَّحِيحُ، **وَلَا يَكْفِي فِيهِ أَنْ يَقُولَ: أَنَا مُسْلِمٌ، وَلَا أَنَا مُؤْمِنٌ، وَلَا أَنْ يُصَلِّي** حَتَّى يَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ الْعَاصِمَةِ الَّتِي عَلَّقَ النَّبِيُّ ﷺ الْحُكْمَ بِهَا عَلَيْهِ فِي قَوْلِهِ: «أُمِرْت أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ». فَإِنْ صَلَّى أَوْ فَعَلَ فِعْلًا مِنْ خَصَائِصِ الْإِسْلَامِ وَهِيَ: الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: فَقَدْ اخْتَلَفَ فِيهِ عُلَمَاؤُنَا، وَتَبَايَنَتْ الْفِرَقُ فِي إسْلَامِهِ، وَقَدْ حَرَّرْنَاهَا فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ. وَنَرَى أَنَّهُ لَا يَكُونُ مُسْلِمًا بِذَلِكَ، ـ إلي أن قال ـ وَهِيَ: وَكَذَلِكَ هَذَا الَّذِي قَالَ: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ يُكَلَّفُ الْكَلِمَةَ، فَإِنْ قَالَهَا تَحَقَّقَ رَشَادُهُ، وَإِنْ أَبِي تَبَيَّنَ عِنَادُهُ وَقُتِلَ. وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: {فَتَبَيَّنُوا} [النساء: ٩٤] أَيْ الْأَمْرَ الْمُشْكِلَ، أَوْ تَثَبَّتُوا وَلَا تَعْجَلُوا، الْمَعْنَيَانِ سَوَاءٌ؟ فَإِنْ قَتَلَهُ أَحَدٌ فَقَدْ أَتَى مَنْهِيًّا عَنْهُ، لَا يَبْلُغ فِدْيَةً وَلَا كَفَّارَةً وَلَا قِصَاصًا" أحكام القرآن لابن عربي ٦٠٧/١.

وورد في الآثار أنَّ في آخر الزمان يصلي أقوام لا خلاق لهم فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الدَّيْلَمِيِّ ، قَالَ: «تَذْهَبُ السُّنَّةُ سُنَّةً سُنَّةً كَمَا يَذْهَبُ الْحَبْلُ قُوَّةً قُوَّةً وَآخِرُ الدِّينِ الصَّلَاةُ وَلَيُصَلِّيَنَّ قَوْمٌ وَلَا خَلَاقَ لَهُمْ» البدع والنهي عنها ١٢٨/٢

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى مُؤْمِنٌ إِلَّا لَحِقَ بِالشَّامِ، وَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَجْتَمِعُونَ فِي الْمَسَاجِدِ لَيْسَ فِيهِمْ مُؤْمِنٌ» السنة للخَلَّال برقم ١٣٠٨ ، ويستأنس بها على أن الصلاة تصير في آخر الزمان شعيرة مشتركة.

والدلالة إذا اشتركت تفرَّغت عن الاختصاص والتمييز فلا اعتبار لها وهذا متقرر عند الفقهاء قَال ابْنُ نُجَيْمٍ: **"الْأَصْل أَنَّ الْكَافِرَ مَتَى فَعَل عِبَادَةً فَإِنْ كَانَتْ مَوْجُودَةً فِي سَائِرِ الْأَدْيَانِ لاَ يَكُونُ بِهَا مُسْلِمًا، كَالصَّلاَةِ مُنْفَرِدًا،** وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ الَّذِي لَيْسَ بِكَامِلٍ، وَالصَّدَقَةِ، وَمَتَى فَعَل مَا اخْتَصَّ بِشَرْعِنَا، وَلَوْ مِنَ الْوَسَائِل كَالتَّيَمُّمِ. وَكَذَلِكَ مَا كَانَ مِنَ الْمَقَاصِدِ أَوْ مِنَ الشَّعَائِرِ، كَالصَّلاَةِ بِجَمَاعَةٍ وَالْحَجِّ الْكَامِل وَالأَْذَانِ فِي الْمَسْجِدِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، يَكُونُ بِهِ مُسْلِمًا، وَإِلَيْهِ أَشَارَ فِي الْمُحِيطِ وَغَيْرِهِ" الدر المختار ١ / ٧٣٦٤، ٣ / ٣٩٠، والمغني ٢ / ٢٠١.

[1] رواه ابن أبي شيبة برقم ٣٢٦٣٤ واللفظ له وأصله في البخاري برقم ٣٩١ وقوله: (أكل ذبيحتنا) تنويه باليهود الذين لا يأكلون ذبيحة المسلمين.

[2] أحكام اهل الذمة ١٢٣٦/٣

ووجه إيراد المسألة هنا هو بيان أن الأصل في دار الإسلام هو الإسلام، لذلك احتاج عمر ﷺ إلى التميز بين أهل الذمة والمسلمين، وكذلك فيها بيان أنَّ الظاهر المعتبر لأهل الذمة في دار الإسلام هو **المغايرة** في اللباس والمركب وإلزامهم بذلك ونهيهم عن الاشتراك مع المسلمين في زي أو مركب أو خصيصة لئلا تجري عليهم أحكام المسلمين خطأً لعدم التمييز، فدلَّ على أن الظاهر المعتبر للقلة المخالفة لدين القوم هو ما تظهر به المخالفة ولا يكون فيه اشتراك، وهذا كأصل في الباب أن: **الظاهر المعتبر في قوم هو ما تتحقق به المغايرة لهم.**

ننتقل إلى واقع آخر: بعد وفاة النبي ﷺ وارتداد العرب، ففي مثل هذا الواقع ما هو الظاهر الذي اعتبره الصحابة للحكم بإسلام العين في هذه الدور الممتنعة؟ وبصيغة أخرى: ما هو الظاهر المعتبر للحكم بالإسلام على القلة المستخفية بإيمانها في دار الحرب؟ هل هو إظهار الشعائر كالأذان والصلاة والحجاب وغيرها، أو إظهار خلاف ما أظهره القوم من كفر وشرك والبراءة مما أحدثوه من ذلك كما أظهرت القلة المؤمنة من الرسل وأتباعهم خلاف ما أظهره الأقوام الكافرة من الشرك والكفر وكان ذلك قبل نزول الشرائع؟ وهذا هو محل النزاع:

فنقول أنَّه إذا تعارض إظهار الشعائر مع ظهور الشرك وعلو أحكامه ومشاهده، والامتناع عن بعض الشرائع فضلاً عن تبديل الشريعة وإماتتها، يقدم الأخير الذي هو الظاهر الأقوى ولا اعتبار للشعائر المشتركة في هذه الصورة لعدم الاختصاص، ويدل عليه الكتاب والسنة والإجماع.

المطلب الأول: الأدلة على أن الظاهر المعتبر في دور الكفر هو إظهار مخالفة ما عليه القوم من كفر وشرك

والدليل القطعي من كتاب الله على أن الظاهر المعتبر في دور الكفر هو إظهار مخالفة ما عليه القوم من كفر وشرك: هو الظاهر الذي أتت به القلة المؤمنة من الرسل وأتباعهم، كقوله تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا

ﭐلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴾[يونس ٧٣]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٦ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ۝٥٧ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴾[هود٥٨]، وقال تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٠٤ وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٠٥ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[يونس١٠٦]. وقال تعالى: ﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ﴾[الكهف ١٤]، وغير ذلك من الآيات في قصص الأنبياء وعباده الصالحين.

فمن أظهر المخالفة لدين قومه في مثل هذه الديار وبين هؤلاء الأقوام يُحكم له بالإسلام، أما من كان مستخفياً بدينه فيجري عليه ما يجري على الكثرة لعدم إظهاره للظاهر الذي يتعلق به الحكم.

<u>والدليل من السنة:</u> حديث معاوية بن الحكم السلمي قال:﴿ قلتُ يا رسولَ اللهِ إنه كانت لي جاريةٌ تَرْعَى قِبَلَ أُحُدٍ والجَوَّانِيَّةِ وإني أطَّلِعُها يومًا إطِّلاعةً فوجدتُ الذئبَ قد ذهب منها بشاةٍ وأنَا من بني آدمَ آسَفُ لِما يأسفونَ فَصَكَكْتُها صَكًّا فعَظُم ذلك على النبيِّ قال قلتُ يا رسولَ اللهِ أَعتِقُها قال: ادعُها إليَّ فقال لها أين اللهُ؟ قالت: في السماءِ قال: ومن أنَا، قالت: رسولُ اللهِ قال: اعتِقْها فإنها مؤمنةٌ﴾[١].

وفي وجه الدلالة نقول أنَّ الأصل في الرقيق الكفر حتى يثبت خلاف ذلك بأمارات الإيمان ومخالفة الكفر الذي اشتهر به قومهم وكان سبباً في رقهم، قال الشنقيطي. " وسبب الملك بالرق: هو الكفر، ومحاربة الله ورسوله ﷺ"[٢].

---

[١] رواه مسلم برقم: ١١٩٩

[٢] أضواء البيان (٣/٣٨٧)

وقَـالَ أَبُـو سَـعِيدٍ الـدارمي: "أَلَا تَـرَى أَنَّ رَسُـولَ اللَّـهِ ﷺ جَعَـلَ أَمَـارَةَ إِيمَانِـهَا مَعْرِفَتَـهَا أَنَّ اللَّـهَ فِي السَّـمَاءِ؟"[١]، والامتحـان دليـل على أن الأصـل في مـن امـتُحن على الإيمـان أنـه فاقـد لـه كمـا سـبق معنـا في المهـاجرات مـن دار الكفـر إلى دار الإسـلام في قولـه: ﴿ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾[الممتحنة:١٠]، والنبـي ﷺ امـتحن الجاريـة بمسـائل مـن أصـل الإيمـان وجعـل أمـارة إيمانهـا معرفتهـا أن اللـه في السـماء، ولـم يمتحنهـا بمـا يُبنى عليـه الـدين مـن الشـرائع، فلـم يقـل لهـا هـل تشـهدين الصـلاة ونحـو ذلـك، لأن الأصـل في الرقيـق الشـرك والكفـر والمخالفـة لأصـل الـدين، وعليـه فـالحكم بإسـلام مـن اسـتفاض عـنهم الكفـر قومـاً كـانوا أو طائفـة أو فـرداً لا يكـون إلا بالإتيـان بأصـل الإيمـان الـذي عُلـم أنّ كُفـرهم مُتفـرّع عنـه والتصـريح بـه، وفي هـذا تفنيـد للـذين جعلـوا الشـعائر دلـيلاً على صحّة أصـل الإيمـان أو احتمـال صحّته في قـوم عُلـم مـنهم يقينـا على وجـه الإستفاضـة جهلهـم بـه و نقضـهم للشـهادتين، قَـالَ أَبُـو سَـعِيدٍ: "فَفِـي حَـدِيثِ رَسُـولِ اللَّـهِ ﷺ هَـذَا دَلِيـلٌ عَلَـى أَنَّ الرَّجُـلَ إِذَا لَـمْ يَعْلَـمْ أَنَّ اللَّـهَ عَـزَّ وَجَـلَّ فِي السَّـمَاءِ دُونَ الْأَرْضِ فَلَـيْسَ بِمُـؤْمِنٍ وَلَـوْ كَـانَ عَبْـدًا فَـأُعْتِقَ لَـمْ يَجُـزْ فِي رَقَبَـةٍ مُؤْمِنَـةٍ، إِذْ لَا يَعْلَـمُ أَنَّ اللَّـهَ فِي السَّـمَاءِ. **أَلَا تَـرَى أَنَّ رَسُـولَ اللَّـهِ ﷺ جَعَـلَ أَمَـارَةَ إِيمَانِهَـا مَعْرِفَتَهَـا أَنَّ اللَّـهَ فِي السَّـمَاءِ**؟"[٢]، وقـال:" فَاللَّـهُ تَبَـارَكَ وَتَعَـالَى فَـوْقَ عَرْشِـهِ، فَـوْقَ سَـمَوَاتِهِ، بَـائِنٌ مِـنْ خَلْقِـهِ، فَمَـنْ لَـمْ يَعْرِفْـهُ بِـذَلِكَ لَـمْ يَعْـرِفْ إِلَهَـهُ الَّـذِي يَعْبُدُ"[٣].

<u>**والـدليل مـن الإجمـاع:**</u> هـو إجمـاع الصحابة في دور الـردة بعـد وفـاة النبي ﷺ حيـث أنهـم لـم يعتبـروا شـهادة أن لا إلـه إلا اللـه والصـلاة والصـيام والآذان وغيرهـا مـن الشـعائر في هـذه الـدور، ونفـس الـدليل الـذي يَسـتدل بـه مـن يحكـم بالشـعائر اسـتدل بـه أبـي بكـر على عـدم اعتبـار الشـعائر في مثـل هـذه الـدور وأجـرى علـيهم أحكـام الكفـار، فعَـنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَـالَ: قَـالَ رَسُـولُ اللـهِ ﷺ: ﴿أُمِـرْتُ أَنْ أُقَاتِـلَ النَّـاسَ حَتَّـى يَشْـهَدُوا أَنْ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللـهُ، وَأَنَّ مُحَمَّـدًا رَسُـولُ اللـهِ، فَـإِذَا شَـهِدُوا **وَاسْـتَقْبَلُوا قِبْلَتَنَـا، وَأَكَلُـوا ذَبِيحَتَنَـا، وَصَـلَّوْا صَـلَاتَنَا**، فَقَدْ حَرُمَتْ عَلَيْنَا دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ **إِلَّا بِحَقِّهَا** لَهُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْهِمْ﴾[٤].

---

[١] الرد على الجهمية للدارمي، صفحة ٤٦

[٢] الرد على الجهمية للدارمي، صفحة ٤٦

[٣] الرد على الجهمية للدارمي، صفحة ٤٦

[٤] رواه أحمد برقم ١٣٠٥٦ وإسناده صحيح.

فقد استدل أبو بكر بقوله "إِلَّا بِحَقِّهَا" فقَالَ: «وَاللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ **فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ** وَاللَّهِ إِنْ مَنَعُونِي عِقَالا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَوَ اللَّهِ مَا هُوَ إِلا أَنْ رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ»[١].

ومن يقول أنَّ قومنا أهل قبلة ولا يصح تكفيرهم، فنقول أنَّ أهل القبلة ليس فيهم مشركين ولا طواغيت، وكيف يكون قومنا أهل قبلة وهم غارقين في الشرك والكفر، فعنْ وَهْبٍ يَعْنِي ابْنَ مُنَبِّهٍ قَالَ:« سَأَلْتُ جَابِرًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هَلْ فِي الْمُصَلِّينَ مِنْ طَوَاغِيتَ؟ قَالَ:« لَا، وَسَأَلْتُهُ هَلْ فِيهِمْ مُشْرِكٌ؟ قَالَ: لَا»[٢].

والذي استقر عليه إجماع الصحابة: التكفير والقتال وعدم اعتبار ظاهر الشهادة والشعائر في مثل هذه الدور، وحكى الإجماع أبو عبيد القاسم بن سلام في سياق استدلاله أن العمل ركن في الإيمان فقال: " وَالْمُصَدِّقُ لِهَذَا جِهَادُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ عَلَى مَنْعِ الْعَرَبِ الزَّكَاةَ كَجِهَادِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَهْلَ الشِّرْكِ سَوَاءً ، لَا فَرْقَ بَيْنَهَا فِي سَفْكِ الدِّمَاءِ ، وَسَبْيِ الذُّرِّيَّةِ ، وَاغْتِنَامِ الْمَالِ ، فَإِنَّمَا كَانُوا مَانِعِينَ لَهَا غَيْرَ جَاحِدِينَ بِهَا"[٣].

وقال الجصاص:" وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ ـ ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ـ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ مَنْ رَدَّ شَيْئًا مِنْ أَوَامِرِ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ أَوَامِرِ رَسُولِهِ ﷺ فَهُوَ خَارِجٌ مِنْ الْإِسْلَامِ سَوَاءٌ رَدَّهُ مِنْ جِهَةِ الشَّكِّ فِيهِ أَوْ مِنْ جِهَةِ تَرْكِ الْقَبُولِ وَالِامْتِنَاعِ مِنْ التَّسْلِيمِ **وَذَلِكَ يُوجِبُ صِحَّةَ مَا ذَهَبَ إلَيْهِ الصَّحَابَةُ فِي حُكْمِهِمْ بِارْتِدَادِ مَنْ امْتَنَعَ مِنْ أَدَاءِ الزَّكَاةِ وَقَتْلِهِمْ وَسَبْيِ ذَرَارِيِّهِمْ** لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَكَمَ بِأَنَّ مَنْ لَمْ يُسَلِّمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ قَضَاءَهُ وَحُكْمَهُ فَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ"[٤].

فقد كان مانعي الزكاة مظهرين للشعائر ممتنعين من إقامة الشرائع فقال أبو بكر رضي الله عنه: «وَأَمَّا مَنِ ارْتَدَّتْ مِنْ هَؤُلاءِ الْعَرَبِ، فَمِنْهُمْ مَنْ لا يُصَلِّي وَقَدْ كَفَرَ بِالصَّلاةِ، **وَمِنْهُمْ مَنْ يُصَلِّي وَقَدْ مَنَعَ الزَّكَاةَ**، وَلا وَاللَّهِ يَا أَبَا حَفْصٍ مَا أُفَرِّقُ بَيْنَ الصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ

---

[١] رواه البخاري برقم ١٤٠٠ ومسلم برقم ٢٠

[٢] المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية برقم ٢٩٩٧

[٣] الايمان ١٧/١

[٤] أحكام القرآن للجصاص ١٨١/١

لأَنَّهُمَا مَقْرُونَتَانِ»[1]، فأجرى عليهم الصحابة أحكام الكفر ولم يعتبروا بالشعائر وجاهدهم أبو بكر بالمهاجرين والأنصار أي بجميعهم، قال في مختصر السيرة:" ولم يبق أحد من المهاجرين والأنصار إلا خرج"[2]. **فكان إجماعاً** على عدم اعتبار الشعائر الظاهرة في هذه الدور عند استعلان الكفر والشرك والامتناع عن أداء الشرائع، فالشعائر في مثل هذه الدور لا تقوى على إثبات الإسلام لتخلف الأصل الذي تُصحَحُ به الأعمال، كحال دار بني حنيفة التي آمنت بمسيلمة الكذاب رسولاً بعد محمد ﷺ فأسقط عنهم الزكاة، ولكنهم ما زالوا يصلون ويصومون، فهل الشعائر صححت لهم إسلاماً؟ .. قطعاً لا.

وممن حكى الإجماع من المتأخرين ابن تيمية حيث قال:" وَقَدْ اتَّفَقَ الصَّحَابَةُ وَالْأَئِمَّةُ بَعْدَهُمْ عَلَى قِتَالِ مَانِعِي الزَّكَاةِ وَإِنْ كَانُوا يُصَلُّونَ الْخَمْسَ وَيَصُومُونَ شَهْرَ رَمَضَانَ وَهَؤُلَاءِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُبْهَةٌ سَائِغَةٌ، فَلِهَذَا كَانُوا مُرْتَدِّينَ وَهُمْ يُقَاتِلُونَ عَلَى مَنْعِهَا، وَإِنْ أَقَرُّوا بِالْوُجُوبِ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ"[3].

وقال محمد بن عبد الوهاب:" ومن أعظم ما يحل الإشكال في مسألة التكفير والقتال عمن قصد اتباع الحق، **إجماع الصحابة على قتال مانعي الزكاة، وإدخالهم في أهل الردة، وسبي ذراريهم**، وفعلهم فيهم ما صح عنهم، وهو أول قتال وقع في الإسلام على من ادعى أنه من المسلمين. فهذه أول وقعة وقعت في الإسلام على هذا النوع، أعني المدعين للإسلام، وهي أوضح الوقعات التي وقعت من العلماء عليهم من عصر الصحابة رضي الله عنهم إلى وقتنا هذا"[4].

وقال:" الدليل السادس: قصة بني عبيد القداح فإنهم ظهروا على رأس المائة الثالثة. فادعى عبيد الله أنه من آل علي بن أبي طالب من ذرية فاطمة، وتزيا بزي أهل الطاعة والجهاد في سبيل الله، فتبعه أقوام من البربر من أهل المغرب، وصار له دولة كبيرة في المغرب ولأولاده من بعده، ثم ملكوا مصر والشام، وأظهروا شرائع الإسلام وإقامة الجمعة والجماعة. ونصبوا القضاة والمفتين. لكن أظهروا الشرك ومخالفة الشريعة، وظهر منهم ما يدل على نفاقهم وشدة كفرهم. **فأجمع أهل العلم: أنهم كفار، وأن دارهم دار حرب، مع إظهارهم شعائر الإسلام**، وفي مصر من العلماء والعباد أناس كثير، وأكثر أهل مصر لم يدخل معهم فيما أحدثوا من الكفر، ومع ذلك أجمع العلماء

[1] الردة مع نبذة من فتوح العراق وذكر المثنى بن حارثة الشيباني ٥١/١

[2] مختصر السيرة١ /٢٥٧

[3] الفتاوى الكبرى ٥٤١/٣

[4] مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد ١م٣٠٣

على ما ذكرناه، حتى إن بعض أكابر أهل العلم المعروفين بالصلاح قال لو أن معي عشرة أسهم لرميت بواحد منها النصارى المحاربين. ورميت بالتسعة بني عبيد"[١].

وقال: **"وأجمع العلماء كلهم** على كفر المختار - مع إقامته شعائر الإسلام - لما جنى على النبوة"[٢].

وقال أبو محمد عبد الله بن إسحاق المعروف بابن التبّان: "وكان أبو محمد شديد التنقيص لهم والتنفير عنهم ـ بني عبيد ـ قال بعض أصحابه: كنت معه يوماً بالمنستير، وكان يوم عاشوراء، فلما رأى بكى، فقيل له ما يبكيك؟ فقال والله ما أخشى عليهم من الذنوب، لأن مولاهم كريم، و **إنما أخشى أن يشكّوا في كفر بني عبيد، فيدخلوا النار**"[٣].

وحكى الإجماع حمد بن عتيق في جوابه لمن ناظره في حكم أهل مكّة وما يقال في البلد نفسه فقال:

"وأمّا إذا كان الشّرك فاشياً، مثل: دعاء الكعبة والمقام والحطيم، ودعاء الأنبياء والصّالحين، وإفشاء توابع الشّرك، مثل: الزّنا والرّبا وأنواع الظّلم، ونبذ السّنن وراء الظّهر، وفشو البدع والضّلالات، وصار التّحاكم إلى الأئمّة الظّلمة ونواب المشركين، وصارت الدّعوة إلى غير القرآن والسّنة، وصار هذا معلوماً في أيّ بلد كان، فلا يشكّ من له أدنى علم أنّ هذه البلاد محكوم عليها بأنّها بلاد كفر وشرك، لا سيّما إذا كانوا معادين أهل التّوحيد، وساعين في إزالة دينهم، وفي تخريب بلاد الإسلام، وإذا أردت إقامة الدّليل على ذلك وجدت القرآن كلّه فيه، **وقد أجمع عليه العلماء، فهو معلوم بالضّرورة عند كلّ عالم"**[٤].

الآثاروفيهم الصحابة الأخيار:

ومما يستأنس به في الاستدلال في أن الظاهر المعتبر في الدور التي طرأت عليها الردة والكفر هو خلاف ما أظهره القوم وصاروا إليه من كفر سواء من الشرك في الألوهية أو الحاكمية أو النبوة أو غيرها ما يلي:

❁ عَنِ ابْنِ سِيرِينَ، قَالَ:« ارْتَدَّ عَلْقَمَةُ بْنُ عُلَاثَةَ، فَبَعَثَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى امْرَأَتِهِ وَوَلَدِهِ فَقَالَتْ: إِنْ كَانَ عَلْقَمَةُ كَفَرَ، فَإِنِّي لَمْ أَكْفُرْ أَنَا وَلَا وَلَدِي ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلشَّعْبِيِّ فَقَالَ: هَكَذَا فَعَلَ

[١] مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ٥١/١

[٢] نفس المصدر

[٣] ترتيب المدارك وتقريب المسالك ٢٥٢/٦

[٤] الدرر السنية في الأجوبة النجدية ٢٦١/٩

بِهِـمْ، يَعْنِي بِأَهْـلِ الـرِّدَّةِ»[١]، فظـاهر الروايـة أن أبـو بكـر ألحـق الـذراري بأهـل الـردة إلا مـن ثبت إسلامه بالبراءة مما وقع فيه أهل الردة من كفر.

❁ ومثلـه مـا روي عَـنْ عُبَيْـدِ اللـهِ بْـنِ عَبْـدِ اللـهِ بْـنِ عُتْبَـةَ ، قَـالَ:« أَخَـذَ بِالْكُوفَـةِ رِجَـالٌ يُفْشُـونَ حَـدِيثَ مُسَـيْلِمَةَ الْكَـذَّابِ، فَكَتَـبَ فِـيهِمْ إِلَى عُثْمَـانَ بْـنِ عَفَّـانَ فَكَتَـبَ عُثْمَـانُ أَنِ اعْـرِضْ عَلَـيْهِمْ دِيـنَ الْحَـقِّ وَشَـهَادَةَ أَنْ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللـهُ وَأَنَّ مُحَمَّـدًا رَسُـولُ اللـهِ فَمَـنْ قَبِلَهَـا وَتَبَرَّأَ مِـنْ مُسَـيْلِمَةَ فَـلَا تَقْتُلْـهُ وَمَـنْ لَـزِمَ دِيـنَ مُسَـيْلِمَةَ فَاقْتُلْـهُ، فَقَبِلَهَـا رِجَـالٌ مِـنْهُمْ فَتُرِكُـوا وَلَـزِمَ دِيـنَ مُسَـيْلِمَةَ رِجَـالٌ فَقُتِلُـوا»[٢]، قـال محمـد ابـن عبـد الوهـاب:" **واذكـر إجمـاع الصحابة على قتـل أهـل مسـجد الكوفـة، وكفـرهم وردتهـم**، لمـا قـالوا كلمـة في تقريـر نبـوة مسـيلمة، ولكـن الصـحابة اختلفـوا في قبـول تـوبتهم لمـا تـابوا، والمسـألة في صـحيح البخاري وشرحه، في الكفالة."[٣].

❁ ومنهـا قصـة خالـد مـع مالـك بـن نـويرة قـال محمـد بـن سلّام:« وَتقـول بَنـو تَمِـيم إِنَّـه لمـا هجـم عَلَـيْهِم خَالِـد قَـالَ مـن أَنْـتُم قَـالُوا الْمُسـلمُونَ قَـالَ وَنحـن الْمُسـلمُونَ فَمَـا بَـال السِّـلَاح قَـالُوا ذعرتمونـا قَـالَ فضـعوا السِّـلَاح، والمجتمـع عَلَيْـهِ أَن خَالِـدا حـاوره وراده وَأَن مَالِكًـا سمح بِالصَّلَاةِ والتوى بِالزَّكَاةِ.

فَقَـالَ خَالِـد: أما علمـت أَن الصَّـلَاة وَالزَّكَـاة مَعًـا لَا تقبـل وَاحِـدَة دون الْأُخْـرَى؟ قَـالَ قـد كَـانَ يَقُـول ذَلِـك صَـاحبكُم، قَـالَ: وَمَـا تـرَاهُ لَـك صـاحبا وَاللـه لقـد هَمَمْـت أَن أضْـرب عُنُقـك، ثـمَّ تحـاولا فَقَـالَ لَـهُ خَالِـد إنـي قَاتلـك، قَـال: وبـذا أَمـرك صَـاحبك قَـالَ وَهَـذِه بعـد وَاللـه لَا أقيلك"[٤].

وقـال الواقـدي: " قَـالَ: ثُـمَّ قَـدَّمَ خَالِـدٌ مَالِـكَ بْـنَ نُـوَيْرَةَ لِيَضْـرِبَ عُنُقَـهُ، فَقَـالَ مَالِـكٌ: أَتَقْتُلُنِي وَأَنَـا مُسْـلِمٌ أُصَـلِّي الْقِبْلَـةَ، فَقَـالَ لَـهُ خَالِـدٌ: لَـوْ كُنْـتَ مُسْـلِمًا لَمَـا مَنَعْـتَ الزَّكَـاةَ وَلا أَمَـرْتَ قَوْمَكَ بِمَنْعِهَا، وَاللَّهِ لَمَا قِلْتَ بِمَا فِي مَنَامِكَ حَتَّى أَقْتُلَكَ"[٥].

❁ ومنهـا قصـة مجاعـة مـع خالـد ابـن الوليـد: قـال الواقـدي: "وَسَـارَ خَالِـدٌ بِمَـنْ مَعَـهُ مِـنَ الْمُهَـاجِرِينَ وَالأَنْصَـارِ، حَتَّى إِذَا تَقَـارَبَ مِـنْ أَرْضِ الْيَمَامَـةِ نَـزَلَ إِلَى جَنْـبِ وَادٍ مِـنْ أَوْدِيَتِهَـا، ثُـمَّ

---

[١] مصنف بن أبي شيبة برقم ٣٢٧٣٢

[٢] شرح معاني الآثار برقم ٥١٠٦

[٣] الدرر السنية ٦٨/١٠

[٤] طبقات فحول الشعراء ٢٠٧/١

[٥] كتاب الردة ١٠٧/١

بَعَثَ بِجَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ يَزِيدُونَ عَلَى مِائَتَيْ فَارِسٍ، وَقَالَ لَهُمْ: سِيرُوا فِي هَذِهِ الْبِلادِ فَأْتُونِي بِكُلِّ مَنْ قَدَرْتُمْ عَلَيْهِ، فَسَارُوا فَإِذَا هُمْ بِرَجُلٍ مِنْ أَشْرَافِ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ مُجَّاعَةُ بْنُ مُرَارَةَ وَمَعَهُ ثَلاثَةٌ وَعِشْرُونَ رَجُلا مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ. قَالَ: فَدَنَا منهم المسلمون، قَالُوا: "مَنْ أَنْتُمْ"، قَالُوا: "نَحْنُ قَوْمٌ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ" ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: "فَلا أَنْعَمَ اللَّهُ بِكُمْ عَيْنًا يَا أَعْدَاءَ اللَّهِ" ، ثُمَّ أَحَاطُوا بِهِمْ فَأَخَذُوهُمْ، وَجَاءُوا بِهِمْ إِلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، حَتَّى أَوْقَفُوهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لَهُمْ خَالِدٌ: "يَا بَنِي حَنِيفَةَ، مَا تَقُولُونَ فِي صَاحِبِكُمْ مُسَيْلِمَةَ" ، فَقَالُوا: "نَقُولُ إِنَّهُ شَرِيكُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فِي نُبُوَّتِهِ"، فَقَالَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ سَارِيَةُ بْنُ عَامِرٍ: "يَا أَبَا سُلَيْمَانَ، وَلَكِنِّي لا أَقُولُ ذَلِكَ"، قَالَ خَالِدٌ: "يَا مُجَّاعَةُ، مَا تَقُولُ فِيمَا يَقُولُ أَصْحَابُكَ هَؤُلاءِ"، فَقَالَ مُجَّاعَةُ: "أَقُولُ إِنِّي قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ وبها رسول الله ﷺ، فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي هَذَا سَارِيَةُ بْنُ عَامِرٍ، وَلا وَاللَّهِ مَا غَيَّرْنَا وَلا بَدَّلْنَا، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَنَا بُدٌّ مِنْ مُدَارَاةِ مُسَيْلِمَةَ خَوْفًا عَلَى أَنْفُسِنَا وَأَمْوَالِنَا وَأَوْلادِنَا" . قَالَ: فَقَالَ لَهُ خَالِدٌ: "فَاعْتَزِلْ أَنْتَ وَصَاحِبُكَ هَذَا نَاحِيَةً مِنْ هَؤُلاءِ الْكُفَّارِ"، ثم قدم خالد بقية القوم فَضَرَبَ أَعْنَاقَهُمْ صَبْرًا، ثُمَّ عَمِدَ إِلَى مُجَّاعَةَ، فَقَالَ مُجَّاعَةُ: "أَيُّهَا الأَمِيرُ، إِنِّي لَمْ أَزَلْ مُسْلِمًا، وَأَنَا الْيَوْمَ عَلَى مَا كُنْتُ عَلَيْهِ أَمْسِ، وَقَدْ رَأَيْتُكَ عَجِلْتَ عَلَى هَؤُلاءِ الْقَوْمِ بِالْقَتْلِ، وَأَنَا وَاللَّهِ خَائِفٌ عَلَى نَفْسِي مِنْكَ، وَلَكِنْ أَيُّهَا الأَمِيرُ إِنْ كَانَ رَجُلٌ كَذَّابٌ خَرَجَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا فَادَّعَى مَا ادَّعَى، فَلَيْسَ يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَأْخُذَ الْبَرِيءَ بِأَمْرِ السَّقِيمِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[الإسراء١٥] أُخْرى قَالَ خَالِدٌ: فَإِنِّي قَدْ عَفَوْتُ عَنْكُمَا، وَلَكِنْ أَقِيمَا فِي عَسْكَرِي وَلا تَبْرَحَا حَتَّى أَنْظُرَ عَلَى مَا يَنْصَرِمُ أَمْرِي وَأَمْرُ بَنِي حَنِيفَةَ"[١].

وفي الاكتفاء:" فقال خالد: **يا مجاعة، تركت اليوم ما كنت عليه أمس، وكان رضاك بأمر هذا الكذاب، وسكوتك عنه و أنت أعز أهل اليمامة، وقد بلغك مسيري، إقرارا له، ورضى بما جاء به**، فهلا أبليت عذرا، فتكلمت فيمن تكلم، فقد تكلم ثمامة بن أثال فرد وأنكر، وقد تكلم اليشكري، فإن قلت أخاف قومي، فهلا عمدت إليّ تريد لقائي، أو كتبت إليّ كتابا أو بعثت إليّ رسولا، وأنت تعلم أنى قد أوقعت بأهل بزاخة، وزحفت بالجيوش إليك. فقال مجاعة: إن رأيت يا ابن المغيرة أن تعفو عن هذا كله فعلت. فقال خالد: قد عفوت عن دمك، ولكن في نفسي من تركك حوجا بعد، فقال مجاعة: أما إذا عفوت عن دمى فلا أبالي"[٢].

---

[١] الردة مع نبذة من فتوح العراق وذكر المثنى بن حارثة الشيباني ١١٩/١

[٢] الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء ١٢٠/٢

قال حمد بن عتيق: "وليس المراد بإظهار الدين: أن يُترك الإنسان يصلي ولا يقال له اعبد الأوثان! فإن اليهود والنصارى لا ينهون من صلى في بلدانهم ولا يكرهون الناس على أن يعبدون الأوثان؟! بل المقصود: أن إظهار الدين هو: التصريح للكفار بالعداوة كما احتج خالد بن الوليد على مجاعة بأنه سكت ولم يظهر البراءة كما أظهرها ثمامة واليشكري، والقصة معروفة في السير، فما لم يحصل التصريح للمشركين بالبراءة منهم ومن دينهم لم يكن إظهار الدين حاصلاً"[1].

❁ومما يُستأنس به من الآثار في واقعة الردة ما روي في تاريخ الإسلام: " عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ: لَمَّا قَدِمَ وَفْدُ بُزَاخَةَ أَسَدٍ وَغَطَفَانَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ يَسْأَلُونَهُ الصُّلْحَ، خَيَّرَهُمْ أَبُو بَكْرٍ بَيْنَ حَرْبٍ مُجَلِّيَةٍ أَوْ حِطَّةٍ مُخْزِيَةٍ، فَقَالُوا: يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ أَمَّا الْحَرْبُ فَقَدْ عَرَفْنَاهَا، فَمَا الْحِطَّةُ الْمُخْزِيَةُ؟ قَالَ: تُؤْخَذُ مِنْكُمُ الْحَلْقَةُ وَالْكُرَاعُ وَتُتْرَكُونَ أَقْوَامًا تَتْبَعُونَ أَذْنَابَ الْإِبِلِ حَتَّى يُرِيَ اللَّهُ خَلِيفَةَ نَبِيِّهِ وَالْمُؤْمِنِينَ أَمْرًا يَعْذِرُونَكُمْ بِهِ، وَتُؤَدُّونَ مَا أَصَبْتُمْ مِنَّا وَلَا نُؤَدِّي مَا أَصَبْنَا مِنْكُمْ، **وَتَشْهَدُونَ أَنَّ قتلانا في الجنّة وأن قتلاكم فِي النَّارِ**، وَتَدُونَ قَتْلَانَا وَلَا نَدِي قَتْلَاكُمْ، فَقَالَ عُمَرُ: أَمَّا قَوْلُكَ «تَدُونَ قَتْلَانَا» فَإِنَّ قَتْلَانَا قُتِلُوا عَلَى أَمْرِ اللَّهِ لَا دِيَاتَ لَهُمْ. فَاتُّبِعَ عُمَرُ، وَقَالَ عُمَرُ فِي الْبَاقِي: نِعْمَ مَا رَأَيْتَ"[2].

❁ وأخرج الطحاوي في مشكل الآثار بسنده إلى سَلَمَةَ بْنِ نُعَيْمٍ قَالَ: شَهِدْتُ مَعَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ يَوْمَ الْيَمَامَةِ، فَلَمَّا شَدَدْنَا عَلَى الْقَوْمِ جَرَحْتُ رَجُلًا مِنْهُمْ، فَلَمَّا وَقَعَ قَالَ: **اللهُمَّ عَلَى مِلَّتِكَ، وَمِلَّةِ رَسُولِكَ، وَ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا عَلَيْهِ مُسَيْلِمَةُ**، فَعَقَدْتُ فِي رِجْلِهِ خَيْطًا، وَمَضَيْتُ مَعَ الْقَوْمِ، فَلَمَّا رَجَعْتُ نَادَيْتُ: مَنْ يَعْرِفُ هَذَا الرَّجُلَ؟ فَمَرَّ بِي أُنَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ، فَقَالُوا: هَذَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَرَجَعْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ زَمَنَ عُمَرَ، فَحَدَّثْتُهُ هَذَا الْحَدِيثَ فَقَالَ: قَدْ أَحْسَنْتَ، اذْهَبْ فَإِنَّ عَلَيْكَ وَعَلَى قَوْمِكَ الدِّيَةَ، وَعَلَيْكَ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ "[3].

❁ ومن الآثار ما نقله ابن كثير قال: "وَقَدْ قُتِلَ فِي هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ -المضيّح - رَجُلَانِ كَانَا قَدْ أَسْلَمَا وَمَعَهُمَا كِتَابٌ مِنَ الصِّدِّيقِ بِالْأَمَانِ وَلَمْ يَعْلَمْ بِذَلِكَ الْمُسْلِمُونَ، وَهُمَا عَبْدُ الْعُزَّى بْنُ أَبِي رِهْمِ بْنِ قِرْوَاشٍ، قَتَلَهُ جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيُّ، وَالْآخَرُ لَبِيدُ بْنُ جَرِيرٍ، قَتَلَهُ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا بَلَغَ خَبَرُهُمَا الصِّدِّيقَ وَدَاهُمَا، وَبَعَثَ بِالْوَصَاةِ بِأَوْلَادِهِمَا، وَتَكَلَّمَ عُمَرُ بْنُ الْخِطَابِ فِي خَالِدٍ بِسَبَبِهِمَا، كَمَا تَكَلَّمَ فِيهِ بِسَبَبِ مَالِكِ بْنِ نُوَيْرَةَ، فَقَالَ لَهُ الصِّدِّيقُ: **كَذَلِكَ يَلْقَى مَنْ يساكن أَهْلَ الْحَرْبِ فِي دِيَارِهِمْ**، أَيِ الذَّنْبُ لَهُمَا فِي مُجَاوَرَتِهِمَا

[1] الدفاع (ص١٦)

[2] تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ٣٢/٣

[3] تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ٣٢/٣

الْمُشْرِكِينَ، وَهَذَا كَمَا فِي الْحَدِيثِ ﴿أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مَنْ سَاكَنَ الْمُشْرِكَ في داره﴾ وفي الحديث الآخر ﴿لا ترى نَارُهُمَا﴾ أَيْ لَا يَجْتَمِعُ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ فِي مَحَلَّةٍ وَاحِدَةٍ"[1].

❁ "ووقع في كتاب المتفق والمختلف: أن مذهب الإمام مالك أن أمارات الكفر إذا ظهرت في بلاد يصير حكمها حكم دار الحرب، وقد سبق أن هؤلاء الكفرة جعلوا أمارات الكفر شعارا فيما بينهم، ونحن تنزلنا إلى أنهم في دراهم كالكفرة الأصلية **حكما بلا خلاف**، ومن خرج من بلادهم إلى بلادنا فلا بد من بيان حاله، فإن صدر عنه ما يكفر به أجرينا مقتضى كفره، أو لا فلا.

فإن قلت يحتمل أن يكون بينهم من المسلمين رجالا أو يكون في أيديهم من أموالهم شيئا؟ قلت: لا فرق بينهم وبين سائر الحربيين في ذلك الاحتمال.

فإن قلت: يتلفظون بالشهادتين، قلت: لا بد مع ذلك من استبرائهم عما كفروا به كما قرره جمهور الفقهاء. والحال أنهم لا يستبرؤون عما كفروا به ولو قطعوا إربا إربا، على أنهم بمثابة الزنادقة كما سبق نقلاً عن أبي زرعة الرازي"[2].

وخلاصة القول أن من ينزل حديث: "مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا"[3] على هذا واقع الناس اليوم فقد أعظم الفرية على الله عزَّ وجل، وخالف إجماع الصحابة وحاد عن فهم السلف واتبع غير سبيل المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾[النساء١١٥].

المطلب الثاني: سنة التبيُّن

المتقرر عند السلف أن من انتسب إلى الإسلام ثم أظهر الكفر بالله تعالى، لا يقبل منه إلا الرجوع من الباب الذي خرج منه سواءً كان فرداً أو قوماً، وإن كنا عند ظهور بعض العلامات والأمارات ـ وإن لم ترتق إلى كونها دلالة ظاهرة تُدَافِعُ الأصل ـ في بعض الأحوال كالضرب في الأرض بالجهاد في سبيل الله نستصحب حكم الكفر ونتبين منه عملاً بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ

[1] البداية والنهاية ٣٥١/٦

[2] مختصر اليمانيات المسلولة على الرافضة المخذولة ٢٠/١

[3] رواه ابن أبي شيبة برقم ٣٢٦٣٤ واللفظ له وأصله في البخاري برقم ٣٩١ وقوله: (أكل ذبيحتنا) تنويه باليهود الذين لا يأكلون ذبيحة المسلمين. (ذمة) هي الأمن والعهد وذمة الله أمانه وضمانه وقد يراد بها الذمام وهو الحرمة. (تحقروا الله) تغدروا به وتنقضوا عهده

كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾[النساء٩٤]،

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْمِقْدَادِ: «إِذَا كَانَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ يُخْفِي إِيمَانَهُ مَعَ قَوْمٍ كُفَّارٍ، فَأَظْهَرَ إِيمَانَهُ فقتلته، فَكَذَلِكَ كُنْتَ أَنْتَ تُخْفِي إِيمَانَكَ بِمَكَّةَ مِنْ قَبْلُ»[1].

وهذه الصورة ـ صورة آية النساء ـ يكفي فيها النطق بالشهادتين أو القول أنا مسلم أو إلقاء السلام كما جاء في الروايات، فهي من شعار الإسلام ومن خصائص المسلمين بين الوثنيين حينذاك، حيث أنَّ عُبَّاد الأصنام لم يكونوا قد تكلموا بالإسلام كما ما سبق بيانه، وهو فهم السلف كما ورد عَنْ قَتَادَةَ، فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾[النساء: ٩٤] **قَالَ:« لِأَنَّ تَحِيَّةَ الْمُسْلِمِينَ السَّلَامُ، بِهَا يَتَعَارَفُونَ، وَيَلْقَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا»**[2].

وتُحمل النصوص الواردة في الكفِّ عن الإغارة عند سماع شعار الإسلام كالأذان على سنة التبيُّن كما روى المروزي بسنده عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ مِنْ عَهْدِهِ إِلَى جُيُوشِهِ فِي الرِّدَّةِ: «إِذَا عَشَيْتُمْ دَارًا مِنْ دُورِ الْعَرَبِ فَسَمِعْتُمْ أَذَانًا لِلصَّلَاةِ فَأَمْسِكُوا عَنْ أَهْلِهَا حَتَّى تَسْأَلُوهُمْ مَا الَّذِي نَقَمُوا، وَإِنْ لَمْ تَسْمَعُوا أَذَانًا لِلصَّلَاةِ فَشُنُّوا الْغَارَةَ وَحَرِّقُوا وَاقْتُلُوا»[3]، ولا تعارض بين التبيُّن واستصحاب حكم الدار، لأن الصحابة حكموا بالردة حُكماً عاماً ولم يتوقفوا في الدور كما قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إسحاق:" ارتدت الْعَرَبُ عِنْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا خَلَا أَهْلُ الْمَسْجِدَيْنِ، مَكَّةَ، وَالْمَدِينَةِ ..... وَقَالَ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ: اجْتَمَعَتْ أَسَدٌ وَغَطَفَانُ وطيِّئ عَلَى طُلَيْحَةَ الْأَسَدِيِّ، وَبَعَثُوا وُفُودًا إِلَى الْمَدِينَةِ، فَنَزَلُوا عَلَى وُجُوهِ النَّاسِ فَأَنْزَلُوهُمْ إِلَّا الْعَبَّاسَ، فَحَمَلُوا بِهِمْ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، عَلَى أَنْ يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا يُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَعَزَمَ اللَّهُ لِأَبِي بَكْرٍ عَلَى الْحَقِّ وَقَالَ: لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا لَجَاهَدْتُهُمْ، فَرَدَّهُمْ فَرَجَعُوا إِلَى عَشَائِرِهِمْ، فَأَخْبَرُوهُمْ بِقِلَّةِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَطَمَّعُوهُمْ فِيهَا، فَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ الْحَرَسَ عَلَى أَنْقَابِ الْمَدِينَةِ، وَأَلْزَمَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ بِحُضُورِ الْمَسْجِدِ **وَقَالَ: إِنَّ الْأَرْضَ كَافِرَةٌ**، وَقَدْ رَأَى وَفْدُهُمْ مِنْكُمْ قِلَّةً، وَإِنَّكُمْ لَا تدرون ليلا يأتون أَمْ نَهَارًا، وَأَدْنَاهُمْ مِنْكُمْ عَلَى بَرِيدٍ، وَقَدْ كَانَ

---

[1] صحيح البخاري برقم (٦٨٦٦).

[2] تاريخ المدينة لابن شبة ٢/٤٥٠

[3] تعظيم قدر الصلاة ٢/٩٢٣

الْقَـوْمُ يُؤَمِّلُـونَ أَنْ نَقْبَـلَ مِـنْهُمْ وَنُـوَادِعَهُمْ وَقَـدْ أَبَيْنَـا عَلَـيْهِمْ، فَاسْـتَعِدُّوا وَأَعِـدُّوا فَمَـا لَبِثُـوا إِلَّا ثَلَاثًا حَتَّى طَرَقُوا الْمَدِينَةَ غَارَةً"[1].

وأوصـى أبـو بكـر الجيـوش بـالكفِّ عـن القتـال إذا سـمعوا الأذان، وأن لا يُغيِـروا حتـى يتبيَّنـوا مـن أهلهـا مـا نقمـوا على الإسـلام والمسـلمين ولأي شـيء منعـوا الزكـاة وارتـدوا عـن ديـن اللـه لعلهـم يرجعـون إذا رأوا جيـوش الإسـلام، فيكفـيهم اللـه مُؤنـة قتـالهم برجـوعهم إلى الإسـلام مـن البـاب الـذي خرجـوا منـه، وهـذه مـن سياسـة أبي بكـر الحكيمـة في قتالـه لأهـل الـردة، ولـيس الأذان يُصحِحُ لهـم إسـلامهم!! فلـم يكـن يرضـى مـنهم أبـو بكـر والمسـلمون إلا الرجـوع مـن البـاب الـذي خرجـوا منـه، ولـم يرضـوا مـنهم إلا أداء شـرائع اللـه كاملـة كمـا روى المـروزي بسـنده إلى حَنْظَلَـةَ بْـنِ عَلِي بْـنِ الْأَسْـقَعِ الْأَسْـلَمِيِّ، أَنَّ أَبَـا بَكْـرٍ الصِّـدِّيقَ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْـهُ بَعَـثَ خَالِـدَ بْـنَ الْوَلِيـدِ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْـهُ وَأَمَـرَهُ أَنْ يُقَاتِـلَ النَّـاسَ عَلَى خَمْسٍ قَـالَ:« **وَمَـنْ تَـرَكَ وَاحِـدَةً مِـنَ الْخَمْـسِ** فَقَاتِلْـهُ كَمَـا تُقَاتِـلُ مَـنْ تَـرَكَ الْخَمْـسَ: شَـهَادَةُ أَنْ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللَّـهُ وَأَنَّ مُحَمَّـدًا رَسُـولُ اللَّـهِ، وَإِقَـامُ الصَّـلَاةِ، وَإِيتَـاءُ الزَّكَـاةِ، وَصَـوْمُ رَمَضَـانَ»[2]، وعـن عبـد اللـه بـن الأهـتم أنـه قـال لعمـر بـن عبـد العزيـز: «إن أبـا بكـر قـام بعـد رسـول اللـه ﷺ فـدعا إلى سـنته ومضـى على سـبيله فارتـدت العـرب، أو مـن ارتـد مـنهم **فعرضـوا أن يقيمـوا الصـلاة ولا يؤتـوا الزكـاة** فـأبى أن يقبـل مـنهم إلا مـا كـان رسـول اللـه ﷺ قـابلاً في حياتـه فـانتزع السـيوف مـن أغمادهـا وأوقـد النيران في شـعلها وركـب بأهـل حـق اللـه أكتـاف أهـل الباطل **حتى قـررهم بالـذي نفـروا منـه وأدخلهـم مـن البـاب الـذي خرجـوا منه** حتى قبضه الله»[3].

وعَـنْ أَنَسِ بْنِ مَالِـكٍ، قَـالَ: " ارْتَـدَّ سِـتَّةُ نَفَـرٍ مِـنْ بَكْـرِ بْـنِ وَائِـلٍ يَـوْمَ تُسْـتَرَ، فَقَـدِمْتُ عَلَى عُمَـرَ بْـنِ الْخَطَّـابِ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْـهُ، فَسَـأَلَنِي، فَقَـالَ:« مَـا فَعَـلَ النَّفَـرُ؟ فَأَخَـذْتُ فِي حَـدِيثٍ غَيْرِهِ، ثُـمَّ قَـالَ: مَـا فَعَـلَ النَّفَـرُ؟ قُلْـتُ: قُتِلُـوا، قَـالَ: لَأَنْ أَكُـونَ أَدْرَكْـتُهُمْ كَـانَ أَحَـبَّ إِلَيَّ مِمَّـا طَلَعَـتْ عَلَيْـهِ الشَّـمْسُ ، قَـالَ: قُلْـتُ لَـهُ: وَمَـا سَـبِيلُهُمْ إِلَّا الْقَتْـلُ؟ **قَـالَ: كُنْـتُ أَعْـرِضُ عَلَـيْهِمُ الـدُّخُولَ مِـنَ الْبَابِ الَّذِي خَرَجُوا مِنْهُ**، فَإِنْ فَعَلُوا وَإِلَّا اسْتَوْدَعْتُهُمُ السِّجْنَ»[4].

وقـال المـروزي:" لَأَنَّ الرَّجُـلَ إِذَا كَفَـرَ بِتَـرْكِ الصَّـلَاةِ فَإِنَّمَـا يُسْـتَتَابُ مِـنْ كُفْـرِهِ بِـأَنْ يُـدْعَى إِلَى الصَّلَاةِ فَـإِذَا رَجِـعَ إِلَى الصَّلَاةِ فَصَلَّى كَانَ رَاجِعًـا إِلَى الْإِسْـلَامِ **لِأَنَّ كُفْـرَهُ كَـانَ بِتَرْكِهَـا فَإِسْـلَامُهُ**

---

[1] البداية والنهاية ٣٤٤/٦

[2] تعظيم قدر الصلاة ٩٢٣/٢

[3] الاعتقاد ص/١٧٤.

[4] سنن سعيد بن منصور برقم ٢٥٨٧

يَكُـونُ بِإِقَامَتِهَـا، وَكَـذَلِكَ كُلُّ مَنْ كَانَ مَعْرُوفًـا بِالْإِسْـلَامِ وَالْإِيمَـانِ بِمَـا جَـاءَ مِـنْ عِنْـدِ اللَّـهِ تَعَـالَى مِـنَ الْفَـرَائِضِ وَالْحَـلَالِ وَالْحَـرَامِ ثُـمَّ كَفَـرَ بِشَـرِيعَةٍ مِـنَ الشَّـرَائِعِ أَوِ اسْـتِحْلَالِ بَعْـضِ مَـا حَـرَّمَ اللَّـهُ تَعَـالَى فَإِنَّمَـا يُسْـتَتَابُ مِـنَ الْكُفْـرِ بِالشَّـرِيعَةِ الَّتِي كَفَـرَ بِهَـا، فَـإِذَا أَقَـرَّ بِهَـا عَـادَ إِلَى الْإِسْـلَامِ، وَلَا يُمْـتَحَنُ بِغَيْرِ ذَلِـكَ، وَلَا يُسْـأَلُ عَـنْ سِـوَاهُ وَكَـذَلِكَ إِنْ قَـالَ: الْخَمْـرُ حَـلَالٌ أَوْ لَحْـمُ الْخِنْزِيـرِ وَهُـوَ مُقِـرٌّ بِجَمِيـعِ مَـا أَحَـلَّ اللَّـهُ تَعَـالَى وَحَـرَّمَ سِـوَى الْخَمْـرِ أَوِ الْخِنْزِيـرِ فَإِنَّمَـا يُسْـتَتَابُ مِنَ الْبَابِ الَّذِي كَفَرَ مِنْهُ مِنْ إِحْلَالِهِ الْخَمْرَ وَالْخِنْزِيرَ فَقَطْ لِأَنَّهُ مُؤْمِنٌ بِمَا سِوَى ذَلِكَ"[1].

ولـيس هنـاك توقـف في الأسـماء أو الأحكـام فهـذه بدعـة محدثـة فالنـاس إمـا مـؤمن أو كـافر ولـيس هنـاك منزلـة بـين المنـزلتين، أمـا التبـيُّن فهـي سـنة مقـررة عنـد الاستشـكال، ويكـون التبـيُّن مـع استصـحاب حُكـم الكفـر لا عـن توقـف كمـا سـبق في صـورة قتـال أهـل الردة.

وقـد يكـون التبـين مـع استصـحاب حكـم الإسـلام كمـا في قولـه تعـالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات٦]، قـال الْحَـارِثَ بْـنَ ضِـرَارٍ الْخُزَاعِيَّ :« قَـدِمْتُ عَلَى رَسُـولِ اللَّـهِ ﷺ فَـدَعَانِي إِلَى الْإِسْـلامِ فَـدَخَلْتُ فِيـهِ وَ أَقْـرَرْتُ بِـهِ، وَدَعَـانِي إِلَى الزَّكَاةِ فَـأَقْرَرْتُ بِهَـا وَقُلْـتُ: يَـا رَسُـولَ اللَّـهِ، أَرْجِـعُ إِلَـيْهِمْ فَـأَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْـلامِ وَأَدَاءِ الزَّكَاةِ مِمَّـنِ اسْـتَجَابَ لِي جَمَعْـتُ زَكَاتَـهُ وَيُرْسِـلُ إِلَيَّ رَسُـولُ اللَّـهِ رَسُـولًا لِإِبَّـانِ كَـذَا وَكَـذَا لِيَأْتِيَـكَ مَـا جَمَعْـتُ مِـنَ الزَّكَـاةِ؛ فَلَمَّـا جَمَـعَ الْحَـارِثُ الزَّكَاةَ مِمَّـنِ اسْـتَجَابَ لَـهُ وَبَلَـغَ الْإِبَّـانَ الَّـذِي أَرَادَ رَسُـولُ اللَّـهِ ﷺ أَنْ يُبْعَـثَ إِلَيْـهِ، احْتَـبَسَ عَلَيْـهِ الرَّسُـولُ فَلَـمْ يَأْتِـهِ فَظَـنَّ الْحَـارِثُ أَنَّـهُ قَـدْ حَـدَثَ فِيـهِ سُـخْطَةٌ مِـنَ اللَّـهِ وَرَسَـولِهِ، فَـدَعَا بِسَـرَوَاتِ قَوْمِـهِ فَقَـالَ لَهُـمْ، إِنَّ رَسُـولَ اللَّـهِ ﷺ كَـانَ وَقَّـتَ لِي وَقْتًـا يُرْسِـلُ إِلَيَّ رَسُـولَهُ لِيَقْـبِضَ مَـا كَـانَ عِنْـدِي مِـنَ الزَّكَـاةِ، وَلَـيْسَ مِـنْ رَسُـولِ اللَّـهِ ﷺ الْخُلْـفُ وَلا أَرَى حَـبَسَ رَسُـولَهُ إِلا مِـنْ سُـخْطَةٍ كَانَـتْ، فَـانْطَلِقُوا فَنَـأْتِي رَسُـولَ اللَّـهِ ﷺ وَبَعَـثَ رَسُـولُ اللَّـهِ ﷺ الْوَلِيـدَ بْـنَ عُقْبَـةَ إِلى الْحَـارِثِ لِيَقْـبَضَ مَـا كَـانَ عِنْـدَهُ مِمَّـا جَمَـعَ مِـنَ الزَّكَـاةِ، فَلِمَـا أَنْ سَـارَ الْوَلِيـدُ حَتَّى بَلَـغَ بَعْـضَ الطَّرِيـقِ فَـرَقَّ أَيْ خَـافَ فَرَجَـعَ فَـأَتَى رَسُـولَ اللَّـهِ ﷺ فَقَـالَ يَـا رَسُـولَ اللَّـهِ إِنَّ الْحَـارِثَ مَنَعَنِي الزَّكَـاةَ وَأَرَادَ قَتْلِـي، فَضَـرَبَ رَسُـولُ اللَّـهِ ﷺ الْبَعْـثَ إِلَى الْحَـارِثِ وَأَقْبَـلَ الْحَـارِثُ بِأَصْـحَابِهِ حَتَّى إِذَا اسْـتَقْبَلَ الْبَعْـثَ، وَفُصِـلَ عَـنِ الْمَدِينَـةِ، لَقِـيَهُمُ الْحَـارِثُ فَقَـالُوا: هَـذَا الْحَـارِثُ فَلَمَّـا غَشِـيَهُمْ قَـالَ لَهُـمْ: إِلى مَنْ بُعِثْـتُمْ؟ قَـالُوا إِلَيْـكَ قَـالَ: وَلِـمَ؟ قَـالُوا إِنَّ رَسُـولَ اللَّـهِ ﷺ كَانَ بَعَـثَ إِلَيْـكَ الْوَلِيـدَ بْـنَ عُقْبَـةَ فَـزَعَمَ أَنَّـكَ مَنَعْتَـهُ الزَّكَـاةَ وَأَرَدْتَ قَتْلَـهُ قَـالَ: لَا وَالَّـذِي بَعَـثَ مُحَمَّـدًا بِـالْحَقِّ مَـا رَأَيْتُـهُ

[1] تعظيم قدر الصلاة ٢/٩٦٢

بَتَّةَ، وَلا أَتَانِي فَلَمَّا دَخَلَ الْحَارِثُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنَعْتَ الزَّكَاةَ وَأَرَدْتَ قَتْلَ رَسُولِي؟» قَالَ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا رَأَيْتُهُ وَلا أَتَانِي وَمَا أَقْبَلْتُ إِلا حِينَ احْتُبِسَ عَلَيَّ رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ سُخْطَةٌ قَالَ: فَنَزَلَتِ الْحُجُرَاتُ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾"[1].

المطلب الثالث: منهج القران والسنة في نسبة العين إلى قومها

ومنهج القرآن والسنة هو نسبة العين إلى القوم إلا من أظهرت المخالفة لقومها، فالله تعالى كفَّر الأقوام الظالمة المكذبة واستثنى أتباع الرسل لمخالفتهم ما عليه قومهم كقوله: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴾[الاعراف٨٥]. وفيه إظهار المخالفة للقوم المشركين وكذلك قوله: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾[ياسين٢١] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴾[النمل٤٣]. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[المائدة٥١].

وجاء في السنة نسبة العين إلى القوم في مواضع:

❁ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ:« لَقِيَ رَكْبًا بِالرَّوْحَاءِ، فَقَالَ: «مَنِ الْقَوْمُ؟» قَالُوا: الْمُسْلِمُونَ، فَقَالُوا: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: «رَسُولُ اللهِ»، فَرَفَعَتْ إِلَيْهِ امْرَأَةٌ صَبِيًّا، فَقَالَتْ: أَلِهَذَا حَجٌّ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَلَكِ أَجْرٌ»[2]، ووجه الدلالة أن النبي ﷺ لقي ركباً فسألهم من القوم؟ فلما انتسبوا إلى القوم المسلمين ألحقهم بهم.

❁ وعَنِ الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ ﷺ، قَالَ: مَرَّ بِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِالأَبْوَاءِ، أَوْ بِوَدَّانَ، وَسُئِلَ عَنْ أَهْلِ الدَّارِ يُبَيَّتُونَ مِنَ المُشْرِكِينَ، فَيُصَابُ مِنْ نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ قَالَ: «هُمْ مِنْهُمْ»[3].

---

[1] تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٣٣٠٤/١٠
[2] رواه مسلم برقم ٤٠٩
[3] رواه البخاري برقم ٣٠١٢ ورواه مسلم ١٧٤٥

❁وعَـنْ سَـمُرَةَ بْـنِ جُنْـدُبٍ، أنَّ رَسُـولُ اللَّـهِ ﷺ قـال: ﴿مَـنْ جَـامَعَ الْمُشْـرِكَ وَسَـكَنَ مَعَـهُ فَإِنَّـهُ مِثْلُهُ﴾[1].

❁ وَذَكَـرَ الْحُمَيْـدِيُّ عَـنْ سُـفْيَانَ بْـنِ عُيَيْنَـةَ: قَـالَ: حَـدَّثَنِي سُـفْيَانُ بْـنُ سَـعِيدٍ عَـنْ مِسْـعَرٍ: «أَنَّ مَلَكًـا أُمِـرَ أَنْ يَخْسِـفَ بِقَرْيَـةٍ، فَقَـالَ: يَـا رَبِّ، إِنَّ فِيهَـا فُلَانًـا الْعَابِـدَ، فَـأَوْحَى اللَّـهُ إِلَيْـهِ: أَنْ بِهِ فَابْدَأْ، فَإِنَّهُ لَمْ يَتَمَعَّرْ وَجْهُهُ فِيَّ سَاعَةً قَطُّ»[2].

❁ وعن ابن مسـعود مرفوعًا: «من كثر سـواد قوم فهو منهم ومن رضي عمل قوم كان شـريك من عمل به»[3].

فيُنسـب مـن كـان بـين قـوم كفـار إلى قومـه ظـاهراً ولـو كـان مُسـتخفٍ بالإيمـان إلا مـن أظهـر المخالفـة، وفي المقابـل يُنسـب مـن كـان بـين قـوم مسـلمين في دار اسـلام إلـيهم ظـاهراً ولـو كـان مـن المنـافقين المسـتخفين بـالكفر المظهـرين للإيمـان جُنَّـةً إلا مـن أظهـر مخالفـة ديـن قومـه، قَـالَ مُحَمَّـدُ بْـنُ إِسْحَاقَ:« ارْتَـدَّ أَهْـلُ الْيَمَامَـةِ عَـنِ الإِسْـلامِ غَيْرَ ثُمَامَـةَ بْـنِ أُثَـالٍ، وَمَـنِ اتَّبَعَـهُ مِـنْ قَوْمِـهِ، **فَكَـانَ مُقِيمًـا بِالْيَمَامَـةِ يَنْهَـاهُمْ عَـنِ اتِّبَـاعِ مُسَـيْلِمَةَ وَتَصْـدِيقِهِ**، وَيَقُـولُ: إِيَّـاكُمْ وَأَمْـرًا مُظْلِمًـا لا نُـورَ فِيـهِ، وَإِنَّـهُ لَشَـقَاءٌ كَتَبَـهُ اللَّـهُ عَـزَّ وَجَـلَّ عَلَى مَـنْ أَخَـذَ بِـهِ مِـنْكُمْ، وَبَلاءٌ عَلَى مَـنْ لَـمْ يَأْخُـذْ بِـهِ مِـنْكُمْ يَـا بَنِي حَنِيفَـةَ، فَلَمَّـا عَصَـوْهُ وَرَأَى أَنَّهُـمْ قَـدْ أَصْـفَقُوا عَلَى اتِّبَـاعِ مُسَـيْلَمَةَ عَـزَمَ عَلَى مُفَـارَقَتِهِمْ، وَمَـرَّ الْعَـلاءُ بْـنُ الْحَضْـرَمِيِّ وَمَـنْ تَبِعَـهُ عَلَى جَانِـبِ الْيَمَامَـةِ، فَلَمَّـا بَلَغَـهُ ذَلِـكَ قَـالَ لأَصْحَابِهِ مِـنَ الْمُسْـلِمِينَ: إِنِّـي وَاللَّـه مَـا أَرَى أَنْ أُقِـيمَ مَـعَ هَـؤُلاءِ مَـعَ مَـا قَـدْ أَحْـدَثُوا، وَإِنَّ اللَّـهَ تَعَـالَى لَضَـارِبُهُمْ بِبَلِيَّـةٍ لا يَقُومُـونَ بِهَـا وَلا يَقْعُـدُونَ، وَمَـا نَـرَى أَنْ نَتَخَلَّـفَ عَـنْ هَـؤُلاءِ وَهُـمْ مُسْـلِمُونَ، وَقَـدْ عَرَفْنَـا الَّـذِي يُرِيـدُونَ، وَقَـدْ مَـرُّوا قَرِيبًـا، وَلا أَرَى إِلا الْخُـرُوجَ إِلَـيْهِمْ، فَمَـنْ أَرَادَ الْخُـرُوجَ مِـنْكُمْ فَلْيَخْـرُجْ. فَخَـرَجَ مُمِـدًّا لِلْعَـلاءِ بْـنِ الْحَضْـرَمِيِّ، وَمَعَـهُ أَصْـحَابُهُ مِـنَ الْمُسْـلِمِينَ، فَكَـانَ ذَلِـكَ قَـدْ فَـتَّ فِي أَعْضَـادِ عَـدُوِّهِمْ حِـينَ بَلَغَهُـمْ مَـدَدُ بَنِي حَنِيفَةَ»[4].

وإن كـان تكفـير النـاس بـالعموم لا يشـمل جميـع الأعيـان باطنـاً وهـذا لا سـبيل للوصـول إليـه إلا بالاسـتقراء التـام وهـو متعـذر، ولسـنا نقـول أنَّ جميـع النـاس بأعيـانهم كفـاراً ظـاهراً وباطنـاً مـع القطـع بوجـود قلـة مُسـلمة مسـتخفية بـين هـذه الأقـوام، لحـديث ثوبـان قـال:

---

[1] رواه أبو داود ٢٧٨٧

[2] أخرجه: ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (ص ٢٨) (١٦)، وفي «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (ص ١٠٨) (٧٤)

[3] فتح الباري، جـ١٣

[4] الاستيعاب في معرفة الاصحاب ٢١٦/١

قال رسول الله ﷺ: ﴿لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك﴾[١]، والقلة هي موجودة في الدارين وبين القومين، ففي دار الإسلام موجود قلة مستخفية بالكفر تجري عليها أحكام الإسلام في الظاهر كحال المنافقين، وفي دار الكفر موجود قلة مستخفية بالإيمان تجري عليها أحكام الكفر كمن أسلم في دار الحرب وعجز عن الهجرة، ومنشأ الاشتباه في المسألة اشتباه أحكام الكفر في الدنيا بأحكام الكفر في الآخرة "[٢].

قال حمد بن عتيق:" ومن له مشاركة فيما قرره المحققون، قد اطلع على أن البلد، إذا ظهر فيها الشرك، وأعلنت فيها المحرمات، وعطلت فيها معالم الدين، أنها تكون بلاد كفر، تغنم أموال أهلها، وتستباح دماؤهم، وقد زاد أهل هذه البلد، بإظهار المسبَّة لله ولدينه، ووضعوا قوانين ينفذونها في الرعية، مخالفة لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ وقد علمت أن هذه كافية وحدها، في إخراج من أتى بها من الإسلام.

هذا ونحن نقول: **قد يوجد فيها من لا يحكم بكفره في الباطن**، من مستضعف ونحوه، وأما في الظاهر **فالأمر - ولله الحمد - واضح**، ويكفيك ما فعله النبي ﷺ في أهل مكة، مع أن فيهم مستضعفين، وكذلك ما فعله أصحابه بكثير ممن ارتد عن الإسلام، من استباحة الدم والمال والعرض، وكل عاقل وعالم يعلم أن ما أتى به هؤلاء من الكفر والردة، أقبح وأفحش وأكثر مما فعله أولئك"[٣].

---

[١] رواه مسلم برقم ١٧٠

[٢] قال ابن القيم:" ومنشأ الاشتباه في هذه المسألة اشتباه أحكام الكفر في الدنيا بأحكام الكفر في الآخرة فإن أولاد الكفار لما كان تجري عليهم أحكام الكفر في الدنيا مثل ثبوت الولاية عليهم لآبائهم وحضانتهم لهم وتمكنهم من تعليمهم وتأديبهم والموازنة بينهم وبين نبيهم واسترقاقهم وغير ذلك صار يظن من يظن أنهم كفار في نفس الأمر كالذي تكلم بالكفر وعمل به ومن ها هنا قال محمد بن الحسن: "أن هذا الحديث وهو قوله كل مولود يولد على الفطرة كان قبل أن تنزل الأحكام" فإذا عرف أن كونهم ولدوا على الفطرة لا ينافي أن يكونوا تبعا لآبائهم في أحكام الدنيا وقد زالت الشبهة **وقد يكون في بلاد الكفر من هو مؤمن يكتم إيمانه ولا يعلم المسلمون حاله فلا يغسل ولا يصلى عليه ويدفن مع المشركين وهو في الآخرة من أهل الجنة** كما أن المنافقين في الدنيا تجري عليهم أحكام المسلمين وهم في الدرك الأسفل من النار فحكم الدار الآخرة غير حكم الدار الدنيا وقوله "كل مولود يولد على الفطرة" إنما أراد به الإخبار بالحقيقة التي خلقوا عليها وعلى الثواب والعقاب في الآخرة إذا عملوا بموجبها وسلمت عن المعارض ولم يرد به الإخبار بأحكام الدنيا" شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢٩٨/١.

وقال ابن تيمية :" وقد يكون في بلاد الكفر من هو مؤمن في الباطن يكتم إيمانه من لا يعلم المسلمون حاله إذا قاتلوا الكفار فيقتلونه ولا يغسل ولا يصلى عليه ويدفن مع المشركين وهو في الآخرة من المؤمنين أهل الجنة كما أن المنافقين تجري عليهم في الدنيا أحكام المسلمين وهم في الآخرة في الدرك الأسفل من النار فحكم الدار الآخرة غير حكم الدار الدنيا" درء تعارض العقل والنقل ٤٣٣/٨.

[٣] الدرر السنية في الأجوبة النجدية ٤٠٢/٦

وعليه فمنهج القرآن والسنة هو استصحاب الأصل في القوم حكماً على عموم الدار أما الأعيان فيجري عليهم هذا الحكم المستصحب إلا من خالف دين قومه بإظهار خلاف ما أظهره القوم من إيمان وكفر، فصواب النظر ابتداءً هو في ظاهر القوم ثم الحكم عليهم، والعين تُلحق بالقوم إلا من أظهر مخالفة القوم، ومن استخفى فإنه يجري عليه حكم القوم لعدم التمييز في علم المكلف لكونه مخاطب بالظاهر.

وهذا هو النظر الصحيح خلافا للمجادلين عن المشركين الذين يبغونها عوجا، حيث يجعلون أهل ديار الكفر مسلمين بالتوارث ثم يطلبون اليقين في كفر العين منهم!! أومن يحكمون بالشعائر على المشركين وأهل دار الكافرين، وهذه في ميزان العلم أعوج وأشنع لا تتخرج على أصل صحيح، إذ كيف بالشعيرة تصحح إسلام من لا أصل له، أو تثبت إسلام قوم مشركين في العبادة والحاكمية والاتباع!! قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾[الكهف١٠٥] **وقال تعالى**:﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾[الفرقان٢٣].

وبالتالي الذين يؤسلمون مجهول الحال في ديار الكفر قد ضلوا ضلالاً مبيناً، حيث أنهم يوسعون دائرة الجهالة، ويُحمّلُون مجهول الحال ما لا يتحمل هذا الاصطلاح عند الفقهاء[١] ويدخلون فيه الكثرة المشركة في هذا الزمان ثم يختلفون عليها وغالباً ما تؤديهم أصولهم إلى أسلمتها، فهؤلاء قد حادوا عن الجادة وانحرفوا عن الأصول الصحيحة، فإن الشرع لا يأتي بمثل هذه الجهالة الواسعة في الكثرة الكاثرة الموجودة في الديار، فأسماء الناس وأحكامهم من أظهر مسائل الدين، وفي حقيقة الأمر أن هذا المجهول لا وجود له إلا في أذهان هؤلاء التائهين وهم أهل الجهل به، وهو من المخلفات والرواسب التي خلفها التأصيل الفاسد للديار، حيث أنهم نظروا نظراً مجرداً في الأعيان

[١] كلام الفقهاء في مجهول الحال مأخذه الإلحاق والتبعية في صور معينة كالميت والمجنون واللقيط، وهي دلالة ظنية **لذلك يُبَالغون في الاحتياط وتَغليب حُكم الإسلام، والمسألة كلها مبناها القياس لعدم وجود دلالة ظاهرة أو نصية**، قال ابن قدامة: فَصْلٌ: وَإِنْ وُجِدَ مَيِّتٌ، فَلَمْ يُعْلَمْ أَمُسْلِمٌ هُوَ أَمْ كَافِرٌ، نُظِرَ إلَى الْعَلَامَاتِ، مِنْ الْخِتَانِ، وَالثِّيَابِ، وَالْخِضَابِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ عَلَامَةٌ، وَكَانَ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ، غُسِّلَ، وَصُلِّيَ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ فِي دَارِ الْكُفْرِ، لَمْ يُغَسَّلْ، وَلَمْ يُصَلَّ عَلَيْهِ. نَصَّ عَلَيْهِ أَحْمَدُ؛ **لِأَنَّ الْأَصْلَ أَنَّ مَنْ كَانَ فِي دَارٍ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِهَا**، يَثْبُتُ لَهُ حُكْمُهُمْ مَا لَمْ يَقُمْ عَلَى خِلَافِهِ دَلِيلٌ". المغني ٢/٤٠٠، فالأصل المستصحب عند الفقهاء أن من كان في دار فهو من أهلها إلا أن يثبت خلاف هذا الأصل بدلالة ظاهرة أو نصية معتبرة، فإن ثبتت الدلالة عُمل بها ولا يلتفت لغيرها ولا تغليب لأحد الطرفين ولا تقوى الأصول: كاستصحاب حكم الدار أو حديث عَائِذِ بْنِ عَمْرٍو الْمُزَنِيِّ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ: «الْإِسْلَامُ يَعْلُو وَلَا يُعْلَى»، أو الْأَصْلَ فِي كُلِّ مَوْلُودٍ أَنَّهُ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ وغيرها على مدافعة الدلالات المعتبرة.

دون الأقـوام فهـم بـين معلـوم حالـه تبـين لهـم حكمـه وبـين مجهـول حـال اختلفـوا فيـه، وبالضرورة . على هذا النظر . يكون الانحراف أكبر مما يبدو أول وهلة.

وأما من نظر إلى القوم ابتداءً فيؤصِّلُ حكمهم لا يرد عليه مجهول الحال، إذْ حاله من حال قومه فهو معلوم الحال في الصورتين، ـ أي من وافق القوم ظاهرا فهو معلوم الحال ومن خالف القوم ظاهرا فهو معلوم الحال ـ وأما من عكس القضية ونظر في الأعيان ابتداءً نظراً مجردا فهذا سوف يَرِدُ على أصله مسائل لا يجد لها جوابا في الشرع لعدم وقوعها في صحيح النظر، فحينئذ تنحرف به المقدمات إلى أحكام باطلة فيحكم فيها بالأهواء ويخبط فيها خبط عشواء والله المستعان.

ومن حيث التنزيل على واقع الناس اليوم فنقول أنَّ الظاهر المعتبر في إسلام من يعيش بين هذه الأقوام المشركة هو البراءة من هذه الأقوام ومن دينهم الباطل الذي هو دين الديمقراطية، قال: حمد بن علي بن عتيق في ضابط إظهار الدين:" إنَّ كثيراً من الناس، قد ظنَّ أنَّه إذا قدر على أنْ يتلفَّظ بالشهادتين، وأن يصلِّي الصلوات، ولا يُرَدُّ عن المساجد، فقد أظهر دينه وإن كان مع ذلك بين المشركين، أو في أماكن المرتدين. وقد غلطوا في ذلك أقبح الغلط.

فاعلم أنَّ الكفرَ له أنواعٌ وأقسامٌ تتعدَّدُ بِتَعدُّد المكفرات، وقد تقدم بعض ذلك، وكلُّ طائفة من طوائف الكفر فلا بد أن يشتهر عندها نَوعٌ منه، ولا يكون المسلم مُظهِراً لدينه، حتى يخالف كل طائفة بما اشتهر عندها، ويُصرِّح لها بعداوته، والبراءة منه، فمن كان كفره بالشرك، فإظهار الدين عنده التصريح بالتوحيد، أو النهي عن الشرك والتحذير منه، ومن كان كفره بجحد الرسالة، فإظهار الدين عنده التصريح بأن محمداً رسول الله ﷺ، والدعوة إلى اتباعه. ومن كان كفره بترك الصلاة، فإظهار الدين عنده فعل الصلاة، والأمر بها، ومن كان كفره بموالاة المشركين والدخول في طاعتهم، فإظهار الدين عنده التصريح بعداوته، والبراءة منه ومن المشركين.

وبالجملة فلا يكون مظهراً لدينه، إلا من صرَّح لمن ساكنه من كل كافر ببراءته منه، وأظهر له عداوته لهذا الشيء الذي صار به كافراً، وبراءته منه، ولهذا قال المشركون للنبي ﷺ: عابَ ديننَا وسفَّهَ أحلامَنا، وشتمَ آلهتنا. قال اللهُ تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا

تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[يونس١٠٦]... فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهم: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾، إلى آخره، أي: إذا شككتم في الدين الذي أنا عليه، فدينكم الذي أنتم عليه أنا بريء منه، وقد أمرني ربي أن أكون من المؤمنين الذين هم أعداؤكم، ونهاني أن أكون من المشركين الذين هم أولياؤكم.

وقال تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴾إلى آخر السورة.

فأمر الله رسوله ﷺ أن يقول للكفار: دينكم الذي أنتم عليه، أنا بريء منه، وديني الذي أنا عليه أنتم برآء منه. والمراد: التصريح لهم بأنهم على الكفر، وأنه بريء منهم ومن دينهم، فمن كان متبعاً للنبي ﷺ فعليه أن يقول ذلك، ولا يكون مظهراً لدينه إلا بذلك، ولهذا لما عمل الصحابة بذلك، وآذاهم المشركون، أمرهم النبي ﷺ بالهجرة إلى الحبشة، ولو وجد لهم رخصة في السكوت عن المشركين، لما أمرهم بذلك إلى بلد الغربة".... إلى أن قال: "والمقصود منه: أن الرجل لا يكون مظهراً لدينه حتى يتبرأ من أهل الكفر الذي هو بين أظهرهم، ويصرّح لهم: بأنهم كفار، وأنه عدوٌ لهم، فإن لم يحصل ذلك لم يكن إظهار الدين حاصلاً "[١].

وقال إسحاق بن عبد الرحمن بن حسن: "فالحاصل هو ما قدمناه من أن إظهار الدين الذي تبرأ به الذمة، هو الامتياز عن عباد الأوثان بإظهار المعتقد، والتصريح بما هو عليه، والبعد عن الشرك، ووسائله، فمن كان بهذه المثابة إن عرف الدين بدليله، وأمن الفتنة، جاز له الإقامة، والله أعلم" [٢].

وقال عبد اللطيف: " والحاصل أن المسلم لا يكون مظهراً لدينه، سواءٌ كان مسافراً ومقيماً، حتى يخالف كل طائفة بما اشتهر عنها، **وهو الذي يفهم من كلام السلف**"[٣].

وقال سليمان بن سحمان[٤]:

إظهار هذا الدين تصريح لهم ... بالكفر إذْ هم معشر كفار

[١] سبيل النجاة والفكاك٩٢ .٩٥.

[٢] الأجوبة السمعيات ص ٧٧.

[٣] الأجوبة السمعيات ص ١٤٠.

[٤] ديوان عقود الجواهر المنضدة الحسان" ص٧٦، ٧٧

وعـــــداوة تبــــدو وبغـــض ظـــــاهر   يـــا للعقـــول أمـــا لكـــم أفكــــار

هـــذا ولـــيس القلـــب كـــاف بغضــــه   والحـــب منـــه ومـــا هـــو المعيـــار

لكنمـــــا المعيـــــار أن تـــــأتي بـــــه   جهـــــراً وتصــــريحاً لهـــــم وجهـــــار



الباب الخامس

التنزيل على واقع الناس اليوم

الفصل الأول

حقيقة النظام الحاكم في العالم

انقضى نظام الإمبراطوريات وسار العالم نحو نظام جديد فأصبح عبارة عن دويلات تجتمع تحت مظلة منظمة الأمم المتحدة التي تضم في عضويتها جميع الدول الملتزمة بميثاق الأمم المتحدة الذي انعقد في ٢٦ حزيران/ يونيو ١٩٤٥ في سان فرانسيسكو في ختام مؤتمر الأمم المتحدة الخاص بنظام الهيئة الدولية، والذي أصبح نافذاً في ٢٤ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٥، المنظمة التي تشكلت على أنقاض عصبة الأمم، وما أفرزته الحرب العالمية الثانية من قرارات ومواثيق ومعاهدات لنشر السلم والديمقراطية وحقوق الإنسان، كميثاق الأمم المتحدة وحقوق الإنسان والنظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية وغيرها، كل ذلك برعاية الدول المنتصرة في الحرب ـــ أمريكا وبريطانيا وروسيا وانضم إليهم بعد ذلك فرنسا والصين ـ الذين صاغوا قوانينها لمصالحهم ومصالح حلفائهم في تقسيم العالم إلى مناطق نفوذ، فوضعت ما سمته بميثاق الأمم المتحدة لتكون له المرجعية الأولى في كل قضية من قضايا العالم، حيث تستمد "الشرعية الدولية"[1] منه الأحكام والقرارات وتستند إليه في الخلافات والنزاعات والإجراءات، ومن أهم

---

[1] وسميت "شرعية" مضاهاة بالشرع الإلهي ولتعطَ صبغة القداسة التي لا يجوز انتهاكها، فالشرعة أو الشريعة هي الطريقة والمنهاج والدين المعظم الذي لا يجوز أن يُخالف أو يُعارض أو تُنتهك حدوده وأوامره ... وكذلك يريد هؤلاء المشرِّعون للشرعية الدولية أن تكون ... ولذلك تراهم يصفون القرارات التي تخرج من تحت مظلتها بأنها شرعية، وكل ما يخالفها أو يعارضها فليس بشرعي عندهم.

وكذلك يتعامل معها سائمة الأنعام الذين ينادون باحترامها وتطبيقها، وكذلك يفعلون مع شرعياتهم الدستورية المحلية فالقوانين والقرارات والمعاهدات والحكومات المنبثقة من دساتيرهم شرعية لا مطعن فيها في دينهم الجديد هذا!! أما شرع الله المنزل فليس له في حكوماتهم ومحاكمهم وعلاقاتهم وسياساتهم ودنياهم مكان .. ﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾؟!

أجهزة هذه المنظمة الجمعية العامة[1] ومجلس الأمن الدولي الذي أصبحت الدول المنتصرة في الحرب أعضاء دائمين فيه وهو المسؤول عن حفظ السلام والأمن الدوليين وله سلطة قانونية على حكومات دول الأعضاء لذلك تعدُّ قراراته ملزمة على الدول الأعضاء، ومنها المجلس الاقتصادي والاجتماعي، ومنها الهيئة القضائية الرئيسية لمنظمة الأمم المتحدة والتي هي محكمة العدل الدولية التي تفصل طبقاً لأحكام القانون الدولي في النزاعات القانونية التي تنشأ بين الدول، ومما جاء في ميثاق الأمم المتحدة في المادة ٩٢: يعتبر جميع أعضاء "الأمم المتحدة" بحكم عضويتهم أطرافاً في النظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية".

النظام العالمي الجديد الذي فرض هيمنته على العالم بزعامة أمريكا القطب الأحادي بعد تفكك المعسكر الاشتراكي وانهيار الاتحاد السوفياتي في مطلع التسعينات، **وأعلن الرئيس الأمريكي جورج بوش سنة ١٩٩١ عن تأسيس نظام عالمي جديد ونهاية نظام القطبية الثنائية والحرب الباردة وبداية عهد جديد تشرف عليه وتقوده الولايات المتحدة الأمريكية في إطار نظام القطبية الوحيدة،** حيث ظهر هذا الاصطلاح بشكل رسمي لأول مرة عند إعلان الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش الأب من على **منصة قاعة اجتماع الهيئة التشريعية لمجلس النواب الأمريكي** في ١٧ يناير ١٩٩١ بداية النظام العالمي الجديد New World ويلاحظ استخدام كلمة Orderولم يستخدم كلمة System مثلاً وذلك **لأن في كلمة Order من القسروالتوجيه والأمر ما ليس في غيره،** **وتتجلى أسس النظام العالمي الجديد حسب قرارات مؤتمر قمة أعضاء مجلس الأمن في ٣١يناير١٩٩٢ فيما يلي:**

---

[1] الجمعية العامة: هي جهاز التداول ووضع السياسات والتمثيل في الأمم المتحدة. ولجميع الدول الأعضاء الـ 203في الأمم المتحدة تمثيل في الجمعية العامة، مما يجعل هذا الجهاز جهازا ذي تمثيل عالمي بامتياز. وفي كل سنة، ابتداء في أيلول/سبتمبر، تجتمع الدول الأعضاء في الأمم المتحدة في قاعة الجمعية العامة بنيويورك للدورة السنوية للجمعية العامة والمناقشة العامة التي يحضرها كثير من الزعماء ويلقون فيها كلماتهم. ويتطلب استصدار مقرر من الأمم المتحدة — في ما يتصل بالمسائل المهمة مثل السلم والأمن وقبول عضوية دول جديدة ومسائل الميزانية — بموافقة أغلبية ثلثي الأعضاء في الجمعية العامة. بينما تصدر المقررات بشأن القضايا الأخرى بتصويت الأغلبية البسيطة. وتنتخب الجمعية العامة سنويا رئيسا لدورتها، يشغر ذلك المنصب لفترة سنة واحدة." انظر موقع الأمم المتحدة

١ــــــ اعتماد الديمقراطية وحقوق الإنسان وحرية ونزاهة الانتخابات أساسا للعلاقات بين الدول.

٢. تقوية دور مجلس الأمن وصلاحيات الأمين العام للأمم المتحدة من أجل الحفاظ على الأمن والاستقرار الدوليين.

٣ــ احتواء النزاعات الدولية بالطرق السلمية والدبلوماسية من خلال تحركات الأمين العام أو عن طريق الجهات التي يكلفها.

٤ـ بذل تنسيق الجهود والقرارات لردع الدول الخارجة عن توجهات والتزامات المجتمع الدولي.

وجملة الأهداف المعلنة هي إيجاد عالم خال من النزاعات الإيديولوجية وتسوده الديانة الديمقراطية وتُحترم فيه حقوق الإنسان والشرعية الدولية.

وسلطان الأمم المتحدة قد تم بسطه على جميع شعوب العالم عبر الحكومات الأعضاء ويظهر هذا جليا في مواد ميثاق حقوق الإنسان[١] التي حظرت الرق وشرعت الشخصية القانونية

---

[١] ميثاق حقوق الإنسان

ومن المواثيق الأساسية التي يتبين من خلالها ماهية النظام العالمي الجديد هو ميثاق حقوق الإنسان الصادر في باريس بتاريخ ١٠ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٨ والذي من بنوده:

المادة ٤: لا يجوز استرقاقُ أحد أو استعبادُه، ويُحظر الرق والاتجار بالرقيق بجميع صورهما

المادة ٦: لكلِّ إنسان، في كلِّ مكان، الحقُّ بأن يُعترَف له **بالشخصية القانونية**.

المادة ٧: الناسُ جميعًا سواءٌ أمام القانون، وهم يتساوون في حقِّ التمتُّع بحماية القانون دونما تمييز، كما يتساوون في حقِّ التمتُّع بالحماية من أيِّ تمييز ينتهك هذا الإعلانَ ومن أيِّ تحريض على مثل هذا التمييز.

المادة ٨: لكلِّ شخص **حقُّ اللجوء إلى المحاكم الوطنية** المختصَّة لإنصافه الفعلي من أيَّة أعمال تَنتهك الحقوقَ الأساسيةَ التي يمنحها إيَّاه الدستورُ أو القانونُ.

المادة ١٥:

١. لكل فرد حق التمتع بجنسية ما.

٢..لا يجوز، تعسُّفًا، حرمانُ **أيِّ شخص من جنسيته ولا من حقِّه في تغيير جنسيته.**

المادة ١٨: لكلِّ شخص حقٌّ في حرِّية الفكر والوجدان والدِّين، ويشمل هذا الحقُّ حرِّيته في تغيير دينه أو معتقده، وحرِّيته في إظهار دينه أو معتقده بالتعبُّد وإقامة الشعائر والممارسة والتعليم، بمفرده أو مع جماعة، وأمام الملأ أو على حدة.

لكل الأفراد التي هي الجنسية، وحقِ التمتُّع بحماية القانون دونما تمييز، وحقٌ حرِّية الفكر والوجدان والدِّين والاعتقاد، وحقُّ المشاركة في إدارة الشؤون العامة للبلاد أي: الحاكمية والتشريع، والإلزام بالتعليم للجميع لترسيخ هذه المفاهيم والحريات والمبادئ، فهذا النظام العالمي قد امتد سلطانه على جميع شعوب العالم عبر هذه المؤسسات التي غرست فيها مبادئ حقوق الإنسان بسلطان القوة منذ عشرات السنين، المبادئ التي تضمن تنشئت أجيال منسلخة عن ملة إبراهيم كما ورد ذلك في المواد المقررة في ميثاق الأمم المتحدة وميثاق حقوق الإنسان

المادة ١٩: لكلِ شخص **حقُّ التمتُّع بحرِّية الرأي والتعبير**، ويشمل هذا الحقُّ حرِّيته في اعتناق الآراء دون مضايقة، وفي التماس الأنباء والأفكار وتلقِّيها ونقلها إلى الآخرين، بأيَّة وسيلة ودونما اعتبار للحدود.

المادة ٢١:

١. **لكلِ شخص حقُّ المشاركة في إدارة الشؤون العامة لبلده**، إمَّا مباشرةً وإمَّا بواسطة ممثِّلين يُختارون في حرية .

٢. لكلِ شخص، بالتساوي مع الآخرين، حقُّ تقلُّد الوظائف العامَّة في بلده.

٣. **إرادةُ الشعب هي مناطُ سلطة الحكم**، ويجب أن تتجلىَّ هذه الإرادة من خلال انتخابات نزيهة تجرى دوريًّا بالاقتراع العام وعلى قدم المساواة بين الناخبين وبالتصويت السرِّي أو بإجراء مكافئ من حيث ضمان حرِّية التصويت.

المادة ٢٢: لكلِ شخص، بوصفه عضوًا في المجتمع، حقٌ في الضمان الاجتماعي، ومن حقِّه أن تُوفَّر له، من خلال المجهود القومي والتعاون الدولي، وبما يتَّفق مع هيكل كلِ دولة ومواردها، الحقوقُ الاقتصاديةُ والاجتماعيةُ والثقافيةُ التي لا غنى عنها لكرامته ولتنامي شخصيته في حرِّية.

المادة ٢٦:

١- **لكلِ شخص حقٌ في التعليم. ويجب أن يُوفَّر التعليمُ مجَّانًا**، على الأقل في مرحلتيه الابتدائية والأساسية. ويكون التعليمُ الابتدائيُ إلزاميًّا. ويكون التعليمُ الفنِّي والمهني متاحًا للعموم. ويكون التعليمُ العالي مُتاحًا للجميع تبعًا لكفاءتهم.

٢- **يجب أن يستهدف التعليمُ التنميةَ الكاملةَ لشخصية الإنسان وتعزيز احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية.** كما يجب أن **يعزِّز التفاهمَ والتسامحَ والصداقةَ بين جميع الأمم وجميع الفئات العنصرية أو الدينية**، وأن يؤيِّد الأنشطةَ التي تضطلع بها الأممُ المتحدةُ لحفظ السلام.

المادة ٢٨: لكلِ فرد حقُّ التمتُّع بنظام اجتماعي ودولي يمكن أن تتحقَّق في ظلِّه الحقوق والحريات المنصوص عليها في هذا الإعلان تحقُّقًا تامًّا.

والجمعية العامة للأمم المتحدة تنادي بهذا الإعلان العالمي لحقوق الإنسان على أنه **المستوى المشترك الذي ينبغي أن تستهدفه كافة الشعوب والأمم** حتى يسعى كل فرد وهيئة في المجتمع، **واضعين على الدوام هذا الإعلان نصب أعينهم، إلى توطيد احترام هذه الحقوق والحريات عن طريق التعليم والتربية و اتخاذ إجراءات مطردة، قومية وعالمية، لضمان الاعتراف بها ومراعاتها بصورة عالمية فعالة بين الدول الأعضاء ذاتها وشعوب البقاع الخاضعة لسلطانها.**

المترجمة إلى مناهج دراسية ومقررات منهجية في وسائل الإعلام ومنابر التوعية والثقافة بهذه المفاهيم الجديدة.

إن ميثاق "الأمم المتحدة"[1]: طاغوت ليس كأي طاغوت قُطري بل هو طاغوت عالمي فرض سلطانه على جميع الدول والشعوب والأفراد، وليس هو مجرد وثيقة تأسيسية لمنظمة من المنظمات، بل قد أراد واضعوه أن يكون ميلادا لدين جديد يسود العالم بأسره، إن خبراء القانون الدولي وفلاسفته يعلنون بوضوح وصراحة أن

---

[1] وومما جاء في الأمم المتحدة:

١. حفظ السلم والأمن الدولي، وتحقيقاً لهذه الغاية تتخذ الهيئة التدابير المشتركة الفعّالة لمنع الأسباب التي تهدد السلم ولإزالتها، وتقمع أعمال العدوان وغيرها من وجوه الإخلال بالسلم، وتتذرّع بالوسائل السلمية، وفقاً لمبادئ العدل والقانون الدولي، لحل المنازعات الدولية التي قد تؤدي إلى الإخلال بالسلم أو لتسويتها.

٢. إنماء العلاقات الودية بين الأمم على أساس احترام المبدأ الذي يقضي بالتسوية في الحقوق بين الشعوب **وبأن يكون لكل منها تقرير مصيرها**، وكذلك اتخاذ التدابير الأخرى الملائمة لتعزيز السلم العام.

٣. تحقيق التعاون الدولي على حل المسائل الدولية ذات الصبغة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والإنسانية وعلى تعزيز احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية **للناس جميعاً** والتشجيع على ذلك إطلاقاً بلا تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الدين ولا تفريق بين الرجال والنساء.

٤. جعل هذه الهيئة مرجعاً لتنسيق أعمال الأمم وتوجيهها نحو إدراك هذه الغايات المشتركة.

٥. يقدّم جميع الأعضاء كل ما في وسعهم من عون إلى "الأمم المتحدة" **في أي عمل تتخذه وفق هذا الميثاق**، كما يمتنعون عن مساعدة أية دولة تتخذ الأمم المتحدة إزاءها عملاً من أعمال المنع أو القمع.

٦. **وتفصل محكمة العدل الدولية في المنازعات التي ترفع إليها وفقاً لأحكام القانون الدولي** واستناداً إلى المصادر التالية:

١. الاتفاقات الدولية العامة الخاصة التي تضع قواعد تقر بها الدول المتنازعة صراحة.

٢. العرف الدولي المقبول بمثابة قانون كما دل عليه التواتر.

٣. مبادئ القانون العام التي أقرتها الأمم المتحدة.

٤. أحكام ومذاهب كبار المؤلفين في القانون العام في مختلف الأمم.

٥. مبادئ العدل والإنصاف متى وافق الأطراف على ذلك.

هـذا الميثـاق هـو أسـمى المعاهـدات الدوليـة وهـو المهـيمن والحـاكم عليهـا، وقوانينـه هـي قواعـد القـانون الـدولي وأعلاهـا مكانـة و أقواهـا نفـوذاً، وقـد التـزم بـه وخضـع لـه جميـع الأمـم، ولـذلك نصـت المـادة (١٠٣) مـن هـذا الميثـاق نفسـه علـى أنـه: "إذا تعارضـت الالتزامـات التي يـرتبط بها أعضـاء الأمـم المتحـدة وفقـاً لأحكـام هـذا الميثـاق مـع أي التـزام دولي يرتبطـون بـه، فـالعبرة بالتزامـاتهم المترتبـة علـى هـذا الميثـاق"، ومعنى ذلـك؛ أنـه لا يسـوغ لأي دولـة ملتزمـة بهـذا الميثـاق أن تبـرم أي اتفـاق دولي أو تختـار وتلتـزم بقـانون بينهـا وبـين دولـة أخـرى أو بينهـا وبـين أفرادهـا تتعـارض أحكامـه مـع القواعـد والأحكـام الـواردة في ميثاق الأمم المتحدة، ولو كان شرع الله العزيز الجبار!.

ومتقـرر أنـه لا يمكـن لأي دولـة الانتسـاب لعضـوية الأمـم المتحـدة حتى تعلـن الدولـة حكومـة وشـعباً التزامهـا واحترامهـا لهـذا الميثـاق وتُسـلم لـه تسـليما ... إذ أن إجـراءات الانضـمام للأمـم المتحـدة تـتلخص في أن تقـدم الدولـة التي ترغـب في الانضـمام للأمـم المتحـدة طلبـاً بـذلك إلـى الأمـين العـام للمنظمـة الدوليـة ويكـون ذلـك الطلـب مصـحوباً بـإعلان قبـول الالتـزام بميثـاق الأمـم المتحـدة، وكـذلك الأمـر بالنسـبة للطـرد مـن الأمـم المتحـدة، فـإن "المـادة السادسـة" مـن الميثـاق تـنص علـى؛ أنّـه يجـوز للجمعيـة العامـة أن تفصل عضواً من الأعضاء إذا أمعن في **انتهاك مبادئ الميثاق**.

هـذا هـو الـدين الجديـد الـذي تـم فرضـه علـى البشـرية إثـر الهيمنـة العسـكرية والسياسـية بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة، وهكـذا توضـع الأديـان ويمكَّـن لهـا في الأرض في تـاريخ البشـرية فإنهـا تعلـوا بعـد أن تُـروى لهـا الأرض بالـدماء وتخضـع لهـا العبـاد بسـلطان القوة والحديد وينقاد لها المغلوبون والضعفاء بعد القهر والتعبيد.

المطلب الأول: بين دين الله ودين ملوك الأرض

قـال تعـالى: ﴿ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾ [يوسـف:٧٦] قـال الضـحاك وابـن عبـاس فـي قولـه: ﴿ دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾: «فـي سـلطان الملـك»[١]، وعـن قتـادة: ﴿ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾، قـال:« لم يكن ذلك في دين الملك قال: حكمه»[٢].

[١] رواه الطبري برقم ١٩٥٧٠ ورقم ١٩٥٧١

[٢] رواه الطبري برقم ١٩٥٧٣

قال في جمهرة اللغة:" والدِّين: الطَّاعَة والمُلك، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾ ، أَي فِي طَاعَته[١]، قَالَ الشاعر

لَئِن حللت بجَوٍّ فِي بني أسدٍ فِي دين عمرٍو وحالت دُوننَا فَدَكُ

وقال تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾[النور١]، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِ اللَّهِ:﴿ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾«**يَعْنِي فِي حُكْمِ اللَّهِ الَّذِي حَكَمَ عَلَى الزَّانِي**»[٢]، وقال الطبري:" يقول تعالى ذكره: لا تأخذكم بالزاني والزانية أيها المؤمنون رأفة، وهي رقة الرحمة في دين الله، **يعني في طاعة الله** فيما أمركم به من إقامة الحد عليهما على ما ألزمكم به"[٣].

ومن السنة جاء في صفة الخوارج: «إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ رَطْبًا، لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»[٤]، قال البغوي:" وَقَوْلُهُ: «يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ» أَيْ: يَخْرُجُونَ مِنَ الدِّينِ، **أَيْ مِنَ طَاعَةِ الأَئِمَّةِ، وَالدِّينُ: الطَّاعَةُ**، وَهَذَا نَعْتُ الْخَوَارِجِ الَّذِينَ لَا يَدِينُونَ لِلأَئِمَّةِ، وَيَسْتَعْرِضُونَ النَّاسَ بِالسَّيْفِ"[٥].

فسمى الله حكم الملك ديناً وهو نظام الملك وشريعته، وسمى حكم الله ديناً وهي حدود الله وشرائعه، وهذه النصوص تحدِّدُ مدلول كلمة الدين تحديدا دقيقاً، فدين الإسلام هو: شِرعة الله ومنهاجه ونظامه وسُلطانه ومن كان تأبعا له داخلاً في طاعته منقاداً لأحكامه متحاكماً إلى شريعته فهو في دين الله، وفي المقابل دين الملك هو: نظام الحكم الذي وضعه ملوك الأرض، فمن كان تابعاً لهُ داخلاً في طاعته منقاداً لأحكامه متحاكما لشرعته فهو في دين الملك، والذي نرومُ تحقيقُه في هذا الفصل هو تقرير حقيقة الدين الذي فيه الناس اليوم.

إنَّ الناس اليوم قد دخلوا في دين ملوك الأرض أفواجا وخرجوا من دين الله أفواجا، كما أخبر بذلك النبي ﷺ، فعن أبي هريرة قال: ﴿تلا رسول الله ﷺ:﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ

---

[١] جمهرة اللغة ٦٣٣/٢ ، والزاهر في معاني كلمات الناس ٢٧٨/١، والبيت قاله زهير في ديوانه ١٨٣، وجو: واد، وفدك: قرية بالحجاز، وعمرو هو عمرو بن هند بن المنذر.

[٢] رواه ابن أبي حاتم في تفسيره برقم ١٤١٠٣

[٣] تفسير الطبري ٩١/١٩

[٤] رواه البخاري برقم ٤٣٥١ ومسلم برقم ١٠٦٤

[٥] رواه البخاري برقم ٤٣٥١ ومسلم برقم ١٠٦٤

وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ [النصر:٢]، فقال رسول الله ﷺ: ﴿ليخرجن منه أفواجًا كما دخلوا فيه أفواجًا﴾[١].

إنَّ نظام المُلْكِ اليوم مُستعلَنٌ به في هذه الديار، يَدرسون أوضاعه في مدارسهم وقانُونه في جامعاتهم مُطَّلِعين على أوضاعه في إعلامهم، متلبِّسين به في حياتهم يتحاكمون إليها في محاكمهم منتسبين إليه في وثائقهم وهو: دين الديمقراطية[٢] ونهج العلمانية[٣] الذي هو حكم الشعب للشعب، وهو نظامٌ سياسي يقتسم فيه المواطنون السلطة، ويختارون حكامهم بحرية، ويحتفظون لأنفسهم بالرَّقابة الدائمة على الحكومة، فالشعب هو مصدر السلطات[٤]، فهو المشرِّع ويتم ذلك بإنابة أعضاء

---

[١] رواه الحاكم في "مستدركه"، وقال: "صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي في "تلخيصه".

[٢] الديمقراطية: هي اصطلاح يوناني قديم مركب من كلمتين (Demos _ ديموس) ومعناها: الشعب، و (Kratrs _ كراتوس) ومعناها: السلطة، فيكون معنى الكلمة مركبا: "سلطة الشعب" وفي الاصطلاح قيل: إنها حكومة الشعب بواسطة الشعب لمصلحة الشعب، وقيل: إنها حكومة من كل الشعب وبكل الشعب ولكل الشعب، وقيل هي حكومة الشعب بواسطة الشعب، وقيل: إنها نظام سياسي يقتسم فيه المواطنون السلطة، ويختارون حكامهم بحرية، ويحتفظون لأنفسهم بالرقابة الدائمة على حكومتهم، وقيل: هي ما كانت فيها الجماعة هي مصدر السلطة وهي التي تمارسها بنفسها، أو تنتخب من ينوب عنها في ممارستها" انظر: مدخل إلى الديمقراطية تأليف: ديفيد بيتهام ، وكيفن بويلي. من ترجمة: أحمد رمو. ص / ٩

فالديمقراطية هي شكل من أشكال الحكم يشارك فيها جميع المواطنين المؤهلين على قدم المساواة ــ إما مباشرة أو من خلال ممثلين عنهم منتخبين. في اقتراح وتطوير واستحداث القوانين، وهي تشمل الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي تمكن المواطنين من الممارسة الحرة والمتساوية لتقرير المصير السياسي، ومن أهم أسس الديمقراطية الالتزام بالمسؤولية واحترام النظام وترجيح كفة المعرفة على القوة والعنف، ويطلق مصطلح الديمقراطية أحيانا على المعنى الضيق لوصف نظام الحكم في دولة ديمقراطيةٍ، أو بمعنى أوسع لوصف ثقافة مجتمع، والديمقراطيّة بهذا المعنَى الأوسع هي نظام اجتماعي يؤمن به ويسير عليه المجتمع ويشير إلى ثقافةٍ سياسيّة وأخلاقية معيّنة تتجلى فيها مفاهيم تتعلق بضرورة تداول السلطة سلمياً وبصورة دورية، يعود منشأ ومهد الديمقراطية إلى اليونان القديم حيث كانت الديمقراطية الأثينية أول ديمقراطية نشأت في التاريخ البشري،

[٣] جاء في القاموس الإنجليزي أن كلمة "علماني" معناها: دنيوي، أو مادي، أو ليس بديني، فالمقصود من الكلمة هو إقامة الحياة بعيداً عن الدين، أو الفصل الكامل بين الحياة والدين" ينظر: معجم أكسفورد (ص ١٣٧١).

والعلمانية في اصطلاح القوم: تأتي لمعان منها: العالمية، ومنها اللادينية، ومنها فصل الدين عن الدولة وعن الحياة، وكلمة العلمانية اصطلاح جاهلي غربي يشير إلى انتصار العلم على الكنيسة التي حاربت التطور باسم الدين.

[٤] وهو متقرر في دستور الأنظمة الديمقراطية حيث أن الدستور قد أسند حق التشريع للشعب ولمجلس النواب: جاء في الفصل الثالث من الدستور التونسي: " الشعب التونسي هو صاحب السيادة يباشرها على الوجه الذي يضبطه هذا الدستور".

وفي الفصل الثامن عشر: يمارس الشعب السلطة التشريعية بواسطة مجلس النواب ومجلس المستشارين أو عن طريق الاستفتاء

يُنتخب عليهم من طرف الشعب وظيفتها التشريع وسَنِّ القوانين في مجلس الشعب، والشعب هو الحاكم أي: الذي يُنَصِّب الحاكم الذي يرتضيه عن طريق الانتخابات بشكل دوري لإتاحة التداول على السلطة ... وإلى هنا قد غَصَبَ هذا الشعب الربوبية وما اختصَّ الله به من الحاكمية والتشريع وادَّعاها لنفسه وعَبَّدَ لها الشعب وحمى سلطانه بجيوش هي من الشعب: ـ الجيش الشعبي الوطني ـ وقد نفذَت أحكامُه وقوانينه وشرائعه في هذا الشعب، وهذا النظام الوضعي والدين الوثني يُتيح لجميع طبقات الشعب حقوق المواطنة ومن أبرزها إنشاء الأحزاب ـ لا على أساس الدين ـ وأحقية الترشيح للمناصب الحكومية والتشريعية ليتم التداول على الربوبية من طرف جميع طبقات الشعب فمن كان في هذه الفترة حاكماً قد يكون في المرحلة القادمة محكوماً، فهم بين رب ومربوب وعبد ومعبود من دون الله، ويفرض النظام على المواطنين واجبات منها نصرة الوطن والدفاع عنه وهو الواجب مقدس ومنها احترام القوانين وتنفيذها ودفع الضرائب والمكوس.

وهذه نبذة مختصرة عن دين الديمقراطية[1] الذي هو دين الشعب، والذي استنار قلبه بالتوحيد حينما ينظر في هذه الجاهلية العصرية التي الحاكمية فيها للشعب والتي

وفي الفصل الثامن والعشرون: يمارس مجلس النواب ومجلس المستشارين السلطة التشريعية طبقا لأحكام الدستور، ولرئيس الجمهورية ولأعضاء مجلس النواب على السواء حق عرض مشاريع القوانين، ولمشاريع رئيس الجمهورية أولوية النظر.

وفي الفصل أربع وستون: تصدر الأحكام باسم الشعب وتنفذ باسم رئيس الجمهورية.

[1] الديمقراطية على اختلاف تشعباتها وتفسيراتها تقوم على مبادئ وأسسٍ نوجز أهمها في النقاط التالية:

أولاً: تقوم الديمقراطية على مبدأ أن الحاكمية والتشريع والتنفيذ للشعب الذي هو مصدر السلطات بما في ذلك السلطة التشريعية والسلطة القضائية والتنفيذية، ويتم ذلك عن طريق اختيار ممثلين عن الشعب ينوبون عنه في مهمة التشريع وسن القوانين واختيار الحاكمين بها، وبعبارة أخرى فإن المشرع المطاع في الديمقراطية هو العبيد وليس رب العبيد، كما نصت عليه المادة ٢١ من ميثاق حقوق الإنسان: إرادةُ **الشعب هي مناطُ سلطة الحكم**، ويجب أن تتجلىَّ هذه الإرادة من خلال انتخابات نزيهة تجرى دوريًّا بالاقتراع العام وعلى قدم المساواة بين الناخبين وبالتصويت السرّي أو بإجراء مكافئ من حيث ضمان حرّية التصويت.

ثانياً: تقوم الديمقراطية على مبدأ حرية التدين والاعتقاد، فللمرء أن يعتقد ما يشاء، ويتدين بالدين الذي يشاء، فالنظام قائم على حماية حرية التدين وهي الحرية التي نص عليها ميثاق حقوق الإنسان **المادة ١٨**: لكلِّ شخص **حقٌّ في حرّية الفكر والوجدان والدِّين**، ويشمل هذا الحقُّ حرّيته في تغيير دينه أو معتقده، وحرّيته في إظهار دينه أو معتقده بالتعبُّد وإقامة الشعائر والممارسة والتعليم، بمفرده أو مع جماعة، وأمام الملأ أو على حدة.

رابعاً: تقوم الديمقراطية على مبدأ حرية التعبير والإفصاح عن الرأي أيّاً كان هذا التعبير مناقض للثوابت والأصول الدينية، كما جاء في ميثاق حقوق الإنسان **المادة ١٩**: لكلِّ شخص **حقُّ التمتُّع بحرّية الرأي والتعبير**، ويشمل هذا

قـد رضـي فيهـا الشـعب بحكـم نفسـه والخضـوع لأحكامـه وشـرعه، ثـم ينظـر في كتـاب ربـه فيجـد أن مـن أظهـر القضـايا التي تناولهـا هـي قضـية الحاكميـة والاتبـاع والانقيـاد للـه الواحـد الـديَّان وحـده لا شـريك لـه، وهي مـدلول لا إلـه إلا اللـه ومعنى إفـراد اللـه بالعبوديـة والبـراءة مـن الطـاغوت واجتنابـه، قـال تعـالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾[الزمر:١٧].

الحـقُّ حرّيتـه في اعتنـاق الآراء دون مضـايقة، وفي التمـاس الأنبـاء والأفكـار وتلقّيهـا ونقلهـا إلى الآخـرين، بأيّـة وسـيلة ودونمـا اعتبار للحدود

خامسـاً: تقـوم الديمقراطيـة على مبـدأ فصـل الـدين عـن الدولـة والنظـام العـام، وعـن السياسـة والحيـاة، فالـدين محصـور في الضـمائر والصـوامع والزوايـا والمسـاجد، ومـا سـوى ذلـك مـن مرافـق الحيـاة السياسـية والاقتصـادية والاجتماعيـة وغيرهـا فهـي مـن خصوصـيات النظـام الحـاكم يتصـرف فيهـا كيـف يشـاء، ويتجلى هـذا في الفلسـفة العلمانية: الدين لله والوطن للجميع.

سادسـاً: تقـوم الديمقراطيـة على مبـدأ حريـة تشـكيل التجمعـات والأحـزاب السياسـية والجمعيـات الخيريـة والعلميـة والثقافيـة وغيرهـا، لا على أسـاس الـدين بـل على حريـة الـرأي والفكـر والثقافـة أيـاً كانـت عقيـدة وأفكـار وأخلاقيـات هـذه الأحزاب والجماعات.

سـابعاً: تقـوم الديمقراطيـة على مبـدأ اعتبـار موقـف الأكثريـة، ويسـمى بالنظـام الجمهـوري الـذي يتبنّي مـا تجتمـع عليـه الأكثريـة، وهي لا تجتمـع إلا على الباطـل والضـلال والكفـر، كمـا ورد في النصـوص الكثيرة في ذم الكثرة قولـه تعـالى: ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[الشـعراء٨]، وقولـه﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾[الزخرف٧٨]، وقولـه تعـالى ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾[الأنعام١١٦]، وغيرها من الآيات.

ثامنـاً: تقـوم الديمقراطيـة على مبـدأ المسـاواة ـ في الحقـوق والواجبـات ـ بـين جميـع شـرائح وأفـراد المجتمـع، بغـض النظـر عـن انتمـاءاتهم العقديـة والدينيـة، كمـا جـاء في ميثـاق حقـوق الإنسـان **المـادة ٧** :**النـاسُ جميعًـا سـواءٌ أمـام القـانون**، وهـم يتسـاوون في حـقِّ التمتُّـع بحمايـة القـانون دونمـا تمييـز، كمـا يتسـاوون في حـقِّ التمتُّـع بالحمايـة مـن أيِّ تمييـز ينتهـك هذا الإعلانَ ومن أيِّ تحريض على مثل هذا التمييز.

فالدسـتور لا يقـر بوجـود كفـار أو مسـلمين في الـبلاد يكـون على أساسـه التمـايز بـين الحقـوق والواجبـات، بـل يقـر بحريـة الأديـان والاعتقـاد والـراي والأفكـار، فسـواءً أكنـت نصـراني أو يهـودي أو مجوسـي أو منتسـب للإسـلام فأنـت مـواطن لـك حقـوق وعليـك واجبـات كاملـة، ولا فـرق في القـانون بـين المسـلم أو المشـرك أو المرتـد أو الـذمي، ولا فـرق بـين الـذكر والأنثى، وفي هـذه الحيثيـة تغيير وتبـديل لشـرع اللـه وأحكامـه، فاللـه تعـالى فـرق بـين المسـلم والكـافر في أسـماء وأحكـام ولـم يسـاوِ بينهمـا لا في أحكـام الـدنيا ولا في أحكـام الآخـرة، وفـرق بـين الـذكر والأنثى في الكثير مـن الأحكـام، أمـا في ديـن الأمـم المتحـدة فهمـا سـواء، قـال تعـالى:﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص:٢٨]، وقال تعالى: ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾[آل عمران٢٦].

إنَّ القضيَّة عند صاحب الفطرة السليمة في غاية الصفاء والوضوح: قومٌ اجتمعوا في أرضٍ لها حدود فهي الوطن، لها دستور فهو الحَكَم لها شعار فهو العلم، يُعقد له الولاء وعليه البراء يعظَّمُ بالقنوت ويقاتل تحته في صمود، وكل ذلك تحت قانون: الدين لله والوطن للجميع، وقد جعلوا سَنَّ القوانين والحاكمية في أنفسهم على جهة المداولة على السلطان، فمن اختارته الأغلبية فهو الحكم دانوا له بالطَّاعة والاتِّباع لأَجَل محدود، ونصَّبوا القضاة والحاكمين يحكمون بما يَسُنُّه المشرعين الذين يُمَثِّلُون القوم، وقد سنُّو حُرِيَّةَ الأديان بل وحدتها وحرية الاعتقاد ـ إلا التوحيد ـ ونَصَّبت للناس قباباً ومشاهداً وقبوراً ومعابداً وزيّنت لهم عبادتها وحمتها بسيف القوم، وأشاعت الرذيلة وطمست الفضيلة وأنكرت المعروف وأمرت بالمنكر، ونشرت الشرك والتنديد وفتنت أهل الحق والتوحيد، فما تركوا من أمر الجاهلية الأولى شيئاً إلا كان لهم منه أوفر حظٍ وأكمل نصيب، بل تجاوزا حد الطغيان والتنديد فكانوا كما قال الله في الأقوام الطَّاغية: ﴿ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الذاريات:٥٣] وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴾ [الصافات:٣٠] وقال تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾ [النجم:٥٢]

فإن لم يكن هذا هو الكفر والشرك والطغيان فما هو إذا؟ وإن لم يكن هؤلاء هم المشركون والكفار والطواغيت فمن هم إذا؟!! ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم:٣٦] .



الفَصْلُ الثَّانِي

في حدِّ المسلمين

بعد تفصيل حدِّ الإسلام الذي يُفارق به الجاهلي دين قومه المشركين، ناسب في هذا المقام ذكر: من هم المسلمون؟، وما هو حدُّ الأقوام المسلمة المباينة للأقوام المشركة؟، بحيث أنَّ الناظر في الأقوام يُمَيِّز به بين المسلمين والمشركين حتى يكون على بيِّنَةٍ من أمره حينما يتلقى رسمهم من كتاب ربه:

* قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[آل عمران:٦٤]، قال أبو العالية: «كلمة السواء لا إله إلا الله»[١]، وقال أبو جعفر:" وأما قوله: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ ، فإنه يعني: فإن تولَّى الذين تدعونهم إلى الكلمة السواء عنها وكفروا، فقولوا أنتم أيها المؤمنون لهم: اشهدوا علينا بأنا بما تولَّيتم عنه من توحيد الله وإخلاص العبودية له، وأنه الإلهُ الذي لا شريك له مسلمون، يعني: خاضعون لله به، متذلِّلون له بالإقرار بذلك بقلوبنا وألسنتنا"[٢].

وفي هذا النص دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام، فأمر الله نبيَّه أن يدعوهم إلى الكلمة السواء وهي لا إله إلا الله، وذكر مدلولها الذي يصح به إسلامهم، فإن حققوه كانوا مسلمين، ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ "أَيْ: فَإِنْ تَوَلَّوْا عَنْ هَذَا النَّصَف وَهَذِهِ الدَّعْوَةِ فأشْهِدوهم أَنْتُمْ عَلَى اسْتِمْرَارِكُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ الَّذِي شَرَعَهُ اللَّهُ لَكُمْ"[٣].

وجاء في الآية تفسير الكلمة السواء: ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي البراءة من الشرك وإفراد الله بالعبودية وعدم اتخاذ الأرباب في الحاكمية والتشريع ، ونصَّ الله على عدم اتخاذ الأرباب في الحكم والتشريع

---

[١] رواه الطبري في تفيره برقم ٧١٩٩

[٢] تفسير الطبري ٦/٤٨٩

[٣] تفسير بن كثير ٢/٥٦

وإن كان داخلاً في إفراد الله بالعبودية وعدم الإشراك به تعالى، والتَّنصيص جاء للتأكيد عليه وذلك لاتِّخاذ أهل الكتاب الأحبار والرهبان: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾[التوبة:٣١].

وهذه الآية من أوضح الآيات في كتاب الله التي أوضحت حد المسلمين ونصت على شرطهم في عدم اتخاذ الأرباب في الحاكمية والتشريع.

❁ وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[آل عمران:٨٠] "أَيْ: وَلَا يَأْمُرُكُمْ بِعِبَادَةِ أَحَدٍ غَيْرِ اللَّهِ، لَا نَبِيٍّ مُرْسَلٍ وَلَا مَلَكٍ مُقَرَّب ﴿ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ أَيْ: لَا يَفْعَل ذَلِكَ؛ لأَنَّ مَنْ دَعَا إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ دَعَا إِلَى الْكُفْرِ، وَالْأَنْبِيَاءُ إِنَّمَا يَأْمُرُونَ بِالْإِيمَانِ، وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ"[١]، وقال البخاري: بَابُ دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ النَّاسَ إِلَى الإِسْلَامِ وَالنُّبُوَّةِ، وَأَنْ لاَ يَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[آل عمران٧٩]إِلَى آخِرِ الآيَةِ"[٢].

وفيها أنَّ اتخاذ الأرباب كفر يرفع اسم الإسلام من القوم، فالمسلمون لا يتخذون الأرباب في العبادة والطاعة والاتباع.

❁ وقوله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾[المائدة٤٩].

قال البغوي: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ ﴾**أَيْ: أَعْرَضُوا عَنِ الْإِيمَانِ وَالْحُكْمِ بِالْقُرْآنِ**، فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ، أَيْ: فَاعْلَمْ أَنَّ إِعْرَاضَهُمْ مِنْ أَجْلِ أَنَّ اللَّهَ يُرِيدُ أَنْ

---

[١] تفسير بن كثير ٦٧/٣

[٢] صحيح البخاري ٤٥/٤

يُعَجِّلَ لَهُمُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ،﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾، يَعْنِي: الْيَهُودَ﴿ لَفَٰسِقُونَ ﴾"[١].

❁ وقال تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنًا وَكُفۡرًاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[المائدة:٦٨]، قال ابن زيد في قوله: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ ، قال:« فقد صرنا من أهل الكتاب "التوراة"، لليهود، و"الإنجيل"، للنصارى ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ ، وما أنزل إلينا من ربنا أي: ﴿لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ﴾حتى تعملوا بما فيه»[٢].

وقال السمعاني: ﴿ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ أي: تعملوا بِالْكُلِّ"[٣].

وقال البغوي:" قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ ، **أَيْ: تُقِيمُوا أَحْكَامَهُمَا** وَمَا يَجِبُ عَلَيْكُمْ فِيهِمَا، ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنًا وَكُفۡرًاۖ ﴾ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً ﴿ فَلَا تَأۡسَ ﴾ ، فَلَا تَحْزَنْ، ﴿ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾"[٤].

وإن كان هذا الوصف: ﴿ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ ﴾ خطاب لأهل الكتاب فهو يعمُّ هذه الأمة كما في آثر ابن زيد، فكل أمة أُنزل إليها كتاب الله فلم يعملوا بما أنزل إليهم من ربهم ليسوا على شيء من الدين حتى يقيموا ما أنزل إليهم من ربهم وإلا: ﴿ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ ، إذا فصفةُ القوم المسلمين إقامة شريعة ربهم والحكم بما أُنزل إليهم من

[١] تفسير البغوي ٥٨/٢

[٢] رواه الطبري في تفسيره برقم ١٢٢٨٥

[٣] تفسير السمعاني ٥٣/٢

[٤] تفسير البغوي ٧٠/٢

ربّهم وعدم اتخاذ الأرباب، وصفةُ القوم الكافرين عدم إقامة ما أنزل إليهم من ربّهم وتلقي الشريعة من الأرباب والدين من الأنداد.

❁وقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [النور:٤٧]، قال أبو جعفر ﴿ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ يقول: وليس قائلو هذه المقالة، يعني قوله: ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ﴾ بالمؤمنين، لتركهم الاحتكام إلى رسول الله ﷺ وإعراضهم عنه إذا دعوا إليه."[١]، ولا شك أن هؤلاء الأقوام والشعوب دُعوا إلى الحكم بالقرآن، ولكنهم أعرضوا بل قاتلوا بجميعهم من دعاهم إلى ذلك وساموهم سوء العذاب.

ومثله قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ [النساء:٦٥]، قال أبو جعفر: يعني جلَّ ثناؤه بقوله: ﴿ فَلَا ﴾ فليس الأمر كما يزعمون: أنهم يؤمنون بما أنزل إليك، وهم يتحاكمون إلى الطاغوت، ويصدّون عنك إذا دعوا إليك يا محمد"[٢].

وعن الضحاك في قوله: ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ ﴾" ، قال: إثمًا، ﴿ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ يقول: ويسلّموا لقضائك وحكمك، إذعانًا منهم بالطاعة، وإقرارًا لك بالنبوة تسليمًا"[٣]، وقال البغوي: ﴿ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ أي: ينقادوا لأمرك انقيادا"[٤].

وقال تعالى:﴿ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾[الممتحنة ١٠] قَالَ الزُّهْرِيُّ:« لَوْلَا الْهُدْنَةُ وَالْعَهْدُ الَّذِي كَانَ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ لَأَمْسَكَ النِّسَاءَ وَلِمَ يَرُدَّ الصَّدَاقَ، وَكَذَلِكَ كَانَ يَصْنَعُ بِمَنْ جَاءَهُ مِنَ الْمُسَلِّمَاتِ قَبْلَ الْعَهْدِ، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ أَقَرَّ الْمُؤْمِنُونَ بِحُكْمِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَأَدَّوْا مَا أُمِرُوا بِهِ مِنْ نَفَقَاتِ

[١] تفسير الطبري ٢٠٥/١٩
[٢] تفسير الطبري ٥١٨/٨
[٣] رواه الطبري في تفسيره برقم ٩٩١١
[٤] تفسير البغوي ٦٥٧/١

[الْمُشْـرِكِينَ عَلَى نِسَـائِهِمْ، وَ أَبَـى الْمُشْـرِكُونَ أَنْ يُقِـرُّوا بِحُكْـمِ اللَّـهِ فِيمَـا أُمِـرُوا مِـنْ أَدَاءِ نَفَقَاتِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى نسائهم»[1].

فـدلَّت الآيـات أنَّ المسـلمين هـم الـذين يجيبـون داعيَّ اللـه ويتحـاكمون إلى شـرع اللـه ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[النـــور:٥١]، والكـافرون والمنـافقون هـم الـذين يصـدُّون عـن ديـن اللـه ويتحـاكمون إلـى الطَّواغيـت كمـا قـال تعـالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾[النساء٥٩] .

❁ **وقال تعالى**: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۞ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[آل عمران ٥٣]، عن محمد بن جعفر بن الزبير: ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾، أي: هكذا كان قولهم وإيمانهم»[2]، أي الإيمان هو الاتباع، وعن مجاهد، في قول الله:﴿ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ ﴾، قال:« من يتبعني إلى الله؟»[3].

فالمسـلمون هـم المؤمنـون بمـا أنـزل اللـه المتبعـون لشـرع اللـه، فوَصْـفُهُم في الآيـة هـو: الإيمـان والاتبـاع لمـا أنـزل اللـه، ولا يكونـوا مسـلمين إلا بـالقول والعمـل جميعـاً، والعمـل هنـا هـو الاتبـاع والانقيـاد، كمـا قـال تعـالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[الأعراف ١٥٧].

---

[1] تفسير البغوي ٧٢/٥

[2] راوه الطبري في تفسيره برقم ٧١٣٠

[3] تفسير الطبري ٣٦٦/٣٢

﴿ وقال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[آل عمران ١١٠]، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، فِي قَوْلِهِ: ﴿ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ قَالَ: «بِالتَّوْحِيدِ﴿ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ قَالَ: عَنِ الشِّرْكِ»[١]، وعن مجاهد في قوله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾:« كنتم خير الناس للناس على هذا الشرط: أن تأمروا بالمعروف، وتنهوا عن المنكر وتؤمنوا بالله، يقول: لمن بين ظهريه، كقوله: ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة الدخان: ٣٢]» [٢]، وعن أبي العالية قال:« كل ما ذكره الله في القرآن من "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، فـ "الأمر بالمعروف"، دعاء من الشرك إلى الإسلام و"النهي عن المنكر"، النهي عن عبادة الأوثان والشياطين»[٣]، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، يَعْنِي قَوْلَهُ: ﴿ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ يَقُولُ: تَأْمُرُونَهُمْ أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إلا الله، والإقرار بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَيُقَاتِلُونَهُمْ عَلَيْهِ، وَلا إِلَهَ إلا لله أَعْظَمُ الْمَعْرُوفِ»[٤].

وفي هذا النصّ وصفُ المسلمين كأمة ـ التي هي خير أمة ـ وشرطها الأمر بالتوحيد والنهي الشرك ويدخل فيه الشرك بالله في العبادة والطاعة، فالأمة المسلمة هي التي تقيم الحاكمية لله في الأرض وبذلك تكون العبادة والطاعة لله وحده، وبها يقوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويكون الدين كله لله.

وبمجموع هذه الأدلة نصل إلى ضبط صفة المسلمين: وهم الذين لا يعبدون إلا الله ولا يشركون به شيئا ولا يتخذون الأرباب في الحكم والتشريع، ويتَّبعون رُسل الله وما أنزل الله وشِرعَة الله، ويأمرون بالمعروف وعلى رأسه التوحيد، وينهون عن المنكر وعلى رأسه الشرك والكفر، ويؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره كما أمر الله، هذه هي صفة المسلمين في كتاب الله، والأقوام اليوم لم يحققوا هذه الأوصاف، فهل لهم اسم الإسلام وهل يكونوا بذلك مسلمين؟! ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم:٣٦].

---

[١] تفسير مجاهد ٢٥٧/١

[٢] رواه الطبري في تفسيره برقم ٧٦١٥

[٣] رواه الطبري برقم ١٦٩٣٨

[٤] رواه ابن ابي حاتم برقم ١٠٤٠٨

الفَصْلُ الثَّالِثُ

قولٌ جامع

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام١٤]، إنَّه أمر الله للمُرسلين أن يكونوا أول المسلمين، مع الأمر لهم بالبراءة من المشركين: ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ وهذا صحيح الإسلام بالاستسلام والانقياد والبراءة، وذكر الله تعالى إجابة أنبيائه في كتابه، فقال عن إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة١٣١]، وعن نوح عليه السلام: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس٧٢]، وعن نبينا محمد ﷺ: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الزمر ١٢] .

وإن كان الأمر بالإسلام لعموم المخاطبين وليس لخصوص الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء ١٧٠]، فأجاب داعيَّ الله أهل السبق والصدق وصفوة الخلق فقال أتباع صالح عليه السلام: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف ٧٥]، وقال الحواريون أتباع عيسى عليه السلام: ﴿ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران ٥٣]، وفي الصحابة رضوان الله عليهم: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة١٠٠].

وأمر الله أنبيائه وعباده المسلمين بالاستقامة على دينه والثبات عليه حتى الممات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران ١٠٢]، وهي

وصية الخليل عليه السلام لعقبه، قال تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[البقرة ١٣٢]، ودعوة الصالحين من عباده: ﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴾[الاعراف١٢٦].

المطلب الأول: سبيل النجاة

إنَّ من أعزِّ الأحوال اليوم أن تحيا مسلماً وتموت مسلماً، فالمستمسك بدينه المُراعي لحرمات ربه المستقيم على أمره المُفاصل للجاهلية قابضٌ على الجمر يُدافع الفتنة بالصبر، في جهاد عظيم مع نفسه والشيطان والجاهلية في حمأة الشرك والكفر، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالقَابِضِ عَلَى الجَمْرِ»[1].

إن فتنةَ مساكنة المشركين تحت هذه الأنظمة الجاهلية التي تجرف الناس في سيلها النجس العرم ـ إلا من رحم الله ـ فتنة عظيمة على دين المسلم وأخلاقه وأهله وذراريه، والنجاة منها أمر عزيز يُبذل فيه الغالي والنفيس، ومفتاح ذلك بالفرار بالدين من الفتن، كما ورد عنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ المُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الجِبَالِ وَمَوَاقِعَ القَطْرِ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الفِتَنِ»[2]، وقال الْفُضَيْلَ بْنَ عِيَاضٍ: «الْزَمُوا فِي آخِرِ الزَّمَانِ الصَّوَامِعَ، يَعْنِي الْبُيُوتَ، فَإِنَّهُ لَيْسَ يَنْجُو مِنْ شَرِّ ذَلِكَ الزَّمَانِ إِلَّا صَفْوَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[3] وقال:

حَتَّى مَتَى لَا نَرَى عَدْلًا نُسَرُّ بِهِ ... وَلَا نَرَى لِدُعَاةِ الْحَقِّ أَعْوَانَا

إنها العزلة: مقام عظيم من مقامات العبودية، تقتضي الانسلاخ من هذه الأقوام المشركة بالله تعالى ومفاصلتها، قال تعالى: ﴿ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴾ [مريم ٤٨]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود١١٣]، وفي الآية دلالة على وجوب هجران أهل المعاصي والكفر، فإن صحبتهم معصية أو كفر، فإن الصحبة

---

[1] رواه الترمذي في سننه برقم ٢٢٦٠ وقال هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ وَعُمَرُ بْنُ شَاكِرٍ شَيْخٌ بَصْرِيٌّ قَدْ رَوَى عَنْهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ.

[2] رواه البخاري برقم ١٩

[3] رواه ابن بطة في الابانة برقم ٧٦١

غالبـــا لا تكـــون إلا عـــن مـــودة، كمـــا قـــال تعـــالى:﴿ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡ ﴾[المجادلـــــــة ٢٢]، وقـــال تعـــالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ ﴾[النســـاء١٤٤]، "يَنْهَى تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ اتِّخَاذِ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، **يَعْنِي مُصَاحَبَتَهُمْ وَمُصَادَقَتَهُمْ وَمُنَاصَحَتَهُمْ وَإِسْرَارَ الْمَوَدَّةِ إِلَيْهِمْ**، وَإِفْشَاء أَحْوَالِ الْمُؤْمِنِينَ الْبَاطِنَةِ إِلَيْهِمْ"[1] فليحـذر المسـلم علـى دينـه أن يـزول وهـو لا يشـعر فـإن كثرة المساس تميت الإحساس.

ومـن المقامـات العظيمـة والمنـازل الرفيعـة بـل هـو الواجـب المتحـتم علـى جميـع المسـلمين في هـذا الزمـان: **الجهـاد لإقامـة ديـن الواحـد الـديان في الأرض**، قـال تعـالى: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴾[الشـورى ١٣]، والجهـاد في سـبيل اللـه أعلـى مراتـب البـراءة مـن المشـركين، قـال تعــــــالى: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ ﴾[الحـج ٧٨]،إنـه طريـق جماعـة المسـلمين: الـدعوة والجهـاد، وهـو طريـق السـابقين الأولـين، وهـو ذات الطريـق الـذي يجـب علـى الصـفوة في هـذا الزمـان سـلوكه وإلا لتبـدد جهـدهم في ضـياع، إنـه الطريـق الأوحـد الـذي لا منـاص مـن مسـارعة الخطى عليـه ولامجـال للوقـوف أو التردد بـين جنبيـه فـإن السـكون دحـض المزلـة ومـزاد المذلـة .....إنـه طريـقٌ مليء بالأشـواك والعثرات يحتـاج إلى قلـوبٍ ثابتـه وخطـوات راسـخة تتجـاوز العقبـات، وسـواعد فتيـة تُزيـل الحـواجز المتراكمـات، وأقـدام تُعبِّـد سـبيلاً مهجـوراً قـد خـيم على جنباتـه دامـس الظُلمـات .... إنـه الطريـق إلى بنـاء حيـاض الجماعـة المسـلمة في غابـة الجاهليـة التي أطبقـت علـى الأرض اليـوم فلـم يَعُـد للمسـلمين فيهـا شـبرٌ ولا نصـيب ... إنـه طريـق الهُـدى الـذي لايستوحشـه أهـل البصـيرة لقلـة السـالكين ولا تغـرنهم سُـبل الغوايـة مـع كثـرة الهـالكين، إنـه طريـق الصـفوة: دعـوة النـاس إلى الإسـلام والجهـاد لإقامـة ديـن اللـه في الأرض.

[1] تفسير بن كثير ٤٤١/٢

الطُّـرُقُ شَـتَّى وَطُـرُقُ الْحَـقِّ مُفْـرَدَةٌ	وَالسَّــالِكُونَ طَرِيــقَ الْحَــقِّ آحَــادُ
لَا يُطْلَبُــونَ وَلَا تُبْغَــى مَــآثِرُهُمْ	فَهُــمْ عَلَــى مَهَــلٍ يَمْشُــونَ قُصَّــادُ
وَالنَّـاسُ فِي غَفْلَـةٍ عَمَّـا يُـرَادُ بِهِـمْ	فَكُلُّهُــمْ عَــنْ طَرِيــقِ الْحَــقِّ حُــوَّادُ

المطلب الثاني: النهي عن الجدال والمراء والخصومات في الدين

واعلم وفقك الله لسلوك سبيل المؤمنين: أن الله نهى عن الجدال والمراء في الدين بقوله: ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾[الزخرف ٥٨]، وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إلاَّ أُوتُوا الجَدَلَ، ثُمَّ تَلاَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾»[١]، وعَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾[البقرة٢٠٤] قَال: «جَدَلٌ بَاطِلٌ»[٢]، وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الأَلَدُّ الخَصِمُ»[٣]، وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ تَرَكَ الكَذِبَ وَهُوَ بَاطِلٌ بُنِيَ لَهُ فِي رَبَضِ الجَنَّةِ، وَمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ مُحِقٌّ بُنِيَ لَهُ فِي وَسَطِهَا، وَمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ بُنِيَ لَهُ فِي أَعْلاَهَا»[٤]، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ ﴾[الأنعام١٥٩]، قَالَ: «أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْجَمَاعَةِ، وَنَهَاهُمْ عَنِ الاخْتِلافِ وَالْفُرْقَةِ، وَأَخْبَرَهُمْ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ بِالْمِرَاءِ وَالْخُصُومَاتِ فِي دَيْنِ اللَّهُ»[٥]، وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ، عن مُسْلِمِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: إِنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «إِيَّاكُمْ وَالْمِرَاءَ، فَإِنَّهَا سَاعَةُ جَهْلِ الْعَالِمِ، وَبِهَا يَبْتَغِي الشَّيْطَانُ زَلَّتَهُ»[٦]، وعَنْ عَمْرِو بْنِ قَيْسٍ قَالَ قُلْتُ لِلْحَكَمِ: مَا اضْطَرَّ الْمُرْجِئَةُ إِلَى رَأْيِهِمْ قَالَ «الْخُصُومَاتُ»[٧].

[١] رواه الترمذي برقم ٣٢٥٣ وقال هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيح.

[٢] رواه الهروي في ذم الكلام برقم ٨٣٥

[٣] رواه البخاري برقم ٢٤٥٧ ومسلم برقم ٢٦٦٨

[٤] رواه الترمذي برقم ١٩٩٣ وقال وَهَذَا الحَدِيثُ حَدِيثٌ حَسَنٌ، لاَ نَعْرِفُهُ إِلاَّ مِنْ حَدِيثِ سَلَمَةَ بْنِ وَرْدَانَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ.

[٥] رواه ابن ابي حاتم برقم ٨١٥٨

[٦] أخرجه الآجري في الشريعة برقم ١١٣

[٧] رواه الهروي في ذم الكلام برقم ٨٤٩

وقال البربهاري: "واعلم - رحمك الله- أنها ما كانت زندقة قط، ولا كفر ولا شك ولا بدعة ولا ضلالة ولا حيرة في الدين إلا من الكلام وأصحاب الكلام والجدل والمراء والخصومة، والعجب وكيف يجترئ الرجل على المراء والخصومة والجدال، والله تعالى يقول: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [غافر ٣] فعليك بالتسليم والرضى بالآثار وأهل الآثار، والكف والسكوت"[١].

وكان مِسْعَر يَقُولُ[٢]

إِنِّي مَنَحْتُكَ يَا كِدَامُ نَصِيحَتِي	فَاسْمَعْ لِقَوْلِ أَبٍ عَلَيْكَ شَفِيقِ
أَمَّا الْمَزَاحَةُ وَالْمِرَاءُ فَدَعْهُمَا	خُلُقَانِ لَا أَرْضَاهُمَا لِصَدِيقِ
إِنِّي بَلَوْتُهُمَا فَلَمْ أَحْمَدْهُمَا	لِمُجَاوِرٍ جَارًا وَلَا لِرَفِيقِ

وبَوَّبَ ابن بطة في كتابه الإبانة الكبرى:" بَابُ تَرْكِ السُّؤَالِ عَمَّا لَا يُغْنِي وَالْبَحْثِ وَالتَّنْقِيرِ عَمَّا لَا يَضُرُّ جَهْلُهُ وَالتَّحْذِيرِ مِنْ قَوْمٍ يَتَعَمَّقُونَ فِي الْمَسَائِلِ وَيَتَعَمَّدُونَ إِدْخَالَ الشُّكُوكِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ قَالَ الشَّيْخُ: " اعْلَمُوا إِخْوَانِي أَنِّي فَكَّرْتُ فِي السَّبَبِ الَّذِي أَخْرَجَ أَقْوَامًا مِنَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَاضْطَرَّهُمْ إِلَى الْبِدْعَةِ وَالشَّنَاعَةِ، وَفَتَحَ بَابَ الْبَلِيَّةِ عَلَى أَفْئِدَتِهِمْ وَحَجَبَ نُورَ الْحَقِّ عَنْ بَصِيرَتِهِمْ، فَوَجَدْتُ ذَلِكَ مِنْ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: الْبَحْثُ وَالتَّنْقِيرُ، وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ عَمَّا لَا يُغْنِي، وَلَا يَضُرُّ الْعَاقِلَ جَهْلُهُ، وَلَا يَنْفَعُ الْمُؤْمِنَ فَهْمُهُ. وَالْآخَرُ: مُجَالَسَةُ مَنْ لَا تُؤْمَنُ فِتْنَتُهُ، وَتُفْسِدُ الْقُلُوبَ صُحْبَتُهُ، وَسَأَذْكُرُ فِي هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ مَا يَكُونُ فِيهِ بَلَاغٌ لِمَنْ قَبِلَ النَّصِيحَةَ، وَكَانَ بِقَلْبِهِ أَدْنَى حَيَاءً إِنْ شَاءَ اللَّهُ "وقال: " اللَّهَ اللَّهَ إِخْوَانِي يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ، وَيَا حَمَلَةَ الْحَدِيثِ لَا تَنْظُرُوا فِيمَا لَا سَبِيلَ لِعُقُولِكُمْ إِلَيْهِ، وَلَا تَسْأَلُوا عَمَّا لَمْ يَتَقَدَّمْكُمْ السَّلَفُ الصَّالِحُ مِنْ عُلَمَائِكُمْ إِلَيْهِ، وَلَا تُكَلِّفُوا أَنْفُسَكُمْ مَا لَا قُوَّةَ بِأَبْدَانِكُمُ الضَّعِيفَةِ، وَلَا تُنَقِّرُوا، وَلَا تَبْحَثُوا عَنْ مَصُونِ الْغَيْبِ، وَمَكْنُونِ الْعُلُومِ، فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ لِلْعُقُولِ غَايَةً تَنْتَهِي إِلَيْهَا، وَنِهَايَةً تُقْصَرُ عِنْدَهَا، فَمَا نَطَقَ بِهِ الْكِتَابُ، وَجَاءَ بِهِ الْأَثَرُ فَقُولُوهُ، وَمَا أَشْكَلَ عَلَيْكُمْ فَكِلُوهُ إِلَى عَالِمِهِ"[٣].

---

[١] شرح السنة للبربهاري ٨٧

[٢] رواه الهروي في ذم الكلام برقم ٩٤٩

[٣] الابانة الكبرى ٤٢٣/١

المطلب الثالث: قطاع الطرق

إنَّ مما عمت به البلوى في هذا الزمان: تَصَّدُرُ علماء السلاطين طواغيت العلم أولياء الشيطان، ـ الذين سبق الحديث عنهم في مقدمة الكتاب ـ فأفسدوا الدين وأقاموا سلطان الباطل المهين وشدُّوا بنيانه حتى أقاموا صرحه المتين، ومثلهم كما روي عَنْ سُفْيَانَ بْنِ سَعِيدٍ الثَّوْرِيِّ أَنَّهُ قِيلَ لِسُفْيَانَ: إِنَّ ابْنَ بِنْتِهِ يَقُولُ:« **سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَجْلِسُ فِي مَسَاجِدِهِمْ شَيَاطِينُ يُعَلِّمُونَهُمْ أَمْرَ دِينِهِمْ**، قَالَ سُفْيَانُ: قَدْ بَلَغَنَا ذَلِكَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّهُ قَالَ: «سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَجْلِسُ فِي مَسَاجِدِهِمْ شَيَاطِينُ كَانَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ قَدْ أَوْثَقَهُمْ فِي الْبَحْرِ يَخْرُجُونَ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ أَمْرَ دِينِهِمْ»، قَالَ سُفْيَانُ: بَقِيَتْ أُمُورٌ عِظَامٌ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ وَضَّاحٍ: قَالَ زُهَيْرُ بْنُ عَبَّادٍ: يَعْنِي سُفْيَانَ: **يُعَلِّمُونَ** النَّاسَ فَيُدْخِلُونَ فِي خِلَالِ ذَلِكَ الْأَهْوَاءَ الْمُحْدَثَةَ، **فَيُحِلُّونَ لَهُمُ الْحَرَامَ** وَيُشَكِّكُونَهُمْ فِي الْفَضْلِ وَالصَّبْرِ وَالسُّنَّةِ وَيُبْطِلُونَ فَضْلَ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا وَيَأْمُرُونَهُمْ بِالْإِقْبَالِ عَلَى طَلَبِ الدُّنْيَا وَهِيَ رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ"[1]، وعن عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ مَكْحُولًا يَقُولُ: «إِنَّهُ لَا يَأْتِي عَلَى النَّاسِ مَا يُوعَدُونَ حَتَّى يَكُونَ عَالِمُهُمْ فِيهِمْ أَنْتَنَ مِنْ جِيفَةِ حِمَارٍ»[2]، وكذلك علماء هذا الزمان إلا من رحم الله.

وفي المقابل قد تكلم في دين الله تعالى من هب ودرج ـ مع تيسر سُبل التواصل وكثرت المنابر في هذا الزمان ـ فتَصَّدَر النكرات الأغمار فأُخذ العلم عن الشرار الصغار، فاجتهدوا في توليد المسائل وتفريعها والخوض في المغاليط وشرارها، فاختلفوا وساءت أخلاقهم حتى خفت صوتهم وانفضَّ الناس من حولهم واندثروا وذهب ريحهم، بعد أن تشوهت على أيديهم صورة الدعوة الصحيحة بقبيح جهلهم و سوء أخلاقهم، واتبعوا سبيل من قبلهم فبحثوا ونقَّروا حتى تاهوا وتحيَّروا، قَالَ سَالِمِ بْنِ أَبِي حَفْصَةَ:«إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ بَحَثُوا، وَنَقَّرُوا حَتَّى تَاهُوا»[3]، وحالهم كما قال يحي بن معاذ الرازي :«وَالطَّبَقَةُ الرَّابِعَةُ: فَهُمُ الْمُتَعَمِّقُونَ فِي الدِّينِ الَّذِينَ يَتَكَلَّمُونَ فِي الْعُقُولِ، وَيَحْمِلُونَ النَّاسَ عَلَى قِيَاسِ أَفْهَامِهِمْ، قَدْ بَلَغَ مِنْ فِتْنَةِ أَحَدِهِمْ، وَتَمَكُّنِ الشَّكِّ مِنْ قَلْبِهِ، أَنَّكَ تَرَاهُ يَحْتَجُّ عَلَى خَصْمِهِ بِحُجَّةٍ قَدْ خَصَمَهُ بِهَا، وَهُوَ نَفْسُهُ مِنْ تِلْكَ الْحُجَّةِ فِي شَكٍّ، لَيْسَ يَعْتَقِدُهَا، وَلَا

---

[1] البدع لابن الوضاح برقم ٢٣٥

[2] أخلاق العلماء لآجري ٨٨/١

[3] الابانة الكبرى برقم ٣٠٩

يَجْهَلُ ضَعْفَهَا، وَلَا دِيَانَةَ لَهُ فِيهَا، إِنْ عُرِضَتْ لَهُ مِنْ غَيْرِهِ حُجَّةٌ هِيَ أَلْطَفُ مِنْهَا انْتَقَلَ إِلَيْهَا فَدِينُهُ مَحْمُولٌ عَلَى سَفِينَةِ الْفِتَنِ يَسِيرُ بِهَا فِي بُحُورِ الْمَهَالِكِ يَسُوقُهَا الْخَطَرُ، وَيَسُوسُهَا الْحِيرَةُ..... فَكَفَى بِهِمْ خِزْيًا سُقُوطُهُمْ مِنْ عُيُونِ الصَّالِحِينَ، يُقْتَصَرُ فِيهِمْ عَلَى مَا قَدْ لَزِمَهُمْ فِي الْأُمَّةِ مِنْ قَالَةِ السُّوءِ، وَأُلْبِسُوا مِنْ أَثْوَابِ التُّهَمَةِ، وَاسْتَوْحَشَ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ، وَنَهَى عَنْ مُجَالَسَتِهِمُ الْعُلَمَاءُ، وَكَرِهَتْهُمُ الْحُكَمَاءُ، وَاسْتَنْكَرَتْهُمُ الْأُدَبَاءُ، وَقَامَتْ مِنْهُمْ فِرَاسَةُ الْبُصَرَاءِ، شَكَّاكُونَ جَاهِلُونَ، وَوَسْوَاسُونَ مُتَحَيِّرُونَ، فَإِذَا رَأَيْتَ الْمُرِيدَ يُطِيفُ بِنَاحِيَتِهِمْ فَاغْسِلْ يَدَكَ مِنْهُ، وَلَا تُجَالِسْهُ»[١].

وليس كل من تكلم في مسألة أو أثار معضلة يُلتفت إليه ويُنظر في قوله أو يُناظر عليه، بل السنة في أمثالهم أن يُعلَى بجريدِ النخل والنعال على رأسه حتى يذهب الذي فيه من شبهات ووساوس وأهواء، سنة عمر رضي الله عنه في صبيغ بن عسل[٢]، قال الخلال:" وَلَيْسَ يَنْبَغِي لِأَهْلِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ أَنْ يَكُونُوا كُلَّمَا تَكَلَّمَ جَاهِلٌ بِجَهْلِهِ أَنْ يُجِيبُوهُ، وَيُحَاجُّوهُ، وَيُنَاظِرُوهُ، فَيُشْرِكُوهُ فِي مَأْثَمِهِ، وَيَخُوضُوا مَعَهُ فِي بَحْرِ خَطَايَاهُ، وَلَوْ شَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَنْ يُنَاظِرَ صَبِيغًا، وَيَجْمَعَ لَهُ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى يُنَاظِرُوهُ، وَيُحَاجُّوهُ، وَيَبِينُوا عَلَيْهِ لَفَعَلَ، وَلَكِنَّهُ قَمَعَ جَهْلَهُ، وَأَوْجَعَ ضَرْبَهُ، وَنَفَاهُ فِي جِلْدِهِ، وَتَرَكَهُ يَتَغَصَّصُ بِرِيقِهِ، وَيَنْقَطِعُ قَلْبُهُ حَسْرَةً بَيْنَ ظَهْرَانَيِ النَّاسِ مَطْرُودًا، مَنْفِيًّا، مُشَرَّدًا، لَا يُكَلَّمُ وَلَا يُجَالَسُ، وَلَا يُشْفَى بِالْحُجَّةِ وَالنَّظَرِ، بَلْ تَرَكَهُ يَخْتَنِقُ عَلَى حِرَّتِهِ، وَلَمْ يُبَلِّغْهُ رِيقَهُ، وَمَنَعَ النَّاسَ مِنْ كَلَامِهِ وَمُجَالَسَتِهِ، فَهَكَذَا حُكْمُ كُلِّ مَنْ شَرَعَ فِي دِينِ اللَّهِ بِمَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ، أَنْ يُخْبِرَ أَنَّهُ عَلَى بِدْعَةٍ وَضَلَالَةٍ، فَيُحَذِّرُ مِنْهُ وَيَنْهَى عَنْ كَلَامِهِ وَمُجَالَسَتِهِ"[٣].

---

[١] الابانة الكبرى برقم ٣٠٩

[٢] عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ: أَنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي تَمِيمٍ يُقَالُ لَهُ: صَبِيغُ بْنُ عَسَلٍ، قَدِمَ الْمَدِينَةَ، وَكَانَتْ عِنْدَهُ كُتُبٌ، فَجَعَلَ يَسْأَلُ عَنْ مُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَبَعَثَ إِلَيْهِ وَقَدْ أَعَدَّ لَهُ عَرَاجِينَ النَّخْلِ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ جَلَسَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: أَنَا عَبْدُ اللَّهِ صَبِيغٌ فَقَالَ عُمَرُ: وَأَنَا عَبْدُ اللَّهِ عُمَرُ، ثُمَّ أَهْوَى إِلَيْهِ فَجَعَلَ يَضْرِبُهُ بِتِلْكَ الْعَرَاجِينِ، فَمَا زَالَ يَضْرِبُهُ حَتَّى شَجَّهُ، فَجَعَلَ الدَّمُ يَسِيلُ عَلَى وَجْهِهِ، فَقَالَ: حَسْبُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَدْ وَاللَّهِ ذَهَبَ الَّذِي كُنْتُ أَجِدُ فِي رَأْسِي قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ: فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَمَنْ يَسْأَلُ عَنْ تَفْسِيرِ ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ﴾[الذاريات: ٢] اسْتَحَقَّ الضَّرْبَ، وَالتَّنْكِيلَ بِهِ وَالْهِجْرَةَ قِيلَ لَهُ: لَمْ يَكُنْ ضَرْبُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَهُ بِسَبَبٍ عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، وَلَكِنْ لَمَّا تَأَدَّى إِلَى عُمَرَ مَا كَانَ يَسْأَلُ عَنْهُ مِنْ مُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَرَاهُ عَلِمَ أَنَّهُ مَفْتُونٌ، قَدْ شَغَلَ نَفْسَهُ بِمَا لَا يَعُودُ عَلَيْهِ نَفْعُهُ، وَعَلِمَ أَنَّ اشْتِغَالَهُ بِطَلَبِ عِلْمِ الْوَاجِبَاتِ مِنْ عِلْمِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ أَوْلَى بِهِ ، وَتَطَلُّبُ عِلْمِ سُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْلَى بِهِ، فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ مُقْبِلٌ عَلَى مَا لَا يَنْفَعُهُ، سَأَلَ عُمَرُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُمَكِّنَهُ مِنْهُ، حَتَّى يُنَكِّلَ بِهِ، وحَتَّى: يُحَذِّرُ غَيْرَهُ؛ لِأَنَّهُ رَاعٍ يَجِبُ عَلَيْهِ تَفَقُّدُ رَعِيَّتِهِ فِي هَذَا وَفِي غَيْرِهِ، فَأَمْكَنَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ وَقَدْ قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَيَكُونُ أَقْوَامٌ يُجَادِلُونَكُمْ بِمُتَشَابَهِ الْقُرْآنِ فَخُذُوهُمْ بِالسُّنَنِ، فَإِنَّ أَصْحَابَ السُّنَنِ أَعْلَمُ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى" الشريعة للآجري برقم ١٥٣

[٣] السنة للخلال ٢٢٣/١

وروى الخلال قال: أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ الْمَرُّوذِيُّ، فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، لَمَّا أَنْكَرَ عَلَى الَّذِي قَالَ: لَمْ يُجْبِرْ، وَعَلَى مَنْ رَدَّ عَلَيْهِ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: كُلَّمَا ابْتَدَعَ رَجُلٌ بِدْعَةً اتَّسَعُوا فِي جَوَابِهَا، وَقَالَ: يَسْتَغْفِرُ رَبَّهُ الَّذِي رَدَّ عَلَيْهِمْ بِمُحْدَثَةٍ، وَأَنْكَرَ عَلَى مَنْ رَدَّ بِشَيْءٍ مِنْ جِنْسِ الْكَلَامِ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهَا إِمَامٌ تَقَدَّمَ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْمَرُّوذِيُّ: فَمَا كَانَ بِأَسْرَعَ مِنْ أَنْ قَدِمَ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ مِنْ عُكْبَرَا، وَمَعَهُ شِيَخَةٌ، وَكِتَابٌ مِنْ أَهْلِ عُكْبَرا، فَأَدْخَلْتُ أَحْمَدَ بْنَ عَلِيٍّ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، هُوَ ذَا الْكِتَابُ، ادْفَعْهُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ حَتَّى يُقَطِّعَهُ، وَأَنَا أَقُومُ عَلَى مِنْبَرِ عُكْبَرَا وَاسْتَغْفَرَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ. فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ لِي: يَنْبَغِي أَنْ تَقْبَلُوا وَتَرْجِعُوا لَهُ"[1].

وقد انحرف كثير من المنتسبين إلى هذه الدعوة عن هذا المنهج القويم وزلت بهم القدم إلى الريب والشكوك وكثرة التنقل، ومن أسباب ذلك اتخاذ رؤوس الجهالة ومنابع الضلالة كما ورد عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»[2]، وفي الحديث دلالة على أنَّ الناس يؤتون من قبل الجهال إذا أفتوهم ولبَّسوا عليهم، ولا يؤتون من قبل العلماء العاملين، وسُئِلَ ابْنَ الْمُبَارَكِ: «هَلْ لِلْعُلَمَاءِ عَلَامَةٌ يُعْرَفُونَ بِهَا؟ قَالَ:« عَلامَةُ الْعَالِمُ مَنْ عَمِلَ بِعِلْمِهِ وَاسْتَقَلَّ كَثِيرَ الْعَمَلِ مِنْ نَفْسِهِ وَرَغِبَ فِي عِلْمِ غَيْرِهِ وَقَبِلَ الْحَقَّ مِنْ كُلِّ مَنْ أَتَاهُ بِهِ وَأَخَذَ الْعِلْمَ حَيْثُ وَجَدَهُ فَهَذِهِ عَلامَةُ الْعَالِمِ وَصِفَتُهُ»[3]، فتفرقوا شذر مذر كل حزب بما لديهم فرحون كما قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ ﴾[الأنعام١٥٩]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، فِي قَوْلِهِ: :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ ﴾، قَالَ: «هُمْ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، أَوْ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ»[4]، وعن عمرو أَنَّهُ سَمِعَ عَلِيًّا قَرَأَ عِنْدَهُ رَجُلٌ الَّتِي فِي الأَنْعَامِ: ﴿ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ ﴾، فَقَالَ عَلِيٌّ:« لا مَا فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ

[1] رواه الخلال في السنة برقم ٩٢٦

[2] رواه البخاري برقم ١٠٠ ومسلم برقم ٢٦٧٣

[3] طبقات الحنابلة ٢م١٥٠

[4] رواه ابن أبي حاتم برقم ٥١٨١

فـارقوا ديـنهم»[١]، وعَـنْ عَطَـاءِ بْـنِ أَبِـي رَبَـاحٍ فِي قَوْلِـهِ:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ ﴾ قَـالَ:« هُـمْ أَصْحَابُ الْخُصُومَاتِ والمراء في دين الله»[٢].

والمتقـرر أن جميـع مـا يحتاجـه المسـلمون في ديـنهم قـد بينـه اللـه في كتابـه ورسـوله ﷺ فـي سـنته، قـال تعـالى:﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعـام ٣٨] ، وفـي الحـديث عـن أبـي هريـرة قـال: قـال رسـول اللـه ﷺ: «مَـا نَهَيْـتُكُمْ عَنْـهُ فَـاجْتَنِبُوهُ وَمَـا أَمَـرْتُكُمْ بِـهِ فَـافْعَلُوا مِنْـهُ مَـا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ»[٣].

والـذي يتعـين على المسـلم الاعتنـاء بـه هـو مـا جـاء عـن اللـه ورسـوله ﷺ والاجتهـاد في فهـم ذلـك والوقـوف على معانيـه والعلـم والعمـل بـه، وأمـا توليـد المسـائل الكلاميـة وإثارتهـا بـين الحـديثي عهـد بإسـلام، بـاب شـرٍ عظـيم لمـا فيـه مـن كثـرة الخصـومات وافـتراق القلـوب والتحزبـات، ومـا يترتـب على ذلـك مـن الشـحناء والبغضـاء وتبـادل التكفير على طريقـة أهـل البـدع والضـلالة، ومـا يقـترن بـذلك مـن نيـة المغالبـة وطلـب العُلـو ولفـت الوجـوه وكثـرة المتابعـة على منـابر الضـلالة، وكلهـا قـوادح في النيـات واللـه المسـتعان، قَـالَ الْحَسَـنُ: «شِـرَارُ عِبَـادِ اللَّـهِ الَّـذِينَ يَتَّبِعُـونَ شِـرَارَ الْمَسَـائِلِ يُعْمُـونَ بِهَـا عِبَـادَ اللَّـه»[٤]. "وَقَـالَ الْأَوْزَاعِيُّ: «إِنَّ اللَّـهَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُحْـرِمَ عَبْـدَهُ بَرَكَـةَ الْعِلْـمِ، أَلْقَـى عَلَى لِسَـانِهِ الْمَغَـالِيطَ. فَلَقَـدْ رَأَيْـتُهُمْ أَقَـلَّ النَّـاسِ عِلْمًـا»، وَقَـالَ ابْـنُ وَهْـبٍ، عَـنْ مَالِـكٍ: «أَدْرَكْـتُ هَـذِهِ الْبَلْـدَةَ، وَإِنَّهُـمْ لَيَكْرَهُـونَ الْإِكْثَـارَ الَّـذِي فِيـهِ النَّـاسُ الْيَـوْمَ. يُرِيـدُ الْمَسَـائِلَ. وَقَـالَ أَيْضًـا: سَـمِعْتُ مَالِكًـا وَهُـوَ يَعِيـبُ كَثْرَةَ الْكَلَامِ وَكَثْرَةَ الْفُتْيَا، ثُمَّ قَالَ: «يَتَكَلَّمُ كَأَنَّهُ جَمَلٌ مُغْتَلِمٌ يَقُولُ: هُوَ كَذَا، هُوَ كَذَا يَهْدِرُ فِي كَلَامِهِ»[٥].

ويـزداد الأمـر شـناعةً والخائضـون فيـه انحرافـاً عـن مـنهج السـلف إذا كانـت المسـائل تُطـرح على طريقـة أهـل الكـلام وأصـولهم وتُحَكَّـمُ فيهـا العقـول ويُحَـادُ فيهـا عـن المنقـول، كمـا هـو حـال الكثير مـن المعرفـات النكـرات التي تصـرف همـم النـاس وأنظـارهم إلى مسـائل عقليـة كلاميـة، فيُنَفِّـرُون عـن هـذه الـدعوة ويصـرفون النـاس عنهـا بمـا أحـدثوه وتنـازعوا فيـه، فكـان كلامهـم نصـرةً لمقـالهم وعـزةً لأنفسـهم وطلبـاً للرياسـة على غيرهم،

[١] رواه ابن أبي حاتم برقم ٥١٨٢

[٢] رواه الهروي في ذم الكلام برقم ٧٦٧

[٣] رواه مسلم في صحيحه برقه ١٣٠

[٤] الابانة الكبرى برقم ٣٠٤

[٥] جامع العلوم والحكم ٢٤٧/١

فعن عبد الله بن مبارك قال: قيل لحمدون بن أحمد: «ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا، قال: لأنهم تكلموا لعز الإسلام ونجاة النفوس ورضا الرحمن، ونحن نتكلم لعز النفوس وطلب الدنيا ورضا الخلق»[١].

والنجاة من ذلك كله ما قاله ابن بطة : "وعَلَامَةُ مَنْ أَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا، وَكَانَ مِمَّنْ سَبَقَتْ لَهُ مِنْ مَوْلَاهُ الْكَرِيمِ عِنَايَةٌ أَنْ يُفْتَحَ لَهُ بَابُ الدُّعَاءِ بِاللَّجَاءِ وَالِافْتِقَارِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالسَّلَامَةِ وَالنَّجَا، وَيُهَبُ لَهُ الصَّمْتُ إِلَّا بِمَا لِلَّهِ فِيهِ رِضًى وَلِدِينِهِ فِيهِ صَلَاحٌ، وَأَنْ يَكُونَ حَافِظًا لِلِسَانِهِ عَارِفًا بِأَهْلِ زَمَانِهِ مُقْبِلًا عَلَى شَأْنِهِ قَدْ تَرَكَ الْخَوْضَ وَالْكَلَامَ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ، وَالْمَسْأَلَةَ وَالْإِخْبَارَ بِمَا لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ هَلَاكُهُ، لَا يُحِبُّ إِلَّا لِلَّهِ وَلَا يُبْغِضُ إِلَّا لِلَّهِ، فَإِنَّ هَذِهِ الْفِتَنَ وَالْأَهْوَاءَ قَدْ فَضَحَتْ خَلْقًا كَثِيرًا وَكَشَفَتْ أَسْتَارَهُمْ عَنْ أَحْوَالٍ قَبِيحَةٍ، فَإِنَّ أَصْوَنَ النَّاسِ لِنَفْسِهِ أَحْفَظُهُمْ لِلِسَانِهِ وَأَشْغَلُهُمْ بِدِينِهِ وَأَتْرَكُهُمْ لِمَا لَا يَعْنِيهِ"[٢].

والسلامة لدين المرء المسلم عدم النظر فيما يهرفون والإعراض عما فيه يخوضون، وهجر منابرهم ومجالسهم والتحذير من بدعهم وأعيانهم، قال تعالى:﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام ٦٨] ، عَنِ ابْنِ عَوْنٍ قَالَ:« كَانَ مُحَمَّدٌ يَرَى أَنَّ أَسْرَعَ النَّاسِ رِدَّةً أَهْلُ الْأَهْوَاءِ، وَكَانَ يَرَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ أُنْزِلَتْ فِيهِمْ :﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾»[٣]، وعَنْ أَبِي قِلَابَةَ قَالَ: «لَا تُجَالِسُوا أَصْحَابَ الْأَهْوَاءِ، فَإِنِّي لَا آمَنُ أَنْ يَغْمِسُوكُمْ فِي ضَلَالَتِهِمْ أَوْ يَلْبِسُوا عَلَيْكُمْ بَعْضَ مَا تَعْرِفُونَ»[٤].

المطلب الرابع: لزوم غرز الصحابة والتابعين لهم بإحسان

واعلم هداك الله لما يحبه ويرضاه: أن النجاة في لزوم غرز الصحابة الكرام، الرعيل الأول الذين شقّوا طريق الحقِ والهداية والخيرية، فكان لهم فضل السبق الذي لا يداينه فضل ونالوا شرف صحبتهم رسول الله ﷺ فلا يدانيه شرف، وبذلوا نفوسهم

[١] صفة الصفوة ٣١٤/٢

[٢] الابانة الكبرى ٥٩٦/٢

[٣] روا ابن بطة في الابانة الكبرى برقم ٣٥٣ وعند الهروي بسنده :" قَالَ «كَانَ رَأْيُ مُحَمَّدٍ يَعْنِي ابْنَ سِيرِينَ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْأَهْوَاءِ» ذم الكلام برقم ٧٥٩

[٤] رواه ابن بطة في الابانة الكبرى برقم ٣٦٤

وأرواحهم رخيصة دفاعاً عن رسول الله ﷺ ونصرةً لدينه ورغبة فيما عند الله من فسيح جنانه، قال تعالى:﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾[الفتح ٢٩]، وقد خصّ اللهُ تعالى الصّحابةَ رضي اللهُ عنهم بتوقُّدِ الأذهانِ وفصاحةِ اللّسانِ، فالعربيّةُ طبيعتُهم وسليقتُهم، والمعاني الصّحيحةُ مركوزةٌ في فِطَرِهم وعقولِهم، شهدوا التّنزيلَ وعرفوا التّأويلَ ووقفوا مِن أحوالِ النّبيّ ﷺ ومرادِه من كلامِه على ما لم يقفْ عليه غيرُهم، فكانوا أبرَّ الأمّةِ قلوبًا وأعمقَهم علمًا وأقلَّهم تكلُّفًا، وقد أثنى اللهُ عليهم بقولِه سبحانَه: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [آل عمران ١١٠]، ومن النصوص الواردة في فضل الصحابة ووجوب اتباع سبيلهم:

❀ قال تعالى:﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة ١٠٠] عَنْ أَبِي مُوسَى أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَوْلُهُ تَعَالَى: :﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ قَالَ: «هُمُ الَّذِينَ صَلُّوا الْقِبْلَتَيْنِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»[١]، وعَنْ عَامِرٍ : «مَنْ أَدْرَكَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ- وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ سِيرِينَ: مِثْلُ ذَلِكَ»[٢]، وعَنِ الْأَوْزَاعِيِّ قَالَ: «وَمَا رَأْيِ امرئ فِي أَمْرٍ بَلَغَهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا اتِّبَاعُهُ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ فِيهِ أَصْحَابُهُ مِنْ بَعْدِهِ **كَانُوا أَوْلَى فِيهِ بِالحَقِّ مِنَّا لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَثْنَى عَلَى مَنْ بَعْدَهُمْ بْاتِّبَاعِهِمْ إِيَّاهُمْ** فَقَالَ ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾وَقُلْتُمْ أَنْتُمْ لَا بَلْ نَعْرِضُهَا عَلَى رَأْيِنَا فِي الْكِتَابِ فَمَا وَافَقَهُ مِنْهَا صَدَّقْنَاهُ وَمَا خَالَفَهُ تَرَكْنَاهُ وَتِلْكَ غَايَةُ كُلِّ مُحْدِثٍ فِي الْإِسْلَامِ رَدُّ مَا خَالَفَ رَأْيَهُ مِنَ السُّنَّةِ»[٣].

---

[١] رواه ابن أبي حاتم برقم ١٠٣٠٠

[٢] رواه ابن أبي حاتم برقم ١٠٣٠٢

[٣] رواه الهروي في ذم الكلام برقم ٩١١

واحتج الإمام مالك بهذه الآية على وجوب اتباع الصحابة رضوان الله عليهم[1]، فرضيَ الله عمن اتبع السابقين الأولين إلى يوم القيامة فدل على أنَّ مُتابِعهم عَاملٌ بما يرضى الله والله لا يرضى لعباده إلا بالحق، ولا يرضى لعباده اتباع بالباطل، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ ﴾[الزمر ٧].

وقال البغوي:" قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ﴾، الَّذِينَ هَاجَرُوا قَوْمَهُمْ وَعَشِيرَتَهُمْ وَفَارَقُوا أَوْطَانَهُمْ، ﴿وَٱلۡأَنصَارِ ﴾ أَيْ: وَمِنَ الْأَنْصَارِ، وَهُمُ الَّذِينَ نَصَرُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَعْدَائِهِ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَآوَوْا أَصْحَابَهُ،﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٍ﴾، قيل: بَقِيَّةُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ سِوَى السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ.
وَقِيلَ: هُمُ الَّذِينَ سَلَكُوا سَبِيلَهُمْ فِي الْإِيمَانِ وَالْهِجْرَةِ أَوِ النُّصْرَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.
وَقَالَ عَطَاءٌ: هُمُ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ بِالتَّرَحُّمِ وَالدُّعَاءِ.
وَقَالَ أَبُو صَخْرٍ حُمَيْدُ بْنُ زِيَادٍ: «أَتَيْتُ مُحَمَّدَ بْنَ كَعْبٍ الْقُرَظِيَّ فَقُلْتُ لَهُ: مَا قَوْلُكَ فِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ: جَمِيعُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْجَنَّةِ مُحْسِنُهُمْ وَمُسِيئُهُمْ، فَقُلْتُ: مِنْ أَيْنَ تَقُولُ هَذَا؟ فَقَالَ: اقْرَأْ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، إِلَى أَنْ قَالَ: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، وَقَالَ: وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ، **شَرَطَ فِي التَّابِعَيْنِ شَرِيطَةً وَهِيَ أَنْ يَتْبَعُوهُمْ فِي أَفْعَالِهِمُ الْحَسَنَةِ** دُونَ السَّيِّئَةِ. قَالَ أَبُو صَخْرٍ: فَكَأَنِّي لَمْ أَقْرَأْ هَذِهِ الآية قط»[2].

❁ وقال تعالى: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾[البقرة١٣٧]، قَالَ الزّجاج: "مَعْنَاهُ فَإِن أَتَوا بِإِيمَان كإيمانكم، وتصديق كتصديقكم، وتوحيد كتوحيدكم، وَقَالَ أَبُو معَاذ النَّحْوِيّ: مَعْنَاهُ فَإِن آمنُوا بِكِتَابِكُمْ كَمَا آمنتم بِكِتَابِهِمْ"[3].

❁ وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾[الأنفال٧٤]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا

---

[1] انظر إعلام الموقعين ١٢٣/٤

[2] تفسير البغوي ٣٨٢/٢

[3] تفسير السمعاني ١٤٦/١

قَرِيبًا ﴾[الفتح ١٨]، وقال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[التوبة١١٧]، ونحو هذه الآيات التي فيها تسطير الرضا وأنهم كانوا على الهدى وفيها أعظم المدح والثناء، وهذا كله تنبيه للأمة على صحة مسلكهم ووضوح منهجهم والأمر باتباع آثارهم، وأن فهمهم هو الفهم الصحيح، وما سواه مما عارضه من أقوال المتأخرين هو فهم سقيم عاطل ورأي باطل، ولأن هذا المدح والثناء دليل على أن ما كانوا عليه من العقيدة والعمل هو الحق وماذا بعد الحق إلا الضلال، فمن كان على مثل ما كانوا عليه من العلم والهدى ودين الحق فقد فاز وأفلح ودخل في هذا الثناء العاطر ومن خالف فهو الشقي الخاسر .

❁ وقوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النِّسَاءِ:٥٩]، عَنِ الضَّحَّاكِ قَوْلَهُ: ﴿ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ قَالَ: «هُمْ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، هُمُ الدُّعَاةُ الرُّوَاةُ»[١].

❁وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾[النمل٥٩]، قال ابن عباس: «هم أصحاب محمد ﷺ»[٢].

❁ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[التوبة ١١٩]، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ نَافِعٍ ابن عُمَرَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ قَالَ: «مَعَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَصْحَابِهِ»[٣].

❁ وقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾[لقمان١٥]، والصحابة مُنيبون إلى الله تعالى فيجب اتباع سبيلهم ، وأقوالهم واعتقاداتهم هو سبيلهم، والدليل على أنهم منيبون إلى الله تعالى قوله تعالى: ﴿ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾[الشورى١٣]، والصحابة أكمل الأمة هداية فلا كان ولا يكون بعدهم أحد مثلهم.

[١] رواه ابن أبي حاتم برقم ٥٥٣٩

[٢] تفسير ابن كثير ٣/٣٨١، فتح القدير ٤/١٤٨

[٣] رواه ابن ابي حاتم برقم ١٠٠٩٧

ومــن محاســن الاتبــاع: الوقــوف فيمــا وقــف فيــه الصحابة والتــابعين لهــم بإحســان، والامســاك عمــا نهــو عــن الخــوض فيــه: كالقــدر وأطفــال المشــركين ومــا شــجر بــين أصحاب النبي ﷺ كما جاءت به الآثار ومنها:

❁ عــن أَبِـي هُرَيْــرَةَ رَضِـيَ اللَّــهُ عَنْــهُ، يَقُــولُ: سُــئِلَ النَّبِـيُّ ﷺ عَــنْ ذَرَارِيِّ المُشْــرِكِينَ، فَقَــالَ: «اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ»[1].

❁ وعــن أَبِـي رَجَــاءٍ الْعُطَــارِدِيُّ، يَقُــولُ: سَــمِعْتُ ابْــنَ عَبَّــاسٍ رَضِـيَ اللَّــهُ عَنْهُمَــا، يَقُــولُ: قَــالَ رَسُــولُ اللَّــهِ ﷺ: «لَا يَــزَالُ أَمْــرُ هَــذِهِ الْأُمَّــةِ مُــؤَامِرًا - أَوْ قَــالَ مُقَارِبًــا - مَــا لَــمْ يَتَكَلَّمُــوا فِي الْوِلْـدَانِ وَالْقَدَرِ»"[2]قَالَ أَبُو حَاتِمٍ: «الْوِلْدَانُ أَرَادَ بِهِ أَطْفَالَ الْمُشْرِكِينَ»[3].

❁ وقَــالَ يَحْيَــى بْــنُ آدَمَ: «قَــدْ ذَكَرْتُــهُ لِابْــنِ الْمُبَــارَكِ فَقَــالَ أَفَيَسْــكُتُ الْإِنْسَــانُ عَلَــى الْجَهْــلِ قُلْتُ فَتَأْمُرُ بِالْكَلَامِ فَسَكَتَ»[4].

❁ وَذَكَــرَ الْمَــرْوَزِيُّ قَــالَ حَــدَّثَنَا عَمْــرُو بْــنُ زُرَارَةَ قَــالَ أَخْبَرَنَــا إِسْــمَاعِيلُ عَــنِ ابْــنِ عَــوْنٍ قَــالَ كُنْــتُ عِنْــدَ الْقَاسِــمِ بْــنِ مُحَمَّــدٍ إِذْ جَــاءَهُ رَجُــلٌ فَقَــالَ مَــاذَا كَــانَ بَــيْنَ قَتَــادَةَ وَبَــيْنَ حَفْــصِ بْــنِ عُمَيْرٍ فِي أَوْلَادِ الْمُشْــرِكِينَ قَــالَ: أو تكلــم رَبِيعَــةُ الــرَّأْيَ فِي ذَلِــكَ فَقَــالَ الْقَاسِــمُ:« إِذَا اللَّــهُ انْتَهَــى عِنْدَ شَيْءٍ فَانْتَهُوا وَقِفُوا عِنْدَهُ قَالَ فَكَأَنَّمَا كَانَتْ نَارًا فَأُطْفِئَتْ»[5].

❁ وعَــنْ مَيْمُــونِ بْــنِ مِهْــرَانَ قَــالَ: «ثَــلَاثٌ ارْفُضُــوهُنَّ: مَــا شَــجَرَ بَــيْنَ أَصْحَابِ رَسُــولِ اللَّــهِ ﷺ وَالنُّجُومُ وَالنَّظَرُ فِي الْقَدَرِ»[6].

وقــال الإمــام أحمــد رحمــه اللــه:" ومــن الســنَّة ذكــرُ محاســن أصحاب رســول اللــه ﷺ كلِّهــم أجمعــين، والكــفّ عــن الــذي جــرى بيــنهم، فمَــن ســبَّ أصحابَ رســول اللــه ﷺ أو وأحــداً

[1] رواه البخاري برقم ١٣٨٤ ومسلم برقم ٢٦٥٩

[2] رواه الحاكم في المستدرك برقم ٩٣ «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَا نَعْلَمُ لَهُ عِلَّةً وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ» قال الذهبي على شرطهما ولا علة له

[3] صحيح ابن حبان ١١٩/١٥

[4] التمهيد ١٣١/١٨

[5] التمهيد ١٣٢/١٨

[6] رواه ابن بطة في الابانة الكبرى برقم ١٢٨١

منهم فهو مبتدعٌ رافضيٌّ، حبُّهم سنَّةٌ والدعاءُ لهم قربةٌ والاقتداءُ بهم وسيلةٌ والأخذُ بآثارهم فضيلةٌ"[1].

وقال ابن أبي زيد القيرواني:" وأنَّ خيرَ القرون القرنُ الذين رأوا رسولَ الله ﷺ وآمنوا به، ثمَّ الذين يلونهم، ثمَّ الذين يلونهم، وأفضل الصحابة الخلفاءُ الراشدون المهديّون: أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم عليّ رضي الله عنهم أجمعين، وأن لا يُذكر أحدٌ من صحابة الرسول ﷺ إلاَّ بأحسن ذكرٍ، والإمساك عمَّا شجر بينهم، وأنَّهم أحقُّ الناس أن يُلتمس لهم أحسن المخارج، ويُظنَّ بهم أحسنَ المذاهب"[2]

وقال أبو زرعة الرازي:" إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول ﷺ حق، والقرآن الكريم حق، وما جاء به حق، وإنما أدى إلينا ذلك كله الصحابة، وهؤلاء يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى وهم زنادقة "[3].

واعلم أن من الطوائف الضالة: طائفة شذت عن منهج الصحابة رضوان الله عليهم، وحملت معول هدم الدين بالطعن في فهوم نقلة هدي النبي الأمين ﷺ، فخرجت على أقوالهم وهديهم وطعنت في وفاقهم وإجماعهم، ونصَّبت الجهلة أئمة دونهم، قال أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: "أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والاقتداء بهم"[4].

والطعن في إجماع الصحابة والخروج على قولهم أو عملهم هو سبيل أهل البدع من الخوارج والنظامية والمعتزلة والرافضة والجهمية الذين خرجوا على فهومهم وجماعتهم وأحدثوا في دين الله مقالات وأعمال فارقوا بها جماعة المسلمين، قال ابن عباس للخوارج حين ناظرهم: «جئتكم من عند أصحاب رسول الله ﷺ وليس فيكم منهم أحد، ومن عند ابن عم رسول الله ﷺ وعليهم نزل القرآن وهم أعلم بتأويله»[5]، وقال السمعاني:" واجتمعت الأمة على تكفير الإمامية لأنهم يعتقدون تضليل الصحابة

---

[1] السنة للإمام أحمد ص/١٧، الصارم المسلول ص/٥٦٨، طبقات الحنابلة ١/ ٣٠.

[2] الرسالة ١/ ٩

[3] الكفاية في علم الرواية، ص ٩٧، وانظر: الإصابة، ١ / ١٠.

[4] أصول السنة ص١٤

[5] جامع بيان العلم وفضله ٢/ ١٢٧

وينكـرون إجمـاعهم وينسـبونهم إلـى مـا يليـق بهـم"[1]، وقـال أبـو محمـد ابـن أبـي زيـد القيرواني:" ومـن قـول أهـل السـنة: أنـه لا يعـذر مـن أداه اجتهـاده إلى بدعـة، لأن الخـوارج اجتهـدوا في التأويـل **فلـم يعـذروا إذ خرجـوا بتـأويلهم عـن الصحابة** فسـماهم عليـه الصلاة والسلام مارقين من الدين، وجعل المجتهد في الأحكام مأجورا وإن أخطأ"[2].

وقـال الشـافعي في رسـالته البغداديـة التي رواهـا عنـه الحسـن بـن محمـد الزعفراني: "وقـد أثنى اللـه تبـارك وتعـالى على أصحاب رسـول اللـه ﷺ في القـرآن والتـوراة والإنجيـل، وسـبق لهـم على لسـان رسـول اللـه ﷺ مـن الفضـل مـا لـيس لأحـد بعـدهم، فـرحمهم اللـه وهنـأهم بمـا آتـاهم مـن ذلـك ببلـوغ أعلى منـازل الصـديقين والشـهداء والصـالحين، أدوا إلينـا سـنن رسـول اللـه ﷺ، وشـاهدوه والـوحي ينزل عليـه فعلمـوا مـا أراد رسـول اللـه ﷺ عامـا وخاصـا وعزمـا وإرشـادا، وعرفـوا مـن سـنته مـا عرفنـا وجهلنـا، وهـم فوقنـا في كـل علـم واجتهـاد وورع وعقـل، وأمـر اسـتدرك بـه علـم واسـتنبط بـه، وآراؤهـم لنـا أحمـد، وأولى بنـا مـن رأينـا عنـد أنفسـنا، ومـن أدركنـا ممـن يرضـى أو حكي لنـا عنـه ببلـدنا صـاروا فيمـا لـم يعلمـوا لرسـول اللـه ﷺ فيـه سـنة إلى قـولهم إن اجتمعـوا، أو قـول بعضـهم إن تفرقـوا، وهكـذا نقـول، **ولـم نخـرج عـن أقـاويلهم، وإن قـال أحـدهم ولـم يخالفـه غيـره أخـذنا بقولـه**"[3]، وهـذا قـول جامع من الشافعي رحمه الله تعالى.

وقَـالَ ابـن بطـة:" وَلْـيَعْلَمِ الْمُؤْمِنُـونَ مِـنْ أَهْـلِ الْعَقْـلِ وَالْعِلْـمِ أَنَّ قَوْمًـا يُرِيـدُونَ إِبْطَـالَ الشَّـرِيعَةِ وَدُرُوسَ آثَـارِ الْعِلْـمِ وَالسُّـنَّةِ، فَهُـمْ يُمَوِّهُـونَ عَلَى مَـنْ قَـلَّ عِلْمُـهُ وَضَـعُفَ قَلْبُـهُ بِـأَنَّهُمْ يَـدْعُونَ إِلَـى كِتَـابِ اللَّـهِ وَيَعْمَلُـونَ بِـهِ، وَهُـمْ مِـنْ كِتَـابِ اللَّـهِ يَهْرُبُـونَ وَعَنْـهُ يُـدْبِرُونَ، وَلَـهُ يُخَـالِفُونَ وَذَلِـكَ أَنَّهُـمْ إِذَا سَـمِعُوا سُـنَّةً رُوِيَـتْ عَـنْ رَسُـولِ اللَّـهِ ﷺ رَوَاهَـا الْأَكَـابِرُ عَـنِ الْأَكَـابِرِ وَنَقَلَهَـا أَهْـلُ الْعَدَالَـةِ وَالْأَمَانَـةِ، وَمَنْ كَانَ مَوْضِـعَ الْقُـدْوَةِ وَالْأَمَانَـةِ وَأَجْمَـعَ أَئِمَّـةُ الْمُسْـلِمِينَ عَلَى صِـحَّتِهَا أَوْ حَكَـمَ فُقَهَـاؤُهُمْ بِهَـا، عَارَضُـوا تِلْـكَ السُّـنَّةَ بِـالْخِلَافِ عَلَيْهَـا وَتَلَقَّوْهَـا بِـالرَّدِّ لَهَـا، وَقَـالُوا لِمَـنْ رَوَاهَـا عِنْـدَهُمْ: تَجِـدُ هَـذَا فِي كِتَـابِ اللَّـهِ؟ وَهَـلْ نَـزَلَ هَـذَا فِي الْقُـرْآنِ؟ وَأْتُـونِي بِآيَـةٍ مِـنْ كِتَـابِ اللَّـهِ حَتَّى أُصَـدِّقَ بِهَـذَا، فَـاعْلَمُوا رَحِمَكُـمُ اللَّـهُ أَنَّ قَائِـلَ هَـذِهِ الْمَقَالَـةِ إِنَّمَـا تَرَقَّـقَ عَـنْ صَـبُوحٍ وَيُسْـرٍ خَبِيئًـا فِي إِرْبِغَـاءَ يَتَحَلَّى بِحِلْيَـةِ الْمُسْـلِمِينَ **وَيُضْـمِرُعَلَى طَوِيَّـةِ الْمُلْحِـدِينَ، يُظْهِـرُالْإِسْـلَامَ بِـدَعْوَاهُ وَيَجْحَـدُهُ بِسِـرِّهِ وَهَـوَاهُ**، فَسَـبِيلُ الْعَاقِـلِ الْعَـالِمِ إِذَا سَـمِعَ قَائِـلَ هَـذِهِ

[1] الأنساب ٣٦٥/٦

[2] الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ ص،١٢١

[3] إعلام الموقعين ٦٣/١

الْمَقَالَـةِ أَنْ يَقُـولَ لَـهُ: يَـا جَـاهِلًا فِي الْحَـقِّ، خَبِيثًـا فِي الْبَـاطِنِ، يَـا مَـنْ خُطِّئَ بِـهِ طَرِيـقُ الرَّشَـادِ وَسَبِيلُ أَهْلِ السَّدَادِ"[1].



[1] الابانة الكبرى ١م٢٢٤

الخاتمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، قال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس ٥٨]. قال هلال بن يساف:« بالإسلام الذي هداكم، وبالقرآن الذي علّمكم»[١]، وكَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ يَأْتِي إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمٍ فَيَقُولُ:« يَا إِبْرَاهِيمُ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَقْبِضَنَا عَلَى التَّوْحِيدِ»[٢]، وعن أحمد بن الحواري قال:« سمعت شعيب بن حرب يقول لرجل: إن دخلت القبر ومعك الإسلام فأبشر»[٣]

... إنها البشرى العظيمة، إنها النجاة من سُبل الشيطان وسبيل المجرمين وطرق الغواية، النجاة من نار حرها شديد وقعرها بعيد، إنها النجاة لمن تحقق بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾ [الزمر ١٧]. وحقيق أن يقال للناجي اليوم: ويحه كيف نجا!!.

لقد عاد الإسلام غريبا كما بدأ، وإنه اليوم لأشد غربة في هذه الجاهلية التي طمست على الناس بصائرهم وختمت على قلوبهم فهم لا يفقهون ولا يعقلون ولا يسمعون كما قال تعالى: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾[الفرقان ٤٤]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنَعَتِ الْعِرَاقُ دِرْهَمَهَا وَقَفِيزَهَا، وَمَنَعَتِ الشَّأْمُ مُدْيَهَا وَدِينَارَهَا، وَمَنَعَتْ مِصْرُ إِرْدَبَّهَا وَدِينَارَهَا، وَعُدْتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ**، وَعُدْتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ، وَعُدْتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ» شَهِدَ عَلَى ذَلِكَ لَحْمُ أَبِي هُرَيْرَةَ وَدَمُهُ»[٤]، وعَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه، قَالَ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا اسْمُهُ، وَلَا مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا رَسْمُهُ»[٥]، وتالله إنه لهذا الزمان.

إنَّ من شرح الله صدره بالتوحيد واستنار قلبه بالإيمان ثم نظر من علو الإسلام إلى الظلام البهيم والجاهلية النكراء، علم قدر النعمة التي أنعم الله عليه بها، ومن تقررت

---

[١] رواه الطبري في تفسيره برقم ١٧٦٦٩

[٢] الثبات عند الممات لابن الجوزي ٨٠/١

[٣] صفة الصفوة ٥/٢

[٤] رواه مسلم برقم ٢٨٩٦

[٥] خلق أفعال العباد ٦٧/١

عنده المسائل على أصولها الصحيحة من الكتاب والسنة وفهم كلام الله على مراد الله واستنار بفهم صحابة رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان، وفتح الله عليه في هذا الباب العظيم الذي زلت فيه أقدام وزاغت عنه أفهام وحادت عنه أقوام ... من استمسك بالنصوص المحكمات والآيات البينات تساقطت حوله الشبهات وبان له عوارها وانكشف عنه زيفها، فمن عرف الإسلام وحدَّه والجاهلية ووصفها عرف أهلهما، ومن عرف منهج القرآن والسنة في هذه القضية العظيمة المتعلقة بأسماء الدين وأحكامه، أيقن أن الدور التي أظهرت واستعلنت بالكفر وصروح الشرك ومشاهد المحادَّة لله عز وجل في الحكم والطاعة والعبادة، هي دور كفر أهلها كفار والعينُ منهم تُلحق بدين قومها إلا من أظهر المخالفة فيما أظهروه من الكفر والشرك وهو الظاهر المعتبر في هذه الدور... عرف كل ذلك بالأدلة تساقطت عنده الشبهات وظهرت له المسائل واضحة في صفاء لا يقوم غبش الشبهة في دفع اليقين ولا تعكير صفو الحق المبين، ثم نظر في واقع الناس اليوم فيتعجب في استغراب كيف لأقوام يصححون دين هذه الدور الممتنعة بهذه الشعوب عن دين الله، هذه الشعوب الغارقة في صنوف الكفر والشرك والجهل بلا إله إلا الله والإعراض عن تعلم الإسلام بحده الصحيح، الشعوب التي هي طوائفٌ ممتنعة عن دين الله بموجب قانون النصرة والخدمة الوطنية: الواجب المقدس عندهم، فرجالهم جنود احتياط لنصرة الطاغوت، الشعوب التي في زهوها تُنَكِّت بالاستهزاء بآيات الله وفي غضبها تَنتفض بسب ذات الله، هؤلاء العبيد للعبيد المتجنسين بدين الديمقراطية الخاضعين لملَّة العلمانية المنقادين لشريعة الطاغوت، هذه الشعوب التي أعلنت الكفر البواح: كالاستحلال والتَّشريع والتحاكم والانتخاب والولاء والنصرة للطواغيت، والاستهزاء بشعائر الإسلام كالجهاد والسبي ووصفها بالإرهاب والتَّخلف والرَّجعية، الشعوب التي فشا فيها التَّجهم وتعطيل الصِّفات وحصر الكفر بالمعرفة والاعتقاد ونفي العلو لله الواحد القهار، وتعطيل البراءة والتكفير، وانتشار الشرك بأنواعه وصوره، وتعظيم الطواغيت والأوثان ونصب التماثيل والأصنام وتحيَّة العلم وتعظيمه والقتال دونه، وكفر المجالِس كشهود أماكن الشِّرك في المظاهرات والأخبار والقنوات والإذاعات والمدارِس والجامعات والأعياد الكُفريَّة والأندية والملاعِب والرِّياضات، وما هذا إلَّا غيضٌ من فيضٍ وحبَّةٌ من فَلاةٍ ... حسبنا الله ونعم الوكيل.

ويـزداد العجـب حـين تُـدفَع النصـوص المحكمـات والآيـات البينـات وتحكَّـم عليهـا المتشـابهات، فكيـف تصـحح الشـعائر إسـلام المشـركين في العبـادة والحاكميـة والطاعـة والاتبـاع؟! .... ولكنهـا الضـلالة والعمايـة كمـا قـال تعـالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ ، فكيـف السـبيل إلـى قلـوبٍ تُجـادل في المُسـلَمات، وتـدفع الحـق دفعـاً ليصـفوا لهـا العـيش صـفواً وتهنـأ بفُتَـاتِ موائـد الموسسـات، وتَجْهَـدُ في ترقيـع الخـرق الـذي أفنى الثـوب البـالي وأنهـاه، كالـذي يسـتعير ثـوب زور ليسـتر بـه سـوءة العـاهرات ... قـال تعـالى: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَ وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾[الأنعـام ٣٦] ، إنهـم المجـادلون عـن المشـركين، المصـححون لـدين الكـافرين، الطـاعنون فـي أوليـاء اللـه الموحـدين، قـال تعـالى ﴿ قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴾[طـه١٣٥]، وعـن عَلِـيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قـال: «لَـوْ أَنَّ رَجُـلًا صَـامَ الـدَّهْرَ كُلَّـهُ، وَقَـامَ الـدَّهْرَ كُلَّـهُ، ثُـمَّ قُتِـلَ بَيْنَ الـرُّكْنِ وَالْمَقَـامِ، لَحَشَـرَهُ اللَّـهُ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ مَـعَ مَـنْ يُـرَى أَنَّـهُ كَانَ عَلَى هُـدًى» [1].

قَـالَ ابـن بطـة: "فَلَـوْ أَنَّ رَجُـلًا عَـاقِلًا أَمْعَـنَ النَّظَـرَ الْيَـوْمَ فِي الْإِسْـلَامِ وَأَهْلِـهِ لَعَلِـمَ أَنَّ أُمُـورَ النَّـاسِ تَمْضِـي كُلُّهَـا عَلَى سُـنَنِ أَهْـلِ الْكِتَـابَيْنِ وَطَـرِيقَتِهِمْ وَعَلَى سُـنَّةِ كِسْـرَى وَقَيْصَـرَ، وَعَلَى مَـا كَانَـتْ عَلَيْـهِ الْجَاهِلِيَّـةِ، فَمَـا طَبَقَـةٌ مِـنَ النَّـاسِ وَمَـا صِـنْفٌ مِـنْهُمْ إِلَّا وَهُـمْ فِي سَـائِرِ أُمُـورِهِمْ مُخَـالِفُونَ لِشَـرَائِعِ الْإِسْـلَامِ، وَسُـنَّةِ الرَّسُـولِ ﷺ مُضَـاهُونَ فِيمَـا يَفْعَـلُ أَهْـلُ الْكِتَـابَيْنِ وَالْجَاهِلِيَّـةِ قَـبْلَهُمْ"[2] ، وقـال البربهـاري: "واحـذر ثـم احـذر أهـل زمانـك خاصـة، وانظـر مـن تجـالس، وممـن تسـمع، ومـن تصـحب، **فـإن الخلـق كـأنهم فـي ردة**، إلا مـن عصـمه اللـه منهم"[3]، فهـذا وصـف أهـل زمـانهم، فكيـف بمـا حـدث بعـده مـن العظـائم والـدواهي التي لـم تخطـر ببـالهم، ولـم تَـدُر في خيـالهم؟! فـالنـاس اليـوم قـد دخلـوا في ديـن الديمقراطيـة عـن بكـرة أبـيهم ـ إلا مـن رحـم اللـه ـ وأظهـروا الموافقـة والاتبـاع لأوضـاعه والانقيـاد لقوانينـه وأحكامـه والتحقـوا بمدارسـه وجامعاتـه وتوظفـوا في مؤسسـاته وقطاعاتـه واعتنقـوا ديـن الـوطن فلهـم حقـوق المواطنـة وعلـيهم واجباتهـا، ومنهـا الـدفاع عـن الـوطن والإعـداد لـذلك بالخدمـة الإلزاميـة والمشـاركة في العمليـة السياسـية وإقامـة أركـان الطـاغوت في الأرض ويسـمونها بنـاء الـوطن فهـم عبيـد لهـذا الـوثن ... ثـم يـأتي بعـد ذلـك مـن يقـول أنَّ هـذا كفـر

[1] رواه الدارمي في سننه برقم ٣١٨

[2] الإبانة الكبرى لابن بطة٢/٥٧١

[3] شرح السنة ١٢٢

دون كفـر!! وأن هـؤلاء أهـل القبلـة!!، ويحـتج علـى تصـحيح مثـل هـذا الواقـع المنسـلخ ويرقـع لأهـل الديانـة الوضـعية بآثـار في وقـائع مباينـة تماما لمـا فيـه النـاس اليـوم، كأنـه لا يعلـم أن مـا وقـع فيـه النـاس اليـوم هـو أشـد وأشـنع ممـا وقـع فيـه اليهـود والنصـارى، فحسـبنا اللـه ونعـم الوكيـل في أهـل الأهـواء الـذين يحرفـون الـدين على غير تنزيلـه، فعَـنْ عَبْـدِ اللَّـهِ بْـنِ سَـعْدٍ قَـالَ قَـالَ عُمَـرَ بْـنَ الْخَطَّـابِ رضي الله عنه:« أَخْـوَفُ مَـا أَخَـافُ عَلَـى هَـذِهِ الْأُمَّـةِ الَّذِينَ يَتَأَوَّلُونَ الْقُرْآنَ على غير تَأْوِيله»[1].

إن تحقيـق ملـة إبـراهيم في هـذ الزمـان يكـون كمـا أمـر اللـه تعـالى في كتابـه: ﴿ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة ٤]، فمـن حقـق البـراءة مـن قومـه وممـا يعبـدون مـن دون اللـه وكفَّـرَهم وعـاداهم وأبغضـهم، وآمـن باللـه واستسـلم للـه بتوحيـده ـ كمـا بينـا في هـذا الكتـاب ـ، ولـم يشـرك باللـه شـيئاً في العبـادة والحكـم والطاعـة والمحبـة، واجتنـب عبـادة الطـاغوت، واتَّبـع مـا أنـزل اللـه وكـان عبـداً للـه في التلقي والطاعـة والاتبـاع لا عبـداً للطواغيـت أو وليـاً للكـافرين كمـا قـال تعـالى: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[الأنعام١٠٦] وقـال تعـالى: ﴿ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[البقرة٢٥٧] فمـن آتـى بـذلك فقـد حقـق ملـة إبـراهيم واستمسـك بـالعروة الـوثقى والكلمـة الباقية.

ولا تكـن يـا عبـد اللـه ممـن أصـم آذانـه واتبـع شـيوخه وخلانـه، وتـولى بعـد ظهـور الحـق وبيانـه، وعانـد بعـد قيـام الحجـة عليـه فاسـتوجب عذابـه، وكـان ممـن قـال اللـه فـيهم: ﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ﴾[الكهف١٠١]، قـال قتـادة« كانوا عميًا عَنِ الحـق فـلا يبصـرونه صـمًا عنـه فـلا يسـمعونه»[2]، وتـب إلى اللـه عـز وجـل قبـل

[1] رواه الروي في ذم الكلام برقم ٨٤ روى نَحوه الْبَزَّار فِي مُسْنده ٢٨٦ / ١ ٤٠٧ فِي آخر أثر طَوِيل من طَرِيق غير هَذَا

[2] رواه ابن أبي حاتم في تفسيره برقم ١٢٩٩٤

فـــوات الأوان ، قـــال يحـــي بـــن ســـلام: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[الزمـــر٥٣]، بِالشِّرْكِ﴿ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ"[١].

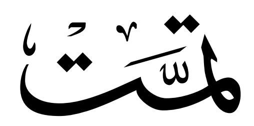
نسـأل اللـه أن يقيمنـا على الملـة الغـراء ويثبتنـا على المحجـة البيضـاء حتى نلقـاه، اللهـم أفـرغ علينـا صبرا وتوفنـا مسـلمين وألحقنـا بالصـالحين، اللهـم أحينـا علمـاء عـاملين مـا كانـت الحيـاة خيراً لنـا، واختـم لنـا بالشـهادة في سـبيلك دفعـاً عـن دينـك تحـت رايـةٍ لا غـبش فيهـا ولا كـدر، فـلا طابـت حيـاة العبيـد في دور الشـرك والتنديـد، فـإن حـال المسـلمين فيهـا كمـا روي جـابر بـن عبـد اللـه عـن النبي ﷺ قـال: ﴿ يـأتي زمـان على النـاس يسـتخفي المـؤمن فـيهم كمـا يسـتخفي المنـافق فـيكم اليـوم﴾[٢]، وإن كـان ابـن بطـة يقـول في زمانـه: "فَإِنَّـا قَـدْ أَصْـبَحْنَا فِي زَمَـانٍ قَـلَّ مَـنْ يَسْـلَمُ لَـهُ فِيـهِ دِينُـهُ، وَالنَّجَـاةُ فِيـهِ مُتَعَـذِّرَةٌ مُسْتَصْـعَبَةٌ إِلَّا مَـنْ عَصَـمَهُ اللَّـهُ، وَأَحْيَـاهُ بِـالْعِلْمِ"[٣]، فمـاذا نقـول نحـن ومـا عسـانا أن نقـول إلا أن نقـول: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾[آل عمران٨]

هــذا جهــد المقــل ونصــيحة المشــفق وصــيحة النــذير، وقــد ســلكت فيهــا مســلك الاختصـار لضـعف همـم النـاس عـن البسـط والاطنـاب، واجتهـدت في البنـاء على كتـاب اللـه واقتفـاء الآثـار عـن رسـول اللـه والاسـتنارة بفهـوم الصـحب الأخيـار والأئمـة الأبـرار، ومـا نقلـت عـن المتـأخرين مـن كلامهـم فهـو ممـا وافـق الحـق مـن أقـوالهم حيـث لـم أجـد للسـلف قـولاً فيمـا لـم يعترضـوا لـه ممـا أحدثـه المتـأخرون مـن مقـالات، قـال الـدارمي :" **فَـإِنْ طَلَبْـتُمْ مِنَّـا فِيـهِ آثَـارًا مَـأْثُورَةً مُسْـنَدَةً مَنْصُوصَـةً فِيـهِ عَـنِ الصَّـحَابَةِ، وَالتَّـابِعِينَ فقـد أخبرنـاكم أَنَّـهُ كُفْـرٌ لَـمْ يَحْـدُثْ فِي عَصْـرِهِمْ، فَيُـرْوَى عَـنْهُمْ فِيـهِ**"[٤]، ومـا ذلـك إلا ليسـتأنس القـارئ بـالعزو ولا يُنسـب للكاتـب فهمـاً لـم يُسـبق إليـه، فلـيس في قـول أحـد مـن الرجـال حجـة في ديـن اللـه إلا مـا كـان مـن كتـاب اللـه أو السـنة الصـحيحة عـن رسـول اللـه ﷺ أو إجمـاع صحابة رسـول اللـه ﷺ"[٥]، وإن كنـا قـد نقلنـا في هـذا الكتـاب مـن إجماعـات لغير الصـحابة علـى أن " أهـل العلـم مـالوا إلى معرفـة الإجمـاع ليعظمـوا خـلاف مـن خالفـه ويزجـروه عـن

[١] تفسير يحي بن سلام ٤٩٠/١
[٢] أخرجه الطبراني في مسند الشاميين ٢٣٨ وابن عدي في الكامل في الضعفاء ١٨٩/٧ وهو غير محفوظ
[٣] الإبانة الكبرى ٣٦٦/١
[٤] نقض الإمام أبي سعيد ٥٤٤/١
[٥] انظر كتاب: "**الإقناع بمنزلة الآثار من المرفوع والموقوف وحجية الإجماع**" **لصاحب الكتاب**

خلافه فقط، وكذلك مالوا إلى معرفة اختلاف الناس لتكذيب من لا يبالي بادعاء الإجماع جرأة على الكذب حيث الاختلاف موجود فيردعونه بإيراده عن اللجاج في كذبه فقط"[١].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه والتابعين.





[١] الإحكام في أصول الأحكام ١٤٤/٤

ملحق

نونية الغريب

محمد بن سعيد الأندلسي

ختم الله له بالشهادة

الحَمْدُ للهِ العَظيمِ شَأْنَهُ ... ثُمَّ الصَلاةُ علَى النَّبي العَدنَانِ
والآلِ والصَّحْبِ الكِرامِ كُلِّهِم ... والسَّالِكينَ لِدَربِهِمْ بِبيَانِ
وبَعْدُ ذِي نُونِيَةٌ حَرَّرْتُهَا ... أبيَاتُهَا فِي عَقْدِنَا مِئَتَانِ
أو قَدْ يَزِيدُ فَوْقَ ذَا العَدِّ لَهَا ... فِي نَهْجِنَا والقَولِ ذِي الفُرْقَانِ
وأَستَعينُ اللهَ فِي نَظْمِي لَهَا ... قَولاً يُزِيلُ اللَبْسَ للحَيرَانِ
يا رَبِّ بَارِكْ بِذْرَةً فِي أَصْلِهَا ... نَفْعاً يَفِيضُ مُثْمِرَ الأَفْنَانِ
يَا سَائِلِي عَنْ مَنْهَجِي وعَقِيدَتِي ... تَرْجُوا النَّجَاة وتَبْتَغِي الرِّضْوانِ
إنَّ النَّجَاةَ اليَومَ عَزَّ مَنَالُهَا ... وقَلَّ مَنْ يَنْجُوا مِنَ الثَّقَلانِ
فِي هَذِه الأَرضِ التِي قَدْ أَظْلَمَت ... مِنْ نُورِ دِينِ الوَاحِدِ الدَيَّانِ
فَضَاقَ فِي الأُفُقِ الوَسِيعِ مَعَاشُهَا ... بَينَ البَهَائِمِ زُمْرَةِ الشَيْطَانِ
قَد استَحالَت جُمْلَةً عَنْ دِينِهَا ... كالأَنْدَلُسْ فِي غَابِرِ الأَزمانِ
وتَآكَلَت فِي نُفُوسِها الفِطَرُ التِي ... فُطِرتْ عَليهَا سَائِرُ الولِدَانِ
فَغَدَت إلى الشِركِ الصَّرِيحِ أَصَالةً ... وَرِثُوهُ دِيناً فِي ثَرى الأَبَوانِ
فَالجِيلُ يَنشَئُ في المَدارِسِ نَشأَةَ ... علَى غَيرِ دِينِ المَنْهَجِ الرَبَّانِ
رَضِعُوا مِنَ الثَّدي الخَبيثِ ثَمَالَةً ... يَشتَدُّ عُودٌ فِي ثَرَى الكُفران
عُودٌ يُقاتِلُ فِي سَبيلِ وَطْنِهِ ... كَي يَحيَ فِيه مُنعَّماً بأَمانِ
يَذُودُ عَن دَارِ البَوارِ شَجَاعةً ... كَي يَبقى مُلْكاً شَامِخَ البُنيانِ
الدارُ تُرفَعُ فِي ثَراها رَايَةٌ ... وَثَنٌ يُعظَّمُ فِيهَا كالصُلبانِ
ومَعالِمُ الطُغيَانِ فِي جَنبَاتِهَا ... وصُروحُ شِركٍ تَبْدُوا للأَعيَانِ
قَد قَامَها الشَّعبُ الذي في دِينهِ ... الحُكْمُ لِلجمهُور حُكْماً دَانِ
وشَرائِعُ الكُفْرَانِ هُم مَن صَاغَهَا ... في البَرلَمانِ شُعبَةَ الطُغيَانِ
فَتنوبُ شَعباً كَامِلاً فِي سَنِّهَا ... حَتى يَكُونَ الحُكمُ للأَوثَانِ
والشَّعبُ طَوعاً يَنْتَخِبْ في مَحْفَلٍ ... فَالقَولُ قَولُ الشَّعبِ لا قَولانِ
لِيُنَصِّبَ الطَّاغُوتَ في مُلكٍ لَهُ ... يَقضِي بِشِرْعَةِ شُعبَةِ الخُذلانِ
حَتَّى إذا حادَ المُلوكُ فِي حُكْمِهِمْ ... عَن نَهْجِهِمْ فالقَولُ قولٌ ثانِ
فَتسيرُ جَمْهَرةُ الشُعوبُ في ثَورةٍ ... فِي خَلْعِ حَاكِمِهَا الذي هُو جانِ
فَيُنَصِّبُوا مَن يَرتَضِيهِ غُثَاؤُهم ... ويُزِيلُوا مُلْكاً رَاسِخَ الأَرْكانِ
فَهُم الذينَ يُقَرِرُونَ أَصَالةً ... دِينَ المُلوكِ وحَاكِمَ الأعيَّانِ

شَعْبُ النَّذَالةِ يَنْسَلِخْ عَنْ فِطْرَةٍ ... يَحْظَى بِما قَدْ خُصَّهُ الرَحْمَانِ

فِي دِيِنِ دِيمُقْرَاطَ هَذا سَبِيلُهُ ... حُكْمُ الغُثَاءِ فِي سَائِرِ الأَوْطَانِ

دَينُ النَصْارَى قَدْ حَذْوُا فِي حَذْوِهِ ... تَقْلَيدُهُم في حُكْمِ ذَا السُلْطانِ

فَاتَّخَذُوا الأَرْبَابَ فَي تَشْريعِهِمْ ... مَنْعاً وَفَرْضاً سُنَّةَ الرُهْبَانِ

ورَذَائِلُ الخَلْقِ هُمْ حُكَّامُهَا ... سُفَهَاءُ قَوْمٍ زُمرَةَ النِّسوانِ

قَدْ بَدَّلُو دِيِنَ النَّبِيِّ مُحَمَدٍ ... وَخَيِرِ هَدْيِ المُصْطَفَى العَدْنَانِ

بِزُبَالَةِ الآرَاءِ وَالأَذْوَاقِ فِي ... لَذَاتِ حَاذِقِ تِرْكَةِ اليُونَانِ

تَجْرِي عَلَى أَعْرَاضِهِم ودِمَائِهِم ... قَد عُبِّدُوا لِلخَلْقِ وَالشَيِطَانِ

تَجْرِي عَلَى أَمْوالِهِم وعُقُودِهِم ... أَوضَاعُهَا تَسْرِي بِلا نُكْرانِ

وَمحَاكِمُ الطَاغوتِ عَالِي بِنَاؤُهَا ... وَوُفُودُهَا تَمْضِي بِلا نُقَصَانِ

وَمِيزَانُهَا بَخْسٌ عَلَى رُوَّادِهَا ... قَانُونُهَا حَيِفٌ عَلَى الإِنْسَانِ

عَجَبًا لَهُم كَيِفَ رَضُوُا لِحَيَاتِهِم ... تَسُوُسُهَا أَهْوَاءُ ذِي الخُذْلانِ

فَدَانُوا لِلمَخْلُوقِ طَوعاً مِنْهُم ... وَتَنكَّرُوا مِن شِرْعَةِ الدَيَّانِ

قَد أَسْلَمُوا لِعَبِيدِ سُوءٍ مِثلُهُم ... وَانْقَادُوا لِطَّاغُوتِ دُونَ سِنَانِ

قَدْ أُدْخَلَت فِي دِينِهِ أَفْوَاجُهُم ... فَالدِّينُ حُكْمُ الُملْكِ والسُّلْطانِ

وطَاعةٌ لنِظَامِ حُكُمٍ وَضْعُهُ ... أَرْبَابُهُمْ لا خَالِقَ الأَكْوَانِ

فَهُوَ اتِبَاعُ الأَمْرِ وَالنَّهيِ لِمنْ ... دَانَتْ لَهُ بِالقَهْرِ ذِي القِطْعانِ

فَمَنِ اسْتَقَامَ خُضْوُعهُ في دَارِهِم ... وَانْقَادَ مُتَّبِعاً هُمَا مِثْلاَنِ

فَهُمَا فِي دِيِنِ غَيِرِ دِينِ اللهِ مَا ... دَخَلُوهُ أَصْلاً إِلا فِي الأَذْهَانِ

في ذِهْنِ جَهْمٍ قَدْ صَفَا إِسلاَمُهُم ... أَحْبَارُ سُوءٍ نَعْلَ ذَا السُّلْطَانِ

فَفِي دِينِهِ لا يَكْفُرُوا بِخُضُوعِهِم ... قَدْ أَخْرَجُوا العَمَلَ مِنَ الإِيمَانِ

طَوَاغِيتُ عِلْمٍ يُقْتَفِى آثَارَهُم ... فَتَنُوا الأَنَامَ فِي آخِرِ الأَزْمَانِ

قَدْ حَرَّفُوه جُمْلَةً وَتَزَيَّنُوا ... بِبَهْرَجِ الأَقَوَالِ وِالأَلحَانِ

خَاطُوه دِيناً تَرْتَضِيهِ مُلوكُهُم ... قَدْ خَانُوا عَهْدَ الوَاحِدِ الدَيَّانِ

قَطَعُوا الطَّرِيقَ عَنْ الهُدَاةِ جَهْرَةً ... سَارُوا بِهِم فِي مَسَالِكِ الحَيْرَانِ

تَاهُوا وَقَد حَسِبُوا النَّجَاةَ في غَرْزِهِمْ ... طَوعاً لِقَولِهُم، بِلا برهان

إِنْ قُلْتَ قَالَ شَيخُنا أَنْعِمْ بِهِ ... قَالَ إِمِامُ العَصرِ كَالعُمَرَانِ

إنْ قَالَ لا تَسأَلْ لهُ عَنْ أَصلِهِ   تَسلِيمُنَا مِنْ أَفضَلِ القُربَانِ
قَدْ نَصَّبُوهُ إلَاهَهُم لو يَعلَمُوا   لَكِنَّهُم قَد أُطْمِسُوا البَصَرانِ
قَد غَشَّهُم فِي أَصلِ دِينِ الأَنْبِيَاء   فَدَانُوا غَيرَ مِلَّةِ الخِلانِ
لا يُعْذَرُونَ بِجَهلِهِم وضَلالِهِم   فَالعُذْرُ مُمتَنِعٌ لِذِي الأَديَانِ
كذَاكَ مَن قَدْ أَسلَمَ أَجنَاسَهُم   مَا حَقَّقَ الإسلامَ والإِيمَانِ
فَصرِيحُ دِينِ الأَنبِيَاءِ بَرَاءَةٌ   مِنْ شِرْكِ عَابِدِهِم مَعَ كُفْرَانِ
وتَلازُمٌ بَينَ البَرَاءةِ مِنهُم   وَبَراءةٌ مِنْ شِرْكِهِم سَيَّانِ
لا يَستَقِيمُ الدِينُ إلا بِأَصلِهَا   مَا قَامَ حَتَّى قَامَتِ القُطبَانِ
هَذا الذِي قَد أخرَجُوهُ دُعَاتُنَا   مِن أَصلِ دِينِ فَاطِرِ الأكوَانِ
فَأَسلَمُوا الأَقوَامَ فِي دَارِ الخَنَا   وَصَحَحُوهُ لِسَاكِنِ العُمَرَانِ
إخوانُهُم عُبَّادُ مَن وَسِدَ الثَرَى   العَاكِفِينَ عَليهَا طُولَ زَمَانِ
الرَاقِصِينَ بِآلِيَّاتِ نِسَائِهِم   والطَائِفِينَ عَلى قَفَا الجُدْرَانِ
الخَاشِعِينَ فِي حَضرَةِ أَموَاتِهِم   العَائِذِينَ بِهِم مِنَ الأَحزَانِ
الوَارِثِينَ لِنِحلَةِ أَسلافِهِم   المُقْتَفِينَ آثَارَهُمْ بِبَيَانِ
مَنْ عَمرُوا فَوقَ القُبُورِ مَسَاجِداً   شِرَارُ خَلْقٍ وِصْفَةَ العَدنَانِ
شِركُ القُبُورِ والقُصُورِ بَينَهُم   أَشَدُّ مِن شِرْكِ بَنِي نَصْرَانِ
لمْ يَترُكُوا بَاباً مِنَ الكُفْرِ ولاَ   جُمَلاً مِنَ الفِسْقِ ولاَ العِصيَانِ
بَلْ أَحدَثُوا مِنْ هَذه الأَوضَاعِ مِنْ   مَا لَمْ يَكُنْ فِي سَالِفِ الأَزمَانِ
فَأَدْخَلُوا الكُفرَ فِي جُلِ عُقُودِهِم   وأَلْزَمُوا ذَاكَ فِي كُلِ مَكَانِ
يَا وَحْشَ مَن قَدْ وَحْدَ المَولَى وَمَنْ   قَدْ حَقَقَ الكُفْرَ بِذِي الأَوثَانِ
لا يَسْلَمُ الدِينُ لَهُ إلا إذَا   قَدْ فَاصَلَ الأَقْوَامَ والعُمْرَانِ
شَغَفُ الجِبَالِ يَكُونُ ذَاكَ مِلاَذُهُ   يَفِرُ مِنْ سُفَهَاءُ ذِي البُلْدَانِ
يَرْقَى لِذَاكَ السَفْحِ يَخْلُوا بِطَاعَةٍ   حَتَّى يُلاَقِي رَبَهُ المَنَّانِ
مَنْ لَم يُفَارِقْ قَومَهُ فَليَحْذَرِ   مِنْ خُلْطَةِ الكُفَّارِ وَالبُطلاَنِ
يَضِيعُ دِينٌ فِي مَودَةِ مُشْرِكٍ   يَذُوبُ صَلْبٌ فِي خُطَا الشَيطَانِ
طَاغُوتُ ذَا العَصرِ هُوَ أَقوَامُنَا   فَاجْتَنِبُوهُ إخْوَةَ الإِيمَانِ
يُنَازِعُونَ الربَ فَي مَا اخْتَصَهُ   وَتَفَرَدُوا بِالحُكْمِ والسُلطَانِ
فَالحُكْمُ إلا لِلشُعُوب مَقَالُهُم   يُضَاهِئُونَ بِهِ بَنِي نَصْرَانِ

فَالحُكْمُ لِلمَولَى الإِلَهِ كُلِهِ ... وإنْ جَحَدْ ذَاكَ بَنِي عَلْمَانِ

وَبَرَاءَةٌ مِنْ قَومِنَا تَوحِيدُنَا ... فَاعْضُضْ عَليهِ يَا أخَا العِرفَانِ

مُتَرددٌ فِي ذَاكَ أو مُتَوَقِفٌ ... يُلْحَقْ بِذَاكَ القَومِ فِي كُفْرَانِ

وكُلُ فَرْدٍ مِنْهم يُلْحَقْ بِهِم ... فَاحْكُمْ بِهَذا الحُكْمِ دُونَ تَوَانِ

غَيرَ الذِي قَدْ أظهَرا إسْلامَهُ ... وبَرَاءَةٌ مِنْ قَومِهِ بِبَيَّانِ

فَهُوَ الحَنِيفُ المُقْتَدِي بِإِمَامِهِ ... المُهْتَدِي والمُسْلِمُ الحَقَّانِ

أَهْلُ الوِلاَيَةِ نُصْرَةً ومَحَبَةً ... أَهلُ الإِخَاءِ وشِيعَةَ الإِحْسَانِ

هَذا كِتَابُ اللهِ يَنْطِقُ بَينَنَا ... بِأَفْصَحِ التِبيَّانِ والبُرْهَانِ

فَكُلُ مَا قَدْ قَصَّهُ فُرْقَانُنَا ... عَنْ مِثْلِ أَقْوامٍ لَنَا صِنْوَانِ

لا فَرْقَ بينَ قَومِنَا أو قَوْمِهِم ... إلا بِدَعوَى دُونَ ذَا بُرهَانِ

إنَّ الدَعَاوَى لا تُصَحِحُ دَعوَةً ... إلا بِعِلْمٍ جَازِمِ التِبيَّانِ

فَأَصلُ دِينِ الأَنبِيَاءِ بَرَاءَةٌ ... يَتَمَايَزُ فِي إثْرِهَا الدِينَانِ

مَا كَانَ فِي ذَاكَ الزَمَانِ دِينُهُم ... فَبِهِ النَّجَاةُ فِي آخِرِ الأَزْمَانِ

يَا غَرْبَةً فِي الدِينِ بَينَ قَومِنَا ... فَالْخُلْفُ في تَعرِيفِ ذَا الإِيمَانِ

نَدْعُوهُم لصَحِيحِ دِينِ الأنبِيَاء ... يَدْعُونَنَا حُدَثَاءَ ذَا الأَسْنَانِ

فَخَوارِجٌ لَسنَا نَقُولُ بِقَولِهِم ... أَهلُ الكَبَائِرِ هُم ذَوو عِصيانِ

أَمَا الصَّحَابَةُ هُمْ تِيجَانُ رُؤُوسِنَا ... فِي إثْرِهِم نَقْفُوا إلى الرِضوَانِ

قَدْ كَفَّرَ الصَّحْبُ الكِرَامُ دِيَّارَ مَنْ ... المَانِعِينَ شَرِيعَةَ المَنَّانِ

فَكيفَ مَنْ قّدْ بّدَلَ الدِينَ وَدَانَ ... بِنِحْلَةِ قَومِ بَنِي عَلْمَانِ

فَخَوارِجٌ مِنْ دِينِ قَومٍ بَدَلُوا ... لَسنَا بِدَاخِلِ هَذِهِ الأَدْيَانِ

فَغيرُ دِينِ المُصطَفَى لا نَبتَغِي ... نَرجُو النَّجَاةَ وحُورَ ذَا الأَعَيَّانِ

يَا طَالِبَ الحَقِ مُرِيداً لِلهُدَى ... اسْمَعْ بِفَهمٍ حَاضِرٍ يَقْظَانِ

اِخْلَعْ قُيُودَ أَسْرِهِم وَهَوَانِهِم ... كَسْراً لِلذِي الأَصنَّامِ والأَوْثَانِ

وَتَعَلَّمِ الدِينَ الصَّحِيحَ بِحَدِهِ ... واحْكُم بِهِ وَضْعاً عَلَى المِيزَانِ

وارفَع بِرأسِكَ نَاظِراً فِي قَومِنَا ... هَلْ هَؤُلاءِ عُصبَةُ الإِيمَانِ؟

واقرأ كِتَاباً خَطُهُ بِأَنَامِلِي ... فِيهِ البَيَّانُ الشَّافِي والبُرهَانِ

عَنْوَنْتُهُ بِهِدَايَةِ الأَنَامِ ... لِحَقِيقَةِ الإِسلاَمِ والإِيمَانِ

فَاعضُضْ عَليهَا بِالنَّواجِذِ مُمْسِكاً ... واحْذَرْ تَزُولُ تَبُوءُ بِالخُسرَانِ

فهرس